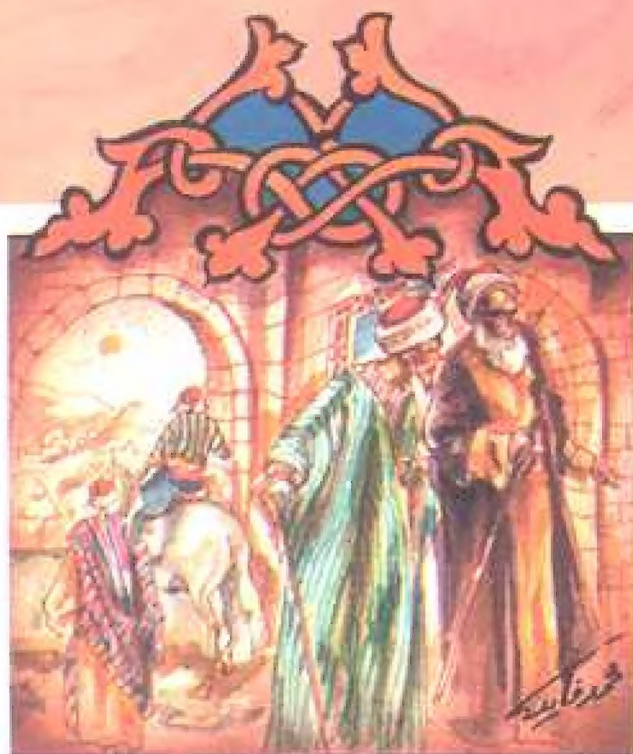


نَهَضَتُنَا الْحَدِيثَةُ بَيْنَ الْعِلْمَانِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ

الدكتور محمد عمارة



نهضتنا الحديثة
بين
العلمانية والاسلام

الناشر :	دار الرشاد
العنوان :	١٤ شارع جواد حسنى - القاهرة
تليفون :	٢٩٩٢٦١٥ - ٣٩٣٤٦٠٥
رقم الإيداع :	٩٧ / ٥٠٨٥
الترقيم الدولي :	٦ - ٤١ - 5324 - 977
طبع :	عربية للطباعة والنشر
العنوان :	١٠، ٧ ش السلام - أرض اللواة - المهندسين
تليفون :	٣٠٣٦٠٩٨ - ٣٠٣١٠٤٣
الجمع :	أرمس للكمبيوتر
العنوان :	٣٢ ش على عبد اللطيف - مجلس الشعب
تليفون :	٣٥٦٤٤٠٤
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة	
الطبعة الثانية :	١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م «الأولى للدار»
خطوط الغلاف :	لمعى فهيم
تصميم الغلاف :	محمد فايد

نَهَضَتْنَا الْحَدِيثُ بَيْنَ الْعِلْمَانِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ

الدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ عَمَّارٌ



مقدمة الطبعة الثانية

لا نغالى إذا قلنا إن الصراع الفكرى والسياسى والقيمى بين « الإسلامية ، و « العلمانية » - ومن ثم بين « الإسلاميين ، و « العلمانيين » - قد أصبح المحور الذى أحدث ويحدث أخطر الاستقطابات الفكرية والانقسامات السياسية فى حياتنا المعاصرة ، على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام .. بل وعلى امتداد عالمنا المعاصر بأسره .. فالجهود الغربية المعلنة - وهى كثيرة وخطيرة - وغير المعلنة - وهى أكثر وأخطر - والتى تواجه وتتحدى اليقظة الإسلامية المعاصرة إنما تستهدف الوصول إلى « علمنة الإسلام ، لتطويعه كى يقبل النموذج الغربى فى العلمانية ، ومن ثم تتركس التبعية الحضارية للغرب فى وطن العروبة وعالم الإسلام ، بما تعنيه من ثمرات التبعية فى الأمن والسياسة والاقتصاد ..

وفصائل العلمانيين فى بلادنا العربية والإسلامية - والغلاة منهم على وجه التحديد - ليسوا أكثر من وكلاء ونواب وعملاء حضاريين لهذه الدوائر الغربية التى تستهدف « علمنة الإسلام » - سواء أوعوا هذا الدور البائس الذى يقومون به أم لم يعوه ! ..

وفى مواجهة هذا التحدى العلمانى الشرس تقف - أو يجب أن تقف - كل فصائل اليقظة الإسلامية المعاصرة - مجددين كانوا أم مقلدين .. إصلاحيين كانوا أم ثوريين .. من أهل العقلانية كانوا أم من المتصوفين .. فالتحدى

العلماني إنما يستهدف عزل السماء عن الأرض ، بتحريض الدولة والسياسة والمجتمع والعمران البشري من حاكمية الشريعة الإلهية ، بجعل العالم مكتفيا بذاته عن تدبير السماء .. والإنسان مكتفيا بذاته عن شريعة الله .. وفي ذلك عدوان على التصور الإسلامي لآفاق فعل وعمل وتدبير الذات الإلهية .. فالله - سبحانه وتعالى - في هذا التصور الإسلامي - ليس كإله أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) ، أو الوثنية الجاهلية ، والعلمانية : مجرد خالق ، لا شأن له بتدبير العالم ، وتنظيم الحياة وحكم الاجتماع الإنساني .. بل إنه الخالق ، والمدير ، إنه الموجد ، والهادي ، إنه المنشئ ، والراعي ، ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ (١) ، ﴿ قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يَا مُوسَى ﴾ (٤٩) قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿ (٥٠) ﴾ (٢) ..

ولأن هذه هي حقيقة التصور الإسلامي لنطاق وآفاق عمل الذات الإلهية ، كان الإسلام - الشريعة كالعقيدة .. والحضارة كالقيم والأخلاق - روحا سارية وأظرا حاكمة في سائر مناحي حياة الإنسان ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣) .. فالعلمانية عدوان على العقيدة ، الإسلامية ، كما أنها عزل لشريعة الإسلام عن عرش التدبير لحياة الناس ..

(١) الأعراف : ٥٤ .

(٢) طه : ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .

ولأن هذا الكتاب قد تصدى لمحاولات علمنة نهضتنا الحديثة .. تلك التي قادها الدكتور لويس عوض - عندما كتب « قصة العلمانية في مصر » .. فإن تصاعد حدة هذا الصراع بين « الإسلامية » و « العلمانية » قد استدعى تقديم طبعته الجديدة هذه إلى القراء ..

سائلين الله - سبحانه وتعالى - أن يجعل منه كلمة سواء ، يهتدى إلى أرضها المشتركة كل المخلصين من مختلف الفرقاء .. وما ذلك على الله بعزيز .. ولا على العقلاء من الإسلاميين والعلمانيين بغريب ؟!

جمادى الثانية ١٤١٧ هـ .

القاهرة

نوفمبر ١٩٩٦ م .

دكتور

محمد عمارة

القضية

فى الفكر السياسى القديم لحضارتنا العربية الإسلامية كان الخلاف حول طبيعة السلطة السياسية للدولة السبب الرئيسى الذى أحدث أعرق الانقسامات فى صفوف المسلمين .. عندما أصبحوا :

* **سنة** : يرون هذه السلطة ، مدنية ، ؛ لأن الخليفة وأمير المؤمنين - (رأس الدولة) - حاكم مدنى ، تختاره الأمة بالشورى ، وتبايعه .. ثم تراقبه ، وتحاسبه .. وتعزله إن هو ضعف أو فسق أو أخل بشروط التفويض ...

* **وشيعه** : جعلت الإمامة شأنًا إلهيًا ، لا دخل للبشر فيه ، وأضفت على الأئمة قداسة وعصمة ارتفعت بهم عن مصاف البشر .. وجردت الأمة من أى حق لها فى هذا المنصب اختياراً أو مراقبة أو حساباً ...

ولا تزال هذه القضية وراء هذا الانقسام القائم فى صفوف المسلمين حتى عصرنا الذى نعيش فيه !..

وفى فكرنا السياسى الحديث يلعب الخلاف حول طبيعة السلطة فى الدولة الإسلامية دور ، المحور ، الذى يحدد الاتجاهات والتيارات ...

* فالذين يرون ، السياسة والدولة ، : دينا خالصا ووضعاً إلهياً ، ، يقيسون خلافاتهم مع خصومهم بمعايير : ، الكفر ، و ، الإيمان ، .. وتكاد أن تظهر وتشيع فى كتاباتهم مراسم ، الغفران ، و ، الحرمان ، !..

* أما الذين فصلوا الدين ، عن الدولة ، ، و باعدوا بين الرسالة ،
و السياسة ، .. فإنهم هم الذين يتبنون اليوم - فى حياتنا الفكرية - الدعوة إلى
« العلمانية » ... إما من منطلق الخوف من مخاطر الدولة الدينية -
التيوقراطية ، ، التي جربتها أوربا فى عصورها الوسطى ، فنكبت بقرون من
التخلف والرجعية والجمود ... وإما من منطلق العشق للنمط الأوربي فى
النهضة والإحياء ، وهو نمط لعبت فيه « العلمانية » دورا تقديما لا سبيل إلى
التشكيك فيه ...

والذين ينظرون إلى واقعنا الفكرى الراهن تزعجهم أبعاد هذا الانقسام بين :
١ - « سلفية نصوصية » تتعبد بظواهر نصوص لا قداسة لها ؛ لأنها
فكر ، لمفكرين ، وليست « دينا » ولا « وحيا سماويا .. » وهى تسعى إلى هدف
مستحيل : أن تصب حاضرننا ومستقبلنا فى قوالب السلف وتجاربهم ، معاندة
بهذا السعى قوانين التطور التى هى سنة من سنن الله فى الكون دائمة الفعل
والتأثير ..

٢ - و « سلفية نصوصية » ، تتعبد - هى الأخرى - بظواهر نصوص ،
لم يبدعها « سلفنا » ، وإنما أبدعها مفكرو الحضارة الغربية ، منذ اليونان وحتى
عصر النهضة الأوربية الحديثة ! .. وهى تسعى - هى الأخرى - إلى هدف
مستحيل .. أن تصب حاضر أمتنا ومستقبلها فى قوالب الغرب وتجاريه .
معاندة بهذا السعى قانون التمايز الحضارى ، والخصوصية القومية التى هى
ثمرة لتمايز الموارىث الفكرية ، واختلاف أنماط التطور لدى الأمم العريقة فى
الحضارة ، والغنية بالعباء والإبداع ..

إن هذا الانقسام بين « السلفية النصوصية » الموروثة ، وهذه « السلفية

النصوصية ، الوافدة قد بلغ من الحدة درجة ، الطائفية الحضارية ، !.. ففريق يعيش - بفكره - خارج العصر ، أسيراً للنصوص تجاوزها التطور .. وفريق يعيش ، بفكره ، خارج الوطن أسيراً للنصوص إن كانت قد ناسبت ، الغير ، فلا سبيل إلى زرعها - بالقسر - في كياننا الحضارى المتميز - بالقطع - عن ذلك ، الغير ، !..

وفى هذا الانقسام الذى قادنا إلى هذه ، الطائفية الحضارية ، تلعب العلمانية ، دوراً رائداً ورئيسياً .. لأنها تفجر القضية كلها .. قضية طبيعة السلطة السياسية فى الدولة ، كما يراها الإسلام ...

وهل نحا الإسلام نحو ، الدولة الثيوقراطية ، و ، السلطة الدينية ، - فى الفكر ، أو فى التطبيق - أو فيهما معا - فتكون ، العلمانية ، هى الحل ، فى الإطار الإسلامى ، كما كانت الحل لمشكل ، الثيوقراطية المسيحية الغربية ، ؟؟...

أم أن للإسلام - كدين وحضارة - فى هذه القضية نهجا آخر ، يرفض العلمانية ، رفضه ، للدولة الدينية - الثيوقراطية ، ؟؟... ثم .. ما هو هذا النهج الإسلامى ، إن كان ؟!..

تلك هى القضية المحورية التى نسعى إلى طرحها .. وإلى حسمها بصفحات هذا الكتاب ..

والله من وراء القصد .. وهوولى السداد والتوفيق

رجب سنة ١٤٠٥ هـ ..
القاهرة
أبريل سنة ١٩٨٥ م ..

د . محمد عمارة

الدلالة .. وملايسات النشأة

كثيرة ، ومتنوعة تلك التحديات التي جوبه بها الإسلام والمسلمون وأوطانهم ، منذ ظهوره وحتى العصر الذي نعيش فيه ..

ومن هذه التحديات ما كان مصدرها الأعداء الخارجيين .. ومنها ما كانت صادرة من الداخل ، من البيئة والواقع ، يغذيها ويرعاها الأعداء الخارجيون!؟ ..

فمن حروب عصر صدر الإسلام ضد حرية الدعوة والدعاة .. إلى التيارات الفكرية المناهضة .. هليئية .. وغنوصية .. وزندقة .. وشعوبية .. وجمودا يتعبد بظواهر النصوص!؟ .. إلى التفر .. وحروب الإبادة والاستعمار الاستيطاني لفرسان الإقطاع الصليبيين .. إلى التخلف المملوكي العثماني .. إلى الهجمة الاستعمارية الحديثة التي يبلغ عمرها الآن نحو قرنين من الزمان ، بالغاً عمر الغزوة الصليبية ، التي كانت أطول وأبشع وأعجب التحديات التي جابهت الإسلام والمسلمين في تاريخهم الطويل! ..

ويبدو أن طموح الغرب الاستعماري من وراء غزوته الحديثة التي بدأت بحملة بونايرت (١٧٦٩ - ١٨٢١ م) على مصر (١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م) كان عظيماً وخطيراً .. فلم تكن الأهداف مجرد نهب استعماري ، وقواعد عسكرية تحمي هذا النهب ، وتضمن السوق ، والمواد الخام ، والعمالة الرخيصة .. ذلك

أن الغزاة الجدد قد أدركوا معنى الخبرات المستخلصة من صراعهم الطويل والتاريخي مع عالم الإسلام ، ورأوا أن « الاحتلال » لابد يوما أن يستفز المقاومة الوطنية والقومية ويستنفرها فينتهي الأمر « بالجلاء » .. ومن ثم فلا بد « لتأبيد النهب والاستغلال والتبعية » من تحويل عالم الإسلام إلى « هامش حضاري » لحضارة الغرب ، حتى تتأبد عملية تحويله إلى « هامش اقتصادي » تلك العملية التي أنجزها الغزو والاحتلال ؟!..

إن بونابرت لم يصحب معه المدفع وحده ، بل أتى « بفكرية الحضارة الغربية » ، وبالمطبعة والصحيفة أيضا .. ومنذ ذلك التاريخ بدأ « التغريب » كواحد من أخطر التحديات التي واجهت وتواجه الإسلام والمسلمين في العصر الحديث !..

ونحن عندما نقارن الغزوة الصليبية بالغزوة الحديثة يتبدى لنا الفارق بينهما ، في هذا الجانب ، ويظهر لنا خطره .. ففي حقبة الحروب الصليبية (٤٨٩ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١ م) كانت أوروبا تعيش عصورها « الوسطى - المظلمة » فلم يكن لديها - في الفكر - ما يغري العرب والمسلمين ، بل على العكس ، انتهت هذه الحروب بتأثر الغزاة بحضارة البلاد التي غزوها ، فشرعوا - بعد هزيمتهم في السير نحو النهضة والإحياء !.. لقد جاءوا وهم - كما يقول المفارس المؤرخ أسامة بن منقذ (٤٨٨ - ٥٨٤ هـ / ١٠٩٥ - ١١٨٨ م) - جاءوا وهم « بهائم » ليس لهم من « الفضائل » إلا « فضيلة القتال » ؟! ثم عادوا إلى بلادهم وقد اكتشفوا حضارة الإسلام ، بل واكتشفوا تراثهم اليوناني عبر حضارة الإسلام !..

غير أن الأمر قد اختلف تماماً أمام ومع الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة .. فقبلها كانت بلادنا تعيش قروناً طويلة في ليل العصر المملوكي العثماني الحالِك الظلام .. فتخلفت ، على حين نهض الأوروبيون وتقدموا ، فكان الفارق هائلاً عندما حدثت المواجهة على امتداد القرن التاسع عشر الميلادي ، الأمر الذي أتاح الفرص وفتح الطرق والسبل لتأثيرات الغرب الفكرية ، في القيم والحضارة ، وفي أساليب العيش وأنماط التفكير .

وزاد من فرص هذا المد « التغريبي » الغازي انقطاع الصلة والتواصل بين أمثنا - يومئذ - وبين تراثها المشرق ومنابعها الفكرية الجوهرية والنقية وسمات حضارتها في عصر الخلق والإبداع والازدهار ، الأمر الذي جعل المقارنة القائمة والمطروحة والمتاحة هي - فقط - بين جهالة العصر المملوكي العثماني وتخلفه ، وبين الحضارة الغربية التي يخطف بريقها الأبصار ، وتدهش إنجازاتها البصائر .. فلم يسمح الوضع بفرص حقيقية للتفكير المتأنى - عند كثيرين ممن أرادوا النهضة - في نمط حضاري بديل ! .. لقد اعتقد الكثيرون - بإخلاص - أن « الحضارة الغربية » هي « الحضارة الوحيدة » للعصر .. ومن ثم فلقد سموها : « الحضارة الإنسانية » و« العالمية » و« حضارة العصر » ، وأدخلوا ماعداها في عداد « التراث البائد » و« تاريخ ما لفظه التاريخ » ..

وإذا كان تيار « التغريب » هذا قد مثل تحدياً كبيراً وخطيراً وعاماً للإسلام وأهله ، ولحضارتنا العربية الإسلامية المتميزة - رغم انفتاحها وتفاعلها مع كل الحضارات - فلقد كانت « العلمانية » واحدة من أخطر الجبهات في ذلك الصراع الذي مارسه « التغريب » ضد الإسلام !؟ ..

ولما كانت ، العلمانية ، واردا غريبا وغريبا ، فإننا لا نفضل رفضه لهذه
 العلة : علة أنه ، وافد ، و مستورد ، و غريب ، - كما يصنع البعض ممن
 ينكرون إمكانية وقائدة التفاعل بين الحضارات - .. وإنما الذى نفضله هو النظر
 فى نشأة ، العلمانية ، فى بيئتها الأصلية ، وظروف هذه النشأة وملابساتها
 وأسبابها ، ثم ننظر - على ضوء ديننا الإسلامى وطبيعته ، وتطورنا التاريخى -
 لنرى : هل نحن محتاجون إلى هذه ، العلمانية ، ؟ .. وهل تمثل بالنسبة لنا
 ذلك ، التقدم ، الذى مثله فى بيئتها الأوروبية ؟ .. أم أنها - بالنسبة للمجتمعات
 الإسلامية - نبت غريب ، وغير صالح ، بل وضار ؟ ..

لكن ... قبل ذلك كله ، لنعرض لمعنى هذا المصطلح .. مصطلح
 « العلمانية » .. إن مصطلح « العلمانية » هو نسبة - غير قياسية إلى « العالم » -
 « بفتح اللام » - .. أو إلى « العالمية » ، SECULARISM .. والعلمانى Secular هو
 الذى يتبناها ، فردا كان أو جماعة أو مجتمعا أو دولة .. ولقد نشأت « العلمانية »
 وصيغت كمقابل لـ « المقدس » - بمعناه الكنسى اللاهوتى الكاثولىكى - وليس
 بمعنى المقابل « للدنس » - وكمقابل لـ « خارق الطبيعة » ، و « التقليدى » -
 الجامد ، الذى لا يراعى « النفع » ويكر « التغيير » ، و « التجديد » ، فهى المقابل
 لما هو « دينى » و« كهنوتى » ، على النحو الذى عرفتة أوربا الكاثوليكية فى
 عصورها الوسطى والمظلمة ..

هذا هو معنى مصطلح « العلمانية » الذى رفض أنصاره « الدولة الدينية » ،
و « المجتمع المقدس » ، و « المؤسسات المقدسة » ، و « الأكليروس المقدس » ، وسلطة
الكنيسة « المقدسة » ، وفكرها « المقدس » ، الذى هيمن على مختلف ألوان النشاط
البشرى - الذهنى والمادى - فى أوربا فى ذلك التاريخ .. لقد رفض العلمانيون
هذا « المقدس » ، ودعت « علمانيتهم » إلى الانطلاق من « الدنيا .. والواقع ..
والعالم » ، والاحتكام إلى علوم هذه الدنيا وقوانين هذا العالم ، ف لعبوا الدور
الرئيسى والبطولى فى الإحياء الحضارى لأوربا عندما انتقلوا بها من العصور
المظلمة إلى النهضة والتنوير (١) ..

والذين يتابعون النشأة الأوربية « للعلمانية » ، ومدلولاتها وتطوراتها هناك ،
يلاحظون تفاوتاً فى مفاهيمها لدى كثير من المفكرين الذين ارتادوا ميدانها
ودافعوا عن نهجها فى الفكر والمجتمع ، والنظرية والتطبيق .. لكن هذا التفاوت
لا ينفى إمكانية تحديد طورين ومرحلتين مرت بهما « العلمانية » فى الفكر
الأوربي :

الأولى : تلك التى كانت العلمانية فيها تعنى : عزل الدين والكنيسة عن
شئون المجتمع وسياسته ومؤسساته لحساب بناء الدولة البورجوازية ، وفى سبيل
دعمها .. والسعى لتصفية اللاهوت المسيحى الكاثوليكي وتنقيته مما هو غير

(١) انظر فى معانى هذا المصطلح (معجم العلوم الاجتماعية) وضع مجمع اللغة العربية -
القاهرة سنة ١٩٧٥ م . و (قاموس علم الاجتماع) بإشراف الدكتور عاطف غيث .
طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م . و د . محمد البهى (العلمانية والإسلام بين الفكر
والتطبيق) ص ٨ ، ٧ طبعة القاهرة ١٩٧٦ .

عقلانى .. من مثل أسرار عقيدة التثليث ، والطبيعة الإلهية للمسيح - عليه السلام - .. والعمل على رفع الوصاية الدينية الكنسية عن التعليم ، تمكيننا للفترة الإنسانية من الاختيار !..

لقد عرفت أوروبا ، العلمانية ، - بهذا المعنى - فى طورها الأول ، عند فلاسفة ومفكرين من أمثال ، هوبز ، HOBBS (١٥٨٨ - ١٦٧٩ م) و ، لوك ، LOKE (١٦٣٢ - ١٧١٦ م) و ، ليبينز ، leibniz (١٦٤٦ - ١٧١٦ م) وروسو ، Rousseau (١٧١٢ - ١٧٧٨) و ، ليسانج ، Lessinc (١٧٢٩ - ١٨٧١ م) .. الخ .. الخ ..

والثانية : مرحلة ، العلمانية الثورية ، .. التى مثلها فلاسفة ثوريون من أمثال ، فيورباخ ، Feuerback (١٨٠٤ - ١٨٧٢ م) و ماركس ، Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣ م) ولينين ، Lenin (١٨٧٠ - ١٩٢٤ م) .. وهى المرحلة التى استهدفت فيها هذه ، العلمانية الثورية ، : هدم الدين ، وتخليص الاشتراكية ومجتمعها من تأثيراته ، وذلك لحساب العدل الاجتماعى - الاشتراكية ، فالشيوعية - ثم السعى إلى مجتمع يزول منه الدين تماما ، وتتمحى منه مؤسساته .. فالهدف هنا - للعلمانية الثورية - ليس مجرد عزل الدين عن المجتمع ، ، والفصل بينه وبين « الدولة » ، بل السعى - فى المدى الطويل - إلى تخليص ، الأفراد ، من الدين ، وتحريره من مؤسساته ، (١) ..

هكذا نشأت ، العلمانية ، فى أوروبا ، وهكذا تطورت .. على الأقل ، كفكر ،

(١) (العلمانية والإسلام) ص ١٧ ، ١٨ ، ٢٧ .

لأنها لم توضع كاملة في « التطبيق » ، إذ لا تزال تشهد الدول الاستعمارية العلمانية ، تنظر للإسلام وعالمه وأهله بذات الروح الدينية المتحيزة ، روح الحروب الصليبية ، وتتفق على التبشير الديني - سبيلا للسيطرة الاستعمارية - وتغدق على « المؤسسات الدينية الكنسية » بل .. ونشهد ملامح تنسيق إمبريالي - بابوي ، لم يبلغ بعد مرحلة « التحالف الصريح » ! .. كما نشهد تراجع « العلمانية » الثورية ، عن بعض من طموح أهدافها في الصراع ضد الدين ! .. كما نشهد الأحزاب المسيحية - الوثيقة الصلة « بالكنيسة » - تقبض على زمام « الحكم » و« الدولة » في كثير من ربوع الغرب « العلماني » ؟ ..

والآن ... لابد من وقفة أمام مضمون هذا المصطلح - « العلمانية » - كما عرفته أوروبا الكاثوليكية - لثري - في إيجاز - هل هناك خيط نجعل له مكانا في ظل الإسلام ومجتمعاته ؟ - وذلك قبل أن نعرض لهذه القضية بشيء من التفصيل - وعلى سبيل المثال :

* ففيلسوف « العلمانية » هوارد بيكر Howard Boker قد صاغ مصطلح « العلماني » Secular كى يقابل مصطلح « المقدس » Sacred .. فالدولة العلمانية ، إذن هي المقابل « للدولة الدينية » و « المجتمع العلماني » هو المقابل « للمجتمع المقدس » (١) - و « المقدس » ، هنا ، ليس المقابل لـ « الدنس » ، وإنما هو المقابل لـ « المتطور » والمتجدد ، لأنه - في عرف « بيكر » - منحصر فيما هو « ديني أو روحاني أو إلهي أو كنسي » (٢) .

ذلك هو المعنى المحدد لهذا المصطلح ..

(١) (قاموس علم الاجتماع) مصطلح Secular - علماني - .

(٢) المرجع السابق ، مصطلح Sacred - مقدس - .

فإذا جئنا إلى حال الإسلام وجدناه لا يعرف : الدولة الدينية ، ولا : المجتمع المقدس ، : لأنه لا يعرف : رجل الدين ، ولا : المؤسسات الدينية ، : فهو يفكر : الوساطة : بين الإنسان وربه ، ويرفض : الكهانة والكهنوت ، : ومن ثم فهو لا يحتاج لمجتمعاته - كي تتطور - ما يقابل هذه المعاني والأفكار والمؤسسات - أي لا يحتاج : العلمانية ، ومؤسساتها - لأنه لم يشهد - فكرا شرعيا أو تطبيقا مشروعاً - تلك الثنائية التي شهدتها أوربا الكاثوليكية ، حيث نشأت : العلمانية ، ...!

* و : المجتمع العلماني ، : كما تحدد في فكر أوربا : العلمانية ، : وفي تطبيقات هذا الفكر له سمات وقسمات :

(أ) : فقيمه تتميز بالنفعية ، (١) .. أي أنه يعلى من مقام : المصلحة : بصدد القيم الأولية في المجتمع .. فماذا بالإسلام عن هذه القسمة ؟ .. إن الإسلام هو الدين الذي يقدم - في شئون المجتمع وسياسة الدولة وأمور الدنيا - المصلحة : على : النص ، .. وهو الذي يتحدث عن أن الشريعة : مقاصد وغايات .. والذي يجعل المرجع في حسن الأمور وقبحها إلى الأمة التي ترى وتقرر ما يحقق مصلحتها : والله - سبحانه - وهو شارح : النصوص ، يبارك رأي الأمة ، في أمور الدنيا والمجتمع ، إذ القاعدة الإسلامية الشهيرة تقول : ما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن ، ...!

(ب) : والمجتمع العلماني : يساند التغيير ويدعو إلى التجديد ويدعمه ، (٢) فماذا في إسلامنا عن هذه القسمة ؟

(١) المرجع السابق - مصطلح : مجتمع علماني Secular Society .

(٢) المرجع السابق - مصطلح : مجتمع علماني secular society .

إن إيمان الإسلام بقانون التطور ، وفى كل الميادين ، ليس له حدود - فهو سنة من سنن الله فى الكون - ودعوة الإسلام للتجديد قد تعدت شئون الدنيا إلى شئون الدين .. وليس بعد حديث الرسول ﷺ : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها » (١) .. ليس بعد هذا الحديث دليل على تميز الإسلام وامتياز به بالإيمان بالتطور والتجديد ، فى كل الميادين .. ومن الذى يقرأ لعمر بن الخطاب - فى القزبية والتعليم - كلماته التى تعنى : لا تقفوا بتعليم أولادكم عند علومكم ، فإنهم قد خلقوا لزمان غير زمانكم ؟! .. من الذى يقرأ هذه الكلمات وأمثالها ، ثم يفقد التطور والتجديد ، فى نهج الإسلام وفكره ، فيبحث عنه فى « العلمانية » ؟! ..

(ج) ويتميز المجتمع العلمانى ، بفقدانه الاهتمام بما هو خارق للطبيعة ، (٢) .. فماذا فى إسلامنا عن هذه القسمة ؟! إن انحياز الإسلام للعقل والعقلانية واضح ، وأكد ، وحاسم ، ومشهور .. والحديث فيه وعنه طويل (٣) .. بل إن « خارق الطبيعة » - وبالأحرى خارق العادة - المعجزة - الآية - التى تحدى بها نبي الإسلام - عليه الصلاة والسلام - قومه - وهو القرآن الكريم - قد جاء ليحتكم إلى العقل الذى جعله الله مناطاً للتكليف . ودليلاً منه للإنسان كي يسترشد ببراهينه ويهتدى ، حتى فى أمور الألوهية والدين ..

(١) رواه أبو داود .

(٢) (قاموس علم الاجتماع) مصطلح : مجتمع علمانى secular society

(٣) انظر كتابنا : (العرب والتحدى) الفصل الثالث ، بالعقل انتصرت العروبة وانتشر

الإسلام ، ص ٧٧ - ١٢٢ . طبعة الكويت سنة ١٩٨١ م .

فالعقل هو الحاكم حتى في إطار النصوص ، وعليه تعرض آيات القرآن :
«خارق الطبيعة ، الإسلامي الوحيد .

(د) والمجتمع العلماني يتميز بعدم ، اهتمامه بالقيم المرتبطة بالترعة
التقليدية وبالاتجاه المحافظ ، (١) فماذا في إسلامنا عن هذه القسمة ؟ ..

هنا يميز الإسلام - ولا بد له من ذلك - بين القيم المعوقة للتطور والتقدم -
(الرجعية) - وبين القيم التي تلعب دورا إيجابيا وتقدميا في حياة الأمة
والمجتمع . رغم أنها موروثية وقديمة - فيرفض الأولى ؛ لضرها - لا لأنها
موروثية وتقليدية - ويتبنى الثانية ؛ لنفعها - لا لأنها موروثية وتقليدية - فالمعيار
هو : المصلحة ، ، و ، مصلحة مجموع الأمة ، على وجه التحديد ! ..

ثم .. هل حقا حدث أن رفض ، العلمانيون ، الأوروبيون موارثهم في القيم ؛
لأنها موروثية وتقليدية ؟ ..

إن إحياءهم لثرائهم اليوناني ، وتمثله في حضارتهم الحديثة ، وكذلك دور
ومكان النهج ، الكلاسيكي ، - (التقليدي) - في جهود النهضة الأوروبية
وعصرها ، شاهد صادق على أن مجتمعهم العلماني لم يعمم الرفض لكل ما هو
تقليدي وموروث ! .. وما تبشیر دعاة ، التغريب ، بيننا بضرورة إدارة الظاهر
للموروث والتقليدي - بإطلاق - (لا محاولة - واعية أو غير واعية - لأن يخلى
موروثنا ، المكان له ، وافد ، ، التغريب ، ؟ ..)

(١) (قاموس علم الاجتماع) مصطلح مجتمع علماني secular society

تلك هي مضامين العلمانية .. وهذه هي سمات مجتمعيها .. وفي
المقارنة - الموجزة - بينها وبين معالم الإسلام السياسي والاجتماعي
والحضاري ، تظهر جليلة حقيقة المقولة التي نذكرها ، والتي نقول :
إنه لا مكان ، للعلمانية ، مع الإسلام . ولا حاجة بالمسلمين إليها ، إذا
كانوا حقاً مسلمين يسترشدون بالإسلام !..



الإسلام .. والكاثوليكية الأوروبية

وبعد هذه المقابلة الموجزة بين ، العلمانية ، وبين ، الإسلام ، ، لا نجد بدا من بعض التفصيل لهذه النقاط ، وذلك حتى لا يكون الحديث خاصا بمن لا حاجة بهم إلى الأدلة ؛ لأنهم سلفا مقتنعون ، أو أقرب إلى الاقتناع بما نقول؟! ..

ونحن نسوق هذا ، التفصيل ، - أيضا - في عدد من النقاط :

١ - إن ، العلمانية ، تضع ، العلم ، - المرتبط بالعالم ، وبما هو واقعي ودنيوي ومدني - تصنعه مقابلا ، بل ونقيضا ، للدين ، .. وذلك لنشأتها وتطورها في بيئة حضارية شهدت صراعا شهيرا ومريرا بين ، الدين ، ، كما قدمه اللاهوت الكنسي الكاثوليكي في أوربا ، وكما تصوره وصوره الرأي الرسمي للكنيسة الكاثوليكية ، وبين ، العلم ، الذي تأسست على قواعده النهضة الأوروبية الحديثة .

لقد استبدت الكنيسة بالحياة السياسية في أوربا طوال قرون عصورها الوسطى والمظلمة ، فأضفت ، قداسة الحق الإلهي ، على من حالفت وباركت ، وحكمت ، باللعنة والحerman ، على من نبذت وخاصمت .. ولقد فرضت بهذا الاستبداد على الحياة السياسية أسوأ النماذج التي عرفتھا البشرية عبر تاريخها في الاستبداد؟! .. وكما يقول ، جيبون ، في كتابه (اضمحلال الإمبراطورية

الرومانية وسقوطها) : فلقد كان الحاكم فى ، الدولة الكنسية والحكومة الكنسية .. وهو من - بحكم تعليمه وتنشئته - أكثر الناس عداً للعقل والإنسانية والحرية . لقد تعلم - وهو عبد أسير لعقيدته - أن يؤمن ؛ لأنه من الحق أن يجعل كل ما يدعو إلى التحقير ، وأن يحقر كل ما يستحق تقدير الرجل المنعقل ، وأن يعاقب الهفوة وكأنها جريمة ، وأن يكافئ الزهد والعزوبة كأعظم الفضائل ، وأن يضع القديسين المذكورين فى التقويم فوق أبطال رومة وحكام أثينا ، وأن يعتبر كتاب القديس والصليب أداتين أكثر نفعا من المحراث والنول .. (١) ١٤ .

أما المعارضون لهذا الاستبداد الكنسى فلقد كان مصيرهم ، الإعدام المعنوى ، بمراسيم ، اللعنة والحرمان ، .. ونموذج الإذلال الذى مارسه البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) للإمبراطور هنرى الرابع (١٠٥٠ - ١١٠٦ م) شاهد يجسد هذا الاستبداد ، فحينما اختلفا حول حق تعيين الأساقفة على إقطاعياتهم أعلن البابا ، حرمان ، الإمبراطور ، وأحل أتباعه الأمراء من ولايتهم له ، فما كان من الإمبراطور إلا أن سعى إلى البابا تانيا ، فذهب إلى كانوسا ، سنة ١٠١٧ م يطلب الغفران ، وهناك مكث ثلاثة أيام ، حافى القدمين ، متدثرا بالخيش ، وسط الثلوج المتساقطة والمتراكمة فى فناء قلعة كانوسا ، (٢) ١٤ .

(١) (انضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) ج ٣ ص ٤٤٢ . طبعة القاهرة سنة

١٩٦٩ م .

(٢) د . محمد حسين (الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر) ج ١ ص ٢٥٤ . طبعة

القاهرة سنة ١٩٨٠ م

فهل عرف الإسلام أو تاريخه صورة هذا الاستبداد الكنسي بالحكم ،
وصورة هذا الإذلال الذي مارسته ، المؤسسة الدينية ، ؟ ..

لقد خلا تاريخ الإسلام من ، المؤسسات الدينية ، .. ومن ، رجال الدين ،
ومن ، الوساطة الدينية ، .. وصورة الحاكم الإسلامي ، كما حذدها المتكلمون
والفقهاء في ، شروط الخليفة ، تشترط - ضمن ما تشترط - أن يكون ، عالما ، ،
بالغاً في العلم مرتبة الاجتهاد ، وأن يكون ، عادلا ، ، بالغاً في العدالة حد
«التقوى» ! .. وأن يكون ، سائسا ، للأمة ، بالشورى ، ذا دراية بفنون الحكم
وعمران البلاد .. الخ .. الخ ..

وإذا كان تاريخ المسلمين قد شهد نماذج لحكام جهلة ومستبدين ، فإن
الإسلام وعلماءه لم يباركوا هؤلاء الحكام ، وإنما صنفوهم تحت عنوان ، الولاة
المنغلبين ، على السلطة ، بالقهر ، .. وظلت فريضة الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر تدعو الأمة لتغيير ، ولاة الجور والتغلب والاستبداد ، .. ولم يعرف
تاريخ المسلمين إضفاء القداسة الدينية على هؤلاء الولاة المستبدين ؟ ..

وكما استبدت الكنيسة الكاثوليكية الغربية بالحياة السياسية - على هذا النحو -
فلقد استبدت - وهي الجامدة الجاهلة - بالحياة الفكرية .. فأماأت تراث أوربا
اليوناني ، وقطعت تواصلها الحضاري ، وأعاقبت كل المبادرات العلمية ، وقبّرت
كل محاولات الاختراع واليقظة والتجديد .. فكان العلم - في نظرها - سحرا
أسود ، تحرق كتبه ، ويحرق أهله .. وكما يقول د . كريت في كتابه (تاريخ
صراع العلم مع اللاهوت في العالم المسيحي) ، فإن كل خطوة إلى الأمام في

البحث عن المعرفة قد حوربت باسم الدين ، (١) !

نقد تميز هذا الواقع الأوربي بمحاربة الكنيسة للعلم والعلماء ، وللعقل والعقلانية ، حتى أقرنت هيمنتها الدينية بسيادة عصور الظلمة والانحطاط .. فأين هذا من الإسلام الذي جعل العلم فريضة شرعية وضرورة واجبة ، وليس مجرد حق ، من حقوق الإنسان ؟! .. وأين هذا الواقع الأوربي من واقعنا الإسلامي الذي مكن لعلماء الكلام المسلمين من تأسيس الفلسفة الإسلامية على قواعد الدين ، فكانت فلسفة متدينة لدين قد تفلسف ؟! .. الأمر الذي جعل ويجعل تطورنا التاريخي والفكري والحضاري ليس فقط مغايرا للنموذج الأوربي ، بل وعلى النقيض منه .. فقد ارتبطت هيمنة الدين هناك بسيادة الاستبداد وتكريس الجهالة وقيام عصور الظلمة والانحطاط .. على حين ارتبطت سيادة الشريعة الإسلامية في تاريخنا بعصور الازدهار والخلق والإبداع لأكثر الصفحات إشراقا في تاريخ أمتنا ! .. كما كانت ، العلمانية ، التي أراحنا هيمنة الدين عن الواقع الأوربي هي سبيل النهوض بذلك الواقع .. على حين كان الانحراف عن نهج الشريعة الإسلامية منذ سيطرة المماليك على الدولة الإسلامية - هو المدخل إلى عصر الانحطاط في تاريخ المسلمين ؟! ..

فأين هو وجه الشبه بين موقف الإسلام من العلم ، وموقف اللاهوت الكنسي من العلم ، حتى يكون ، حلهم ، العلماني هو ذات ، حلنا ، ؟! ..

(١) (تاريخ البشرية) ، القرن العشرون ، ج ٢ مجلد ١ ص ٢٨٦ . إعداد اللجنة الدولية بإشراف منظمة اليونسكو . طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م .

إنه بصرف النظر عن الموقف الجوهرى للديانة المسيحية فى هذه القضية ، وعن الظلم الذى ألحقته التفسيرات الكنسية برأى المسيحية الحق فى العلم ، فالأمر الذى لا شك فيه أن عدااء « الدين » ، للعلم ، ، والصراع بينهما ، هو خاصية كاثوليكية - أوربية ، ، ولا وجه للشبه بين المقدمات والملازمات التى أثمرت هذا العدااء وهذا الصراع وبين واقع الإسلام وموقفه ورأى أغلب تيارات الفكر الإسلامى ومذاهبه فى هذا الموضوع ..

وبزيت من وضوح هذه الحقيقة ورسوخها العلم بأن الإسلام لا يمد نطاق « علوم الوحي والشرع » إلى كل الميادين الدنيوية ، التى ترك الفصل فيها والتفسير ، لعلوم العقل والتجربة الإنسانية ، (١) ، ومن ثم فلقد تأخى فيه « العلم » ، « الدين » ، « العقل » ، « النقل » ، « الحكمة » ، « الشريعة » ، « الدنيا » ، « الآخرة » ، عن طريق تحديد الميادين لكل نمط فكرى ، وعن طريق الجمع والتأليف والتوفيق ، بالوسطية الإسلامية التى تقيم التوازن بين ماعد فى الحضارة ، الكاثوليكية - الأوربية ، ، متناقضات لا سبيل للجمع بينها ، فضلا عن التوفيق ، وعن طريق استخدامها جميعا - فى نظرة تكاملية - لتهديب الإنسان وتطويع حياته ، باعتبار هذا التهديب وذلك التطوير غير ممكنين دون الاستعانة « بالأقطاب » المتعددة فى ظواهر الفكر والحياة .. وليس يقطب واحد من الظاهرة الواحدة ..

(١) انظر كتابنا ، الإسلام وقضايا العصر ، فصل ، الإسلام والعلوم التجريبية ، طبعة بيروت - الثانية سنة ١٩٨٤ م .

٢ - ويؤكد اختصاص ، العلمانية ، بالواقع الأوربي والغربي ما استقرت عليه المسيحية من نظام ، الكهانة والكهنوت ، ، ذلك النظام الذي جعل بين الإنسان العادي وبين ربه وسيطا ، هو « رجل الدين » ، « الكاهن » ، الأمر الذي جعل هناك ، طبقة ، أو ، فئة ، احتكرت ، الرأي الرسمي ، للدين ، بل وحق الحديث باسم السماء !.. وما استتبع ذلك من إضفاء ، القداسة والقدسية ، على هؤلاء الرجال والمؤسسات التي أقاموها لهذا الدين ! .. وتلك أمور لم يعرفها الإسلام ، بل هو ينكرها ويشن عليها حربا شعواء !..

صحيح أن ، الواقع التاريخي الإسلامي ، قد شهد محاولات لتقليد المسيحية - دون قصد أو وعى - في هذه الآفة أحيانا ، فتحول بعض من ، علماء ، الدين الإسلامي إلى ، رجال ، دين ، وزعموا لأنفسهم سلطانا في ، التحليل والتحرير ، واحتكروا ، لآرائهم ، صلاحيات الرأي الوحيد - ومن ثم الرسمي - للإسلام !.. رغم أن ، اجتهاد ، ، المجتهد - في الإسلام - لا يلزم غيره من ، المجتهدين ، ، بل ولا يلزم ، المقلدين ، لمجتهدين آخرين ... لكن هذا « التقليد » في هذه ، الآفة ، قد ظل ، واقعا تاريخيا ، لم يعترف به الإسلام ، ولم يتحول إلى جزء من الدين .. بل ظل واقعا مدانا من تيارات الفكر الإسلامي جميعا ، ولم يصبح مقبولا إلا في إطار المذهب الشيعي وحده !.. ومن ثم فإن السبيل إلى مناهضة هذا الانحراف هو الإسلام ، وليس ، العلمانية ، التي تنفي الإسلام !..

وهذه الحقيقة تجعل الاحتكام - دائما وأبدا - في علاقة ، العلم ، ، بالدين ، ، إلى ، الفكر ، الإسلامي الذي آخى بينهما ، والذي جعل ، العلم ، ، على إطلاقه

- فريضة دينية وضرورة شرعية واجبة ، وليس إلى رجال الدين الذين ضاقت آفاقهم عن بعض العلوم فناصروها شيئا غير قليل من العداء !!

٣ - إن مقام العقل ، الذى هو أداة العلم - فى الإسلام مقام لا تخطىء علوه وسموه البصيرة ، بل ولا البصر فمعجزته - القرآن الكريم - تتوجه إلى العقل ، وهو الحاكم بين ظواهر النصوص وبين ثمرات البراهين العقلية إذا ما لاح التعارض بينهما ... ولقد أدى ذلك إلى تأسيس الحضارة العربية الإسلامية - وهى عقلانية فى لبها وجوهرها - على الدين ، الإسلامى وليس على استبعاده ، كما هو حال الحضارة الأوروبية الحديثة مع المسيحية ..

إننا يجب أن نعى تلك الحقيقة الجوهرية من حقائق انتمايين حضارتنا والحضارة الغربية .. حقيقة أن ، العقلانية الأوروبية ، غير متدنية .. فلقد تبلورت فى الحقيقة اليونانية - عندما لم يكن هناك وحى ، ولا نقل ، ولا ديانة سماوية - ... ثم كان ازدهارها وإحيائها فى العصر الحديث مرتكزا على التحرر من الإطار المسيحى والتصورات اللاهوتية الكنسية فى الأساس ، على حين تأسست ، العقلانية الإسلامية ، - على يد المعتزلة ، وفى علم الكلام الإسلامى ، - على الدين الإسلامى !... الأمر الذى جعل ويجعل الفكر الدينى ، للإسلام ، و ، النهج العقلانى ، فى الحضارة الإسلامية غصنين فى شجرة واحدة ، شاهدين على انتفاء التعارض والتناقض بين العلم ، وبين الدين ، فى محيط الإسلام ، وبنائه الحضارى .

٤ - إن كون الشريعة الإسلامية هى خاتمة الشرائع السماوية للبشرية

إنما يعنى بلوغ الإنسانية من رشدها ؛ فلم تعد صورة البشر هي صورة الخراف الضالة ، ، وإنما أصبحت صورتها هي صورة الإنسان الذي استخلفه الله في عمارة الكون وسياسته ، وكرمه وفضله حتى على الملائكة ، وسخر له كل عوامل الطبيعة والكون وظواهرهما ، وجعله الخليفة المؤمن في هذه الحياة .. وبما يعنيه الرشد - أيضا - من الاقتصاد في ، الغيب والغيبيات ، ، وترك الميادين الواسعة ، والمجالات الجديدة ، والآفاق المستحدثة للعقل الإنساني وللتجربة الإنسانية .. بل لقد أصبح للعقل الإسلامي سلطان حتى في بعض مجالات ، الغيب ، ، فقال الأكثرون من علماء الإسلام : إن سبيل إدراك الألوهية هو العقل ، لا النصوص والمأثورات ، وصدق الجماهير الإسلامية على هذا الرأي عندما جعلت من حكمها الشائعة المأثورة : « ربنا عرفوه بالعقل » ! .. ورأينا الذين صنفوا العلوم - في حضارتنا - يضعون ، العلم الإلهي ، في باب « المعقولات » ، التي لا تتبدل بتبدل الحضارات ، ولا تتغير بتغير الديانات ، ولم يضعوا ، العلم الإلهي ، في باب « الشرعيات » ، والعلوم الشرعية ، (١) ..!

٥ - إن : الإسلام : الدين ، لم يدع ما نقيصر نقيصر وما لله .. أي لم يعتزل أمور الدولة والسياسة والمجتمع .. وأيضاً فهو لم يضع دولة المسلمين النظم والقوانين والنظريات .. وإنما اتخذ لنفسه موقفاً وسطاً في هذا الميدان متنسقاً في ذلك مع النمط الحضاري الذي يتميز به في العديد من الأمور ..

(١) النبهاني (كشف اصطلاحات الفنون) ج ١ ص ٤٦ - ٦٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م.

فلأنه الشريعة الخاتمة ، ولأن أمور الدولة والمجتمع والحياة في تطور مستمر ، كانت هناك استحالة في الوحي بنصوص حاكمة مفصلة لتضبط واقعا يحركه التطور باستمرار ... ولأنه لم يتخير موقف ، الفصل ، بين ، الدين ، والدنيا ، - والدولة ، منها - كان انحيازه لموقف ، التمييز ، بينهما .. فلا فصل ، ولا وحدة ، وإنما تمييز .. فهو لا يضع ، النظم ، ولا النظريات ، ولا أغلب ، القوانين ، التي تركها للعقل والتجربة - وإنما وضع ، الفلسفة ، و ، المثل ، و ، المعايير ، و ، المقاصد ، و ، الغايات ، التي تمثل الأطر الحاكمة لهذه ، النظريات ، و ، النظم ، و ، القوانين ..

فهو قد جعل ، الشورى ، فلسفة للنظام السياسى ، دون أن يضع نظاما سياسيا محددًا .. وجعل ملكية رقبة المال والثروة لله - سبحانه - والإنسان هو خليفته ونائبه ووكيله في هذا المال ، وتلك هي فلسفة نظامه المالى ، الذى يتحدد ويتطور على النحو الذى يقترب بالإنسان من تحقيق هذه الفلسفة .. كما جعل ، المصلحة ، ونقى ، الضرر والضرار ، المعيار الذى يحكم أطر النظم والقوانين والنظريات - على اختلاف العصور والنظم والقوميات - التى تبدع وتصوغ - بالاجتهاد - لواقعها المنظور : النظم والقوانين والنظريات ..

ومن ثم .. فنحن لسنا مواعدين بتلك الثنائية المتناقضة ، ولا بذلك الاستقطاب الحاد اللذين شهدتهما الحضارة انغريبية وواقعها ، واللذين جعلوا الأمور هناك : أبيض ، أو أسود ، فقط ! .. والإجابة إما بـ : نعم ، أو لا ، فحسب !.. فلذلك كانت - هناك - العلمانية - بما تعنى من فصل الدين عن الدولة ، أو السعى لهدمه وانتزاع تأثيره وأثره من الدولة والمجتمع معا - كانت

« العلمانية » ، أو « الكهانة » ، والسلطة الدينية ، والحكم بالحق الإلهي ... إما هذه ... ؟ وإما تلك ... ؟ ولا طريق بينهما هناك ! ..

نحن لستما مواجهين بتلك الثنائية ، ولا بأى من المقدمات والملايسات التي أثمرت نشأة « العلمانية » ، في واقع الحضارة الغربية ... وحتى عندما نواجه القلة القليلة من « علماء » الدين الإسلامى الذين يحاولون أن يجعلوا من أنفسهم « كهنة » رجال دين ، فإننا لا نواجههم « بالعلمانية » التي تعزل « الدين » عن « الدولة » ، وإنما نواجههم « بالإسلام » : الدين ، الذى ينكر الكهانة والسلطة الدينية ، والذى لم يحدد للمسلمين نظاما معيناً ومفصلاً فى الحكم ، أو فى السياسة أو فى الاقتصاد .. والذى - فى ذات الوقت - لم يدر ظهره لأمر الدنيا وشئون الدولة وسياسة المجتمع ، وإنما وضع القواعد العامة ، والأطر المرنة ، والقواعد الكلية ، ثم أطلق للعقل والتجربة العنان ليضعوا النظم والقوانين والنظريات المتغيرة دائماً والمتطورة أبداً ، وفق المصلحة ، وعلى ضوء هذه « المثل » و « الكليات » ..

٦ - وأخيراً .. فإن هناك حقيقة بالغة الأهمية تنفى أى تشابه بين طبيعة الإسلام وحضارته وبين طبيعة المسيحية وحضارتها الغربية فى هذا الميدان .. ميدان الواقع الذى جعل « العلمانية » حلاً مقبولاً هناك ، على حين رآها ويراها شذوذاً مرفوضاً فى واقع الإسلام والمسلمين ... ذلك أن « العلمانية » فى الحضارة الغربية فوق أنها كانت رد الفعل الطبيعى على استبداد الكهانة الكنسية بشئون الدولة والمجتمع المادية والفكرية ، وجمودها ، وتجاوزاتها .. فإن هذه « العلمانية » كانت الحل الطبيعى والصحيح فى إطار الحضارة المسيحية .. ذلك

لأن المسيحية ديانة روحية ، ليس بها تشريع مدنى لحكم الدولة وسياسة المجتمع ، وهى قد دعت إلى ترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وحددت لكنيستها ميدانها لا تتعداه هو «خلاص الأرواح» .. ومن هنا ، فإن «الدولة» ، فى ظل الديانة المسيحية ، لا بد وأن تكون «علمانية» ، تفصل «الدين» عن مكان الهيمنة على المجتمع ومؤسساته الذبوية ، فالعلمانية - فى الإطار المسيحى - لا تمثل عدوانا على المسيحية ولا على كنيستها ، وإنما تمثل «التصحيح» الذى بعيد الكنيسة ولاهوتها إلى إطارهما الطبيعى والصحيح !..

أما فى ظل الحضارة الإسلامية فإن الدعوة إلى سيادة «العلمانية» تتجاوز فى الغرابة والشذوذ كونها مجرد «تقليد» للغرب ، وتبعية لحضارته ، واستعارة «حل» ليست له فى واقعنا «مشكلة» تستدعيه !.. تتجاوز هذه الدعوة ، فى الغرابة والشذوذ هذا النطاق ، لتصبح «عدوانا» على الدين الإسلامى الذى أجمع العلماء - مسلمون وغير مسلمين - على أنه : «عقيدة» و «شريعة» ، و «دين» و «دولة» ، وليس مجرد رسالة روحية .. فالدولة فى ظل الإسلام - على عكس المسيحية - لا يستقيم لها أن تكون علمانية بحال من الأحوال !

وإذا كانت «النهضة» الأوروبية قد اقترنت بالعلمانية ، بل وارتكزت عليها .. بعد أن اقترنت انحطاطها بهيمنة الدين والكنيسة على الدولة والمجتمع .. فإن مسيرة حضارتنا العربية الإسلامية قد كانت - فى هذا الأمر - على العكس والنقيض ؟.. فلقد اقترنت النهضة العربية الإسلامية بهيمنة الشريعة الإسلامية على الدولة المدنية الإسلامية ، على حين كان الانحراف عن «إسلامية» القانون ، بداية طريق أمتنا إلى عصور الجمود والانحطاط .. هذا الانحراف

الذى بدأه الصماليك عندما جاءوا به ، ياسة ، جنكيزخان (٥٦٢ - ٦٢٤ هـ / ١١٦٧ - ١٢٢٧ م) فجعلوها القانون الذى يتحاكم إليه ، الجند ، وتخضع لأحكامه ، أجهزة الدولة ، - الدواوين السلطانية - فأخرجوا ، جهاز الدولة ، من نطاق هيمنة شريعة الإسلام ..!

والمقرئزى (٧٦٦ - ٨٤٥ هـ / ١٣٦٥ - ١٤٤١ م) يحكى هذه الحقيقة الهامة ، فى سياق حديثه عن معنى وأصل مصطلح « السياسة » ، فيقول : « اعلم أن الناس فى زماننا ، بل ومنذ الدولة التركية - (المملوكية) - بديار مصر والشام ، يرون أن الأحكام على قسمين : حكم الشرع . وحكم السياسة ... فالشريعة هى : ما شرع الله تعالى من الدين وأمر به ، كالصلاة والحج وسائر أعمال البر ... والسياسة هى القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح ، وانتظام الأحوال ... والسياسة نوعان : سياسة عادلة ، تخرج الحق من الظالم الفاجر ، فهى من الأحكام الشرعية وسياسة ظالمة ، فالشريعة تحرّمها وليس ما يقوله أهل زماننا فى شيء من هذا ، وإنما هى كلمة ، مغليّة ، أصلها ، ياسة ، ، فحرفها أهل مصر ، وزادوا بأولها سينا فقالوا : « سياسة » ، وأدخلوا عليها الألف واللام ، فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية ، وما الأمر فيها إلا ما قلت لك واسمع الآن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت بمصر والشام ... إن جنكيزخان قرر قواعد وعقوبات أثبتتها فى كتاب سماه « ياسة » ، ومن الناس من يسميه : يسق ، ، والأصل فى اسمه ، ياسة .. جعله شريعة لقومه فالقزموه كالنزام أول المسلمين حكم القرآن .. فلما كثرت وقائع التتر فى بلاد المشرق والشمال وبلاد القيقاق ، وأسروا كثيرا منهم وباعوهم ،

تنقلوا في الأقطار ، واشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية ، ومنهم من ملك ديار مصر ، وأولهم المعز أيبك ... وكانوا إنما رؤوا بدار الإسلام ، ولقنوا القرآن وعرفوا أحكام الملة المحمدية .. فجمعوا بين الحق والباطل ، وضموا الجيد إلى الرديء ، وفوضوا لقاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا إليه النظر فى الأقضية الشرعية واحتاجوا فى ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكيزخان ، والاقتداء بحكم النياسة ، فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم .. على مقتضى النياسة ، وجعلوا إليه - مع ذلك - النظر فى قضايا الدواوين السلطانية ١ ... (١) .

فالمماليك هم الذين ستوا هذه السنة السيئة - سنة إخراج جهاز الدولة من إطار هيمنة الشريعة الإسلامية - ثم جاءت الغزوة الأوربية الحديثة فأمنت فى السير على ذات الطريق !..

فالشبه بيننا - إذن - وبين واقع الحضارة الغربية وطبيعة ديانتها المسيحية ليس غائبا فقط ، وإنما كلانا - نحن وهم - على طرفى نقيض !.. لقد أثمر خروجهم من سلطان الدين نهضتهم العملاقة ... بينما كان خروجنا من سلطان الشريعة بداية الجمود والانحطاط ٢!..

١ فالعلمانية - إذن - ليست سبيلنا إلى التقدم .. بل ولا حتى لمواجهة القوى التى تتبنى تخلفنا الموروث وتتشبث به وتدافع عنه ... وإنما سبيلنا إلى التقدم

(١) المقرئى (الخطط) ج ٣ ص ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، طبعة دار التحرير . القاهرة .

هو الوعي والفقه بحقيقة موقف ، الإسلام : الدين ، من هذه القضية ، ذلك
الموقف الذى ينكر ويرفض ، العلمانية ، رفضه لنقيضها - ، الكهانة والسلطة
الدينية والدولة الدينية : - كما شهدهما واقع الحضارة الغربية ..

وما الذين يختارون - منا - ، العلمانية ، ، أو يسعون إلى ، الدولة
الدينية ، إلا مقلدون - بوعى أو بغير وعى - للحضارة الغربية الغازية ،
غافلين أو متغافلين عن أشياء جوهرية هى بالنسبة للمصطلح الثورى العربى
والمسلم أساسية ، ومن بينها موقف ، الإسلام : الدين ، فى هذا
الموضوع ! ..



الدين والدولة

وإذا كنا نؤمن بصدق وصلابة هذه الحقائق التي تنفي الشبه بين تطورنا وواقعنا وديننا وبين ما يقابلها في المسيرة التطورية للحضارة الغربية - بصدد هذه القضية - فإننا نعلم أن قلة قليلة قد شذت عن المجرى العام لفكر الأمة فرُعمت قيام التشابه في هذه القضية ، بيننا وبين الحضارة الغربية المسيحية ، وجادلت في حقيقة أن الإسلام ، دين ، و ، دولة ، ، وقالت إنه - هو الآخر - مجرد رسالة روحية ، لا شأن لها بالدولة والسياسة والسلطان ... ولذلك وجب علينا الوفاء بما يكشف الشبهات عن حقيقة موقف الإسلام في هذا الموضوع ..

* لقد ، ابتكر ، هذه الدعوى المرحوم الشيخ علي عبد الرازق (١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ / ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م) في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) ، فقال : وإن محمدا - صلى الله عليه وسلم - ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين ، لا تشويها نزعة ملك ولا حكومة ، وأنه - صلى الله عليه وسلم - لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها . ما كان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل ، وما كان ملكا ولا مؤسس دولة ، ولا داعيا إلى ملك (١) ... ١

* ولقد تابعته - في هذه الدعوى - جماعة من الذين غلبت على ثقافتهم « فكرية التخريب » .. وكانت ، حججهم ، الأولى في هذه الدعوى هي خلو (١) علي عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) ص ١٥٤ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

القرآن الكريم من الحديث عن محمد ﷺ كرجل دولة ، فقالوا : إن القرآن الكريم لم يجعل النبي العربي محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام - ملكا أو رئيس دولة ، وظل ينعت به بالنبي الرسول .. وليس من حقنا بأى حال من الأحوال أن نلتزم بغير ما جاء به القرآن الكريم ، ونستبدله بغيره . لم يكن نبي الإسلام فى أى وقت من الأوقات ملكا أو رئيس دولة ، وإنما ظل دائما النبي الرسول (١)

* ونحن إذا شئنا كشف الشبهات التى تلقىها هذه الدعوى على حقيقة موقف الإسلام من : الدولة ، و سياسة ، الأمة وتنظيم المجتمع ، وجب علينا أن نعلم أن كل تيارات الفكر الإسلامى السنية وأعلام علمائها مجمعون على أن الدولة ، ليست ، ركنا ، ولا ، أصلا ، من أركان ، الدين ، وأصوله .. فهذه الأركان والأصول قد حددها حديث الرسول ﷺ الذى يقول : بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا . (٢) .

، والدولة ، - ، الإمامة - الخلافة ، - كما يقول ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨ هـ / ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) - ليست ركنا من أركان ، الإيمان ، السنة - (وهى : الإيمان بالله ، والملائكة ، والكتب ، والرسل ، واليوم الآخر ، والقدر) - .. ولا ركنا من أركان ، الإحسان ، - (التى يجمعها : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) (٣) ...

(١) د . محمد أحمد خلف الله (النص والاجتهاد والحكم فى الإسلام) - دراسة - مجلة (العربى) الكويتية - عدد ٣٠٧ رمضان سنة ١٤٠٤ هـ / يونيو سنة ١٩٨٤ ص ٤٣ .

(٢) رواد البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن حنبل .

(٣) ابن تيمية (منهاج السنة النبوية) ج ١ ص ٧٠ - ٧٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ م .

ولم يقل أحد من هؤلاء الأعلام إن الوحي القرآني قد فصل للدولة الإسلامية نظاما ، ولا أن الله قد أوجب على رسوله - في القرآن - إقامة الدولة ، كما أوجب إقامة أركان الإسلام وفرائض الدين وأصول الاعتقاد .. فـ : الدين : : وضع إلهي ، وهو ، في الرسالة الخاتمة ، قد اكتملت أركانه وعقائده وأصوله وشريعته في القرآن الكريم ، الذي لم تشتمل آياته على نظام للحكم ولا تشريع للدولة ولا تفصيل للحكومة التي يزكّيها كي تسوس مجتمع الإسلام ..

وبالطبع ، فليس بين أهل الإسلام من يعتقد أن هذا ، السكوت القرآني ، عن تفصيل شأن : الدولة ، ونظام الحكم السياسي راجع إلى السهو أو القصور أو التقصير .. فحاشا لله وتنزه سبحانه .. لكن الذي يعتقده المسلمون هو أن القرآن - ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه - لما كان كتاب الرسالة الخاتمة ، فإنه قد وقف عند النهج والمقاصد والغايات والفلسفات في كل ما يتصل بالأمور التي هي محل وموضوع للتغير والتطور ، الذي هو قانون طبيعي وسنة من سنن الله في الكون الذي أبدعه ويرعاه .. ومن هذه الأمور .. إقامة : الدولة ، وقيادة الأمة وسياسة المجتمعات ..

فكون : الدولة ، ليست ركنا من أركان : الدين ، لا يعني انتفاء العلاقة بينهما ، على نحو ما يفهم : العلمانيون ، .. لا لما قدمنا من السبب الذي أخرجها من نطاق الثوابت الدينية فقط ، وإنما لأسباب أخرى تشهد لوجود العلاقة بين : الدين ، و : الدولة ، ، على النحو الذي تميز في الإسلام وتميز به الإسلام ..

* فالقرآن الكريم الذى لم يفرض على المسلمين إقامة الدولة ، كواجب دينى . قد فرض عليهم من الواجبات الدينية ما يستحيل عليهم القيام به والوفاء بحقوقه إذا هم لم يقيموا دولة ، الإسلام ... فهناك من فرائض الإسلام وواجباته الدينية حدود لا بد لقيامها وإقامتها من : الولاية ، و الدولة ، والسلطة العامة ، و السلطان ، .. ذلك مثل : جمع الزكاة من مصادرها ، ووضعها فى مصارفها .. ومثل : القصاص وما يلزم له من تعديل للشهود ، وتنظيم للقضاء .. ومثل : رعاية المصالح الإسلامية ، على النحو الذى يجلب النفع ويمنع الضرر والاضرار .. ومثل : تنظيم فريضة الشورى الإسلامية فى أمر المسلمين .. ومثل : القيام بفريضة العلم .. ومثل : وضع الآية القرآنية التى توجب على المسلمين طاعة : أولى الأمر ، منهم فى التطبيق ، وذلك لأن القرآن الكريم قد توجه إلى ولاية الأمر ، أهل الولاية ، و الدولة ، والسلطان ، فأوجب عليهم أداء الأمانات - أمانات الولاية والسلطة العامة - إلى المحكومين ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (١) ثم توجه - فى الآية التى تلت هذه الآية - إلى الرعية والأمة ، فأوجب عليها طاعة أولى الأمر الذين ينهضون بأداء هذه الأمانات ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ

(١) النساء : ٥٨ .

خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (١) .. فوجود ، ولاة للأمر ، يجب عليهم أداء الأمانات إلى المحكومين .. ووجود رعية تجب عليها طاعة ، ولاة الأمر ، هؤلاء ، هي فرائض دينية لا سبيل إلى الوفاء بها إذا غابت ، الدولة ، من عالم الإسلام والمسلمين .. هذه ، الدولة ، ليست مطلق دولة ، من حيث النهج الذي تلتزمه والشرع الذي تحتكم إليه ، وإنما هي ، الدولة الإسلامية ، لأنها هي وحدها الأداة الكافلة لإقامة الواجبات الشرعية الإسلامية التي لا تقوم ولا تقام إلا بهذه الأداة ! .. وهكذا نجد أن ، الدولة ، رغم أنها ليست فريضة قرآنية ولا ركناً من أركان ، الدين ، ، إلا أنه لا سبيل - في حال غيابها - إلى الوفاء بكل الفرائض القرآنية الاجتماعية ، والواجبات الإسلامية الكفائية ، التي يقع الإثم بتخلفها على الأمة جمعاء ، والتي كانت - لذلك ، أكد من فروض الأعيان ! .. فوجوب ، الدولة ، إسلامياً ، راجع إلى أنها معاً لا سبيل إلى أداء الواجب الديني إلا به .. ومن هنا تأتي علاقتها وعلاقة ، السياسة ، بـ ، الدين ، في نهج الإسلام ! .. إنها ، واجب مدني ، اقتضاه ويقتضيه ، الواجب الديني ، الذي فرضه الله على المؤمنين بالإسلام .

* ويؤيد هذه الحقيقة الإسلامية جلاء ووضوحاً اتفاق المسلمين - باستثناء أبي بكر الأصم (٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) من المعتزلة - و ، النجداث ، - أتباع نجدة ابن عامر الحنفي (٣٦ - ٦٩ هـ / ٦٥٦ - ٦٨٨ م) من الخوارج - اتفاقهم على ضرورة الدولة ووجوبها ، شرعاً أو عقلاً ، أو للاعتبارين .. لأن ، الناس ، يتظالمون فيما بينهم بالشره والحرص المركب في أخلاقهم ، فلذلك احتاجوا إلى

الحكام ، (١) .. ولأن ، الإنسان مطبوع على الافتقار إلى جنسه ، واستعاضته
صفة لازمة لطبعه ، وخلفة قائمة في جوهره (٢) .. ، ولأن ، صلاح الدنيا ،
معتبر من وجهين :

أولهما : ما ينظم به أمور جملتها ..

والثاني : ما يصلح به حال كل واحد من أهلها (٣) ..

ومع اتفاق علماء الإسلام على ، ضرورة ، الدولة و ، وجوبها ، ، فإنهم قد
اتفقوا - خلا الشيعة الإمامية - على أنها من ، الفروع ، ، وليست من أصول
العقائد ولا من أركان الدين (٤) .. فهي واجب مدني اقتضاه ويقتضيه الواجب
الديني ، المشتمل على تحقيق الخير للإنسان في هذه الحياة ..

فهي ليست ركنا دينيا .. وإنما هي ، واجب مدني ، ، و ، ضرورة مدنية ، ،
لكن ليس بالمعنى الذي يقطع صلاتها وعلاقتها بالواجبات والفرائض الدينية ،

(١) الجاحظ (رسائل الجاحظ) ج ١ ص ١٦١ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .
طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

(٢) التاوردي (أدب الدنيا والدين) ص ١٣٢ . تحقيق مصطفى السقا . طبعة القاهرة سنة
١٩٧٣ م .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(٤) انظر الغزالي (الاقتصاد في الاعتقاد) ص ١٣٤ . طبعة صبيح - القاهرة - بدون
تاريخ و (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) ص ١٥ . طبعة القاهرة سنة
١٩٠٧ م . والجويني (الإرشاد) ص ٤١٠ طبعة القاهرة ١٩٥٠ م . والإيجي ،
والجرجاني (شرح الموافقات) ج ٣ ص ٢٦١ . طبعة القاهرة سنة ١٣١١ هـ .
والشهرستاني (نهاية الإقدام) ص ٤٧٨ طبعة جديوم . بدون تاريخ أو مكان الطبع
(مصورة) وابن خلدون (المقدمة) ص ١٦٨ طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

على النحو الذي يقول به العلمانيون ؛ لأن قيام الكثير من الواجبات ، الدينية ، متوقف على تحقيق هذا الواجب ، المدني ، .. و : المدنية ، - هذا - تعنى انتفاء الكهانة ، و : الثيوقراطية ، Theo-cracy عن طبيعة ، الدولة ، والسياسة في الإسلام ، ولا تعنى العلمانية التى تفصل ، الدولة ، عن الدين ، .

* ونحن إذا تأملنا موقف أبى بكر الصديق من قتال القبائل التى بقيت على إسلامها ، بعد وفاة الرسول ﷺ لكنها امتنعت عن تسليم زكاة أموالها إليه ، كخليفة للدولة الإسلامية .. إذا تأملنا هذا الموقف وجدناه نموذجا جيدا للتعبير والبرهنة على طبيعة العلاقة بين الدين ، و : الدولة ، فى نهج الإسلام .

فالذى رفضته هذه القبائل وارتدت عنه لم يكن ، دين ، الإسلام .. لأنهم ظلوا قائمين على الإيمان ، بالتوحيد ، الدينى فى الألوهية ، وعلى ، النبوة ، لمحمد ﷺ ، يصومون ، ويصلون ، ويحجون .. بل لقد ميز مالك بن نويرة (١٢هـ / ٦٣٤ م) وأصحابه الزكاة عن أموالهم ، لكنهم امتنعوا عن إعطائها ، للدولة ، الجديدة : دولة الخلافة التى قامت بالمدينة عقب وفاة الرسول ﷺ .. وكانوا - فى هذا الموقف - مرتدين عن وحدة الدولة ، والتوحيد القومى ، ، رغم إيمانهم بالتوحيد الدينى ، الذى جاء به الإسلام ! ..

لكن ، أبى بكر الصديق ، - بعقريته السياسية التاريخية - لم يقبل منطق عمر ابن الخطاب الذى سأله معترضاً : كيف تقاتلهم وهم يشهدون أن لا إله إلا الله ؟! .. وفى السنة النبوية أن من شهد بها فقد عصم ماله ودمه ؟! .. ثم يقبل أبى بكر هذا المنطق ، الذى وقف عند ، الدين ، ، ولم يبصر علاقته بـ ، الدولة ، فمع تسليمه بإيمان القوم - المرتدين - ، بالإسلام الدين ، ، رغم ارتدادهم عن

وحدة ، الدولة ، الإسلامية ، أبصر الصديق علاقة ، الدين ، بـ ، الدولة ، ،
ورأى ، وحدة الدولة ، حقاً يقتضية ، التوحيد في الدين ، !..

فوجود ، دولة الخلافة ، يومئذ - وهي ضرورة مدنية وواجب سياسي - كان
السبيل لتنظيم ، الزكاة ، ، التي هي واجب ديني ، وركن من أركان الإسلام
الدين .. وهذا هو المعنى الحقيقي والعميق لعبارة أبي بكر التي حسمت الحوار
الذي دار حول مشروعية قتال هؤلاء المرتدين عن وحدة الدولة الإسلامية : إن
الزكاة هي حق لا إله إلا الله ؟! .. ، والله لو منعوني عقلاً كانوا يؤدونه
لرسول الله لقاتلتهم عليه ، !.. وبهذا المنطق الذي ربط به أبو بكر بين
«الدين ، و ، الدولة ، ، شرح الله صدر عمر بن الخطاب لرأى الصديق في هذا
الموضوع الخطير!..

بل لعنا لا نغالي إذا قلنا : إن وجود ، دولة الخلافة ، - والتي حماها
الصحابية ودعموها بقائلهم للمرتدين - رغم طابعها المدني ، وانقفاء وصف
«الواجب الديني ، والفريضة الدينية ، والدولة الدينية ، عنها - إن وجودها كان
السبيل لما هو أكثر من إقامة ، فريضة الزكاة الدينية ، ، كركن من أركان الدين
.. إذ أنها كانت السبب لإقامة الإسلام كله كدين .. ، فالدولة ، هي التي نشرت
الإسلام خارج شبه الجزيرة ، بعد أن أعادت رفع أعلامه التي طواها العرب
المرتدون .. ونولاها لتهددت الإسلام مخاطر أن يصبح مجرد نحلة من النحل
التي عرفها التاريخ ، أو ديانة يقف شرف القديين بها عند قلة من الناس .. لقد
كانت هذه ، الدولة ، هي الأداة التي تحقق بها وعد الله سبحانه في قرآنه

الكريم : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » (١) ..

إن ، التشيع ، - كمذهب - لم يبلغ فى المنطق والاتساق والتماسك مبلغ الاعتزال ، .. وعبقرية الليث بن سعد (٩٤ - ١٧٥ هـ / ٧١٣ - ٧٩١ م) ومحمد بن جرير الطبرى (٢٢٤ - ٣١٠ هـ / ٨٣٩ - ٩٢٣ م) فى ألفقه لا نقل - إن لم نزد - عن عبقرية مالك بن أنس (٩٣ - ١٧٩ هـ / ٧١٢ - ٧٩٥ م) ومحمد بن إدريس الشافعى (١٥٠ - ٢٠٤ هـ / ٧٦٧ - ٨٢٠ م) .. لكن وجود الجماعة المنظمة ، هو الذى ضمن البقاء لمذهب التشيع ، ولفقه مالك والشافعى ، على حين ذاب الاعتزال ، واندثر إبداع الليث والطبرى كفقهاء .. وهذا برهان على أهمية ، النظام والتنظيم ، بالنسبة لبقاء وانتشار الدعوات .. وبرهان على مكان ، الدولة ، - رغم طابعها المدنى - من الإسلام كدين .. فتميز طبيعتها عن طبيعة الدين ، وإن برأها من ، الكهانة والتيوقراطية ، ، إلا أنه لا يقطع الصلات بينها وبين الدين ، على النحو الذى يقول به العلمانيون ، فهى واجبة ، بنظر الإسلام ، وضرورة شرعية سياسية ؛ لأن فى تخلفها - رغم كونها من ، الفروع ، - تخلف كثير من ، الأصول ، والواجبات التى فرضها الدين ! ..

على أن أبلغ رد على ، العلمانيين ، - القائلين ، بعلمانية الإسلام ، - والذين يدعون أنه ، دين ، ورسالة روحية مخصصة ، وليس ، دولة ، و ، سياسة ، ، ولذلك يزعمون أن محمدا ﷺ لم يؤسس دولة ولم يقم حكومة ولم يكن قائدا

(١) الحجر : ٩ .

١ - يا رسول الله : إن بيننا وبين الرجال - (يهود يثرب) - حبالا ، وأنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟! .

جوابا على هذا التساؤل قال ﷺ - وهو يتسم - : بل الدم الدم ، والهدم الهدم - (أى منزلى فى منازلكم .. وقبرى فى مقابركم .. ومن طلب دمكم فقد طلب دمي !) - أنا منكم ، وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم ، !

ولقد طلب النبي من هذه : الجمعية التأسيسية ، أن يختاروا منهم القيادة ، التى كانت بمثابة وزراء الرسول ومستشارى حكومته بين الأنصار .. فقال : « أخرجوا إلى منكم اثنى عشر يكونون على قومهم بما فىهم ، فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس (١) .

* فلما هاجر النبي ﷺ والمؤمنون من أهل مكة إلى المدينة ، وجد بها إلى جانب من آمن بالإسلام من الأوس والخزرج - (الأنصار) - قطاعات من قبائل المدينة العربية قد تديننت باليهودية .. فاتفق وممثلة هذه القطاعات والجماعات التى لم تدخل بعد فى الدين الجديد ، على أن يدخلوا فى الدولة الجديدة ، كجزء من رعايتها السياسية ، مع احتفاظهم بحرية الاعتقاد الدينى .. فتكونت الرعية السياسية للدولة الوليدة ، التى قاد الرسول حكومتها ، من

(١) رفاعة الطهطاوى (الأعمال الكاملة) ج ٤ ص ١٥٩ ، ١٦٠ دراسة وتحقيق د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٧ م .

المؤمنين بالإسلام - مهاجرين وأنصار - ومن العرب الذين بقوا على يهوديتهم .. ولهذه الدولة وضع الرسول دستورا بلغت « مراده » نحواً من الخمسين مادة ، ينظم كل شئون الدولة في السلم والحرب ، وفي التعاون الأدبي والإنفاق المادي ، وفيما هو خاص بكل قبيلة وما هو عام في الرعاية السياسية الجديدة .. وفي الموقف من الخارجين على هذا الدستور .. وفي حرمة الوطن الجديد وحدوده .. وفي علاقات هذه الرعاية الجديدة بمشركي قريش ، أعداء هذه الدولة الوليدة .. وفي المرجع عند الاختلاف على شأن من شئون هذه الرعاية ودولتها .. الخ .. الخ .. الخ ..

ولقد سمي المؤرخون هذا « الدستور » مرة بـ « الصحيفة » ، ومرة بـ « الكتاب » .. لأنه قد تحدث - في مواده - عن هذه الرعاية السياسية لهذه الدولة الجديدة حيناً باسم « أهل هذه الصحيفة » ، وحيناً باسم « أهل هذا الكتاب » ..

ففي هذا الواقع الجديد وجدنا « أمة مؤمنة » تتألف من المهاجرين والأنصار الذين أقام عقد « المواخاة » بينهم رباطاً وثيقاً في « الحق » وفي « سبل العيش » .. ووجدنا مع المهاجرين والأنصار هذه الجماعة العربية المتهودة ، التي دخلت مع المؤمنين في إطار « الرعاية السياسية » ، أي « الأمة السياسية - والقومية » للدولة الجديدة .. ووجدنا هذا الدستور - الذي هو غير القرآن : دستور الجماعة المؤمنة - وجدنا هذا الدستور السياسي يتحدث عن أبرز جماعتين تتكون منهما هذه « الأمة السياسية الجديدة » فيقول عن المهاجرين والأنصار - أمة الدين -

إنهم ، أمة واحدة من دون الناس » .. ثم - بعد أن عدّد قبائلهم - يعدد قبائل العرب المتسيّدة ؛ ليخلص لتقرير ولادة هذا الكيان السياسي وه الأمة السياسية ، فيقول : « وأن يهود بنى عوف وبنى النجار وبنى الحارث .. الخ .. الخ ... أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ... وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، والبر دون الإثم » ..

ثم يقرر هيمنة الإسلام كدين ، وقيادة محمد ﷺ في هذا الكيان السياسي الجديد والدولة الوليدة ، فينص في إحدى « مواده » على : « ... وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله (١) » ..

فهى - إذن - « دولة » .. سبق قيامها « عقد تأسيس » .. وقام لها « دستور » لازالت مواده المحكمة الصياغة تجتذب إعجاب أرباب هذا الفن من الفقهاء الدستوريين !؟ ..

* وإذا كانت أحداث الحرب والقتال ووقائع الغزوات والسرايا والبعوث قد شغلت الحيز الأكبر من صفحات مصادر السيرة النبوية ومراجع التاريخ التى أرخت للحقبة المدنية من عصر النبوة ، حتى لقد توارت فى هذه المصادر ، معالم الدولة ، وأركان الحكومة ، وأدوات الولاية ، ودوائر السلطة

(١) انظر نص هذه « الصحيفة » الكتاب ، فى أمهات كتب السيرة النبوية .. ولقد أورده النويرى فى (نهاية الأرب ج ١٦ ص ٣٤٨ - ٣٥١ . طبعة دار الكتب المصرية) . وانظره كذلك فى (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) ص ١٥ - ٢١ جمع وتحقيق محمد حميد الله الحيدر أبادى . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

والسلطنة ، التي قامت للإسلام والمسلمين في هذه الحقبة ... إذا كان ذلك قد حدث لمصادر السيرة ومراجع التاريخ ... فإن مصادر السنة النبوية وصحاح الحديث النبوي وجوامعه قد ظلت الديوان الأعظم الذي بقيت فيه - متفرقة ومتناثرة - معالم هذه الدولة وأمارات ، محمد - الحاكم - وقائد المجتمع - وسائن الأمة - ورجل الدولة ، ..

ولقد قيض الله لهذه القسمة التي تمثل المنطلق لتراث الإسلام السياسي عالما أبحر في محيط السنة ، والنقطة منه اللبثات التي أقامت معالم ، دولة المدينة ، شامخة وبارزة ومتألقة للناظرين .. وهذا العالم هو : الخزاعي ، أبو الحسن علي ابن محمد بن أحمد بن موسى بن مسعود بن موسى بن أبي غفرة الخزاعي (٧١٠ - ٧٨٩ هـ / ١٠٢٦ - ١١٠٣ م) .. أما كتابه الذي تفرد في تراثنا بكونه ديوان معالم دولة الرسول - عليه السلام فهو كتاب (تخريج الدلالات السمعية) (١) .. ومن هذا الكتاب الذي هو جماع ما تنافس في مصادر الحديث النبوي من أخبار ، الدولة ، ومعالمها وأركانها ودوائرها وأدواتها ووظائفها ندرك أننا بإزاء ، دولة ، كاملة الأركان ، تامة المعالم ، قياسا على العصر والواقع الذي قامت فيه ونهضت لضبط شئونه وتلبية احتياجات الرعية فيه ..

(أ) فعلى رأس هذه الدولة كان القائد والأمير وولي الأمر والإمام : محمد ابن عبد الله ﷺ .. وكان له وزراء ومشيرون ، أشهر منهم : هيئة العشرة -

(١) انظر خلاصة هذا الكتاب في (الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي) ج ٤ ص ٤٨١ -

٧٦٥ . وانظر نصه في ثلث كتاب (نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية)

لعبد الحى الكتانى ج ١ ، ٢ طبعة بيروت . دار الكتاب العربي .

المهاجرون الأولون - ونقباء الأنصار اثنا عشر .. وكان هناك من اخصص
« بالحجابة » ، و « السقاية » ، و « الكتابة » ، و « الترجمة » ، و « حمل » الخاتم ،
و « إمارة الحج » .. الخ .. الخ ..

(ب) وفي فقه الدين كانت هناك « عمالات » : « تعليم القرآن » ...
و « تعليم الكتابة والقراءة » ، .. و « الإفتاء » ... و « تعليم الفقه » ... و « إمامة
الصلاة » ، ... و « الأذان » .. الخ .. الخ .. الخ

(ج) وفي العلاقات الخارجية والإعلام كان هناك : « السفراء » ...
و « الترجمة » ، ... و « الشعراء » ، ... و « الخطباء » ، .. الخ .. الخ ..

(د) وفي القطاع الحربي : كان هناك - غير « أمراء القتال وجنده » - :
« كتاب الجيش » ، ... و « فارضو العطاء » ، ... و « العرفاء » : رؤساء الجند ، الخ ..
الخ ..

(هـ) وعلى النواحي كان هناك ولاية وأمراء الأقاليم .. وفيها كان القضاة
.. وعمال الجباية والخراج .. والقائم على الحمى .. وصاحب المساحة ..
وعمال الزكاة والصدقات .. والخارصون للثمار .. كما كان هناك ، فارضو
الموارث ، .. و « فارضو النفقات » ، الخ .. الخ ..

(و) كذلك كان هناك من يقوم بمهمة « المحاسب » ، .. و « صاحب
العسس » .. و « متولّي حراسة المدينة » ، .. و « العين » : الجاسوس ، .. و « السجان »
.. و « المنادى » .. و « مقيم الحدود » .. و « متولّي التطبيب والعلاج » ..
الخ .. الخ ..

(ز) وعند الغزو كان هناك : : أمراء الجهاد ، و ، المستخلفون على المدينة ، .. ومن ، يستنفر الناس للقتال ، و ، صاحب السلاح ، .. و ، صاحب اللواء ، .. و ، أمراء أقسام الجيش الخمسة ، و ، حراس القائد ، .. عليه الصلاة والسلام . .. و ، القائمون على متاع السفر ، .. ومن ، يخذلون الأعداء ، .. ومن ، يبشرون بالانصر ، الخ .. الخ ..

وكثير من هذه الوظائف الإدارية كان لها أربابها الذين عيّنهم الرسول فيها ابتداء ، أو أقرهم على مهنتهم وحرفهم .. ومنهم من عزله عن وظيفته وعين فيها البديل ..

فنحن أمام ، دولة ، اكتملت لها المعالم والمقومات .. نشأت كضرورة اقتضاها الدفاع عن حرية العقيدة الجديدة وحرية الدعوة والدعاة للمدين الجديد ... وكضرورة لإقامة شريعة الإسلام ، وتنظيم المجتمع الذي قام بالمدينة بعد هجرة الرسول - عليه الصلاة والسلام - .

* ولقد كان المصطلح المعبر عن الإمارة والسياسة وشئون الدولة ، في ذلك التاريخ ، هو مصطلح ، الأمر ، .. ومنه كان ، الائتمار ، و ، الأمير ، .. ولتتميز ، الأمر ، عن ، الوحي والدين الخالص ، كان الأمر شورى في شريعة الإسلام .. وكانت الشورى فريضة إلهية وجبت على الرسول ﷺ ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (١) .. وصفة للمؤمنين ، بنص القرآن الكريم ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (٢) .. وكما كان الرسول معصوما في البلاغ عن الله سبحانه ،

(١) آل عمران : ١٥٩ .

(٢) الشورى : ٣٨ .

لا ينطق فيه عن الهوى ؛ لأن بلاغه هذا وحى يوحى .. فلقد كان فى « الأمر :
السياسة » مجتهدا ومستشيرا .. فهو فى البلاغ الدينى : بشر يوحى إليه .. وفى
سياسة الدولة : بشر يجتهد ويستشير .. ومن هنا يأتى المَعْلَم الثانى من معالم
« دولة » الإسلام ، والذى به تتميز عن « دولة الكهانة » و « الدولة الدينية » ،
التي عرفتتها الحضارات غير الإسلامية ، تستبد بها فئة خاصة بزعم أنها
مفوضة للحكم بالحق الإلهى ..

فهل هناك - بعد هذا الذى قدمنا - مجال لزعم علمانى يدعى أصحابه أن
الإسلام « دين » لا « دولة » ، ورسالة روحية محضة لا علاقة لها بسياسة
المجتمع .. وأن رسوله - عليه الصلاة والسلام - ما كان إلا رسولا ، كالذين
سبقوه ، لم يقيم دولة ، ولم يرأس حكومة ، ولم يسن المجتمع الذى عاش
فيه ؟؟ ..

لا نظن أن هناك مجالا لزعم الذين أجهدوا الحقيقة ليقرروا « علمانية
الإسلام » ! ..



حضارتنا .. والعلمانية

وإذا لم يكن : الإسلام : الدين ، .. ولا ، دولة الإسلام ، التي قامت بالمدينة ، على عهد رسول الله ﷺ قد عرفا العلمانية ، بمعنى فصل الدين عن السياسة والدولة .. فهل عرفتها حضارة الإسلام على عهد ازدهارها ؟؟ .. وهل كان لها مكان في فكر الإسلام السياسي ، الذي أبدعته هذه الحضارة ، بواسطة التيارات الفكرية الأساسية ، في مباحث الخلافة والإمامة والسلطة والسلطنة ؟؟ ..

إن : الإسلام : الدين ، عندما مد لفكره العقلاني خيوطا تلاقت وتلاحمت بمواريث الأمم والشعوب التي دخلت في رعية الدولة العربية الإسلامية بعد عصر الفتوحات ، قد أثمر - بدءا من : عصر التدرين - : بناء : الحضارة العربية الإسلامية ، .. وفي هذه الحضارة ، فإن : العلمانية ، وعزل : الدين ، عن : الدولة ، ، و : الفصل ، بينهما لم تكن قضية مطروحة على العقل العربي المسلم وهو يقيم بناء حضارته العربية الإسلامية .. وإنما القضية التي طرحت يومئذ هي : : طبيعة السلطة السياسية في الدولة ومؤسساتها ، .. هل هي دينية ؟ .. الحاكم فيها نائب عن السماء ؟ .. هي التي تعينه : ليحكم بقانون إلهي لا دخل للبشر في سنه أو تعديله ؟ كما لا دخل لهم في الشورى أو الاختيار والتعيين ولا العزل لهذا الحاكم ..! لأن الإمامة أصل من أصول الدين !! ..

وبذلك قالت الشيعة ، وانفردت دون سائر فرق الإسلام ومذاهبه وتياراته الفكرية .. ومن ثم فلقد مثل هذا الرأي ، نقواء ، في الحضارة الإسلامية ، ولم يصبح في يوم من الأيام قسمة من قسماتها .

وفي مقابل هذا ، النقواء ، الشيعي كان اجتماع كل فرق الإسلام - غير الشيعية - واتفاقها على أن السلطة العليا في الدولة ذات طبيعة مدنية .. والأمة - بواسطة ممثليها - هي التي تختار صاحب هذه السلطة وتعينه وتبايعه .. ثم هي الرقيبة عليه ، والمحاسبة له ، ومن حقها - بل من واجبها - عزله ، إن هو خالف العهد وشروط التفويض ، وإن بالثورة .. وهو لا يعدو أن يكون منفذا للقانون الذي هو ثمرة للشورى والرأي والاجتهاد ، والوضع البشرى ، في إطار الكليات والنوصايا والمثل العليا والعامة ، التي هي ثوابت الدين وروح السماء .. لأن الخلافة والإمامة والدولة والسلطنة من الفروع المتعلقة بمصالح الدنيا ، وليست من أصول الدين ..

بذلك قالت كل فرق الإسلام وتياراته الفكرية - غير الشيعة - على وجه الإجمال ، مع اختلاف في بعض الجزئيات والتفصيلات ..

فمضمون ، العلمانية ، إذن - وهو فصل الدين عن الدولة - في إطار هذه الحضارة العربية الإسلامية - مرفوض ، بل وغير وارد الذكر ، من كل التيارات .. لأن الشيعة - رغم اختلاف الدوافع والمنطلقات والغايات - قد قالوا في هذه القضية بشبه ما قالت به الكنيسة الكاثوليكية في أوربا العصور الوسطى ، وهو القول الذي نشأت ، العلمانية ، لتناصبه للعداء .. أي أن رفض الشيعة ، للعلمانية ، حاسم وشديد وأكد ..

وأما غير الشيعة - من تيارات الإسلام الفكرية - فهم وإن لم يقولوا بما يساوى « الحكم بالحق الإلهي » ، و « وحدة السلطتين » الدينية والزمنية ، إلا أنهم لم يقولوا « بفصل » الدين « عن » الدولة ، أو استبعادها من شؤون المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فضلا عن الأخلاقية ، وإنما قالوا قولاً وسطاً بين هذين الموقفين المتطرفين ، والممثلين لقطبي الظاهرة ، وهذا القول الوسط الذي اختاروه قد جمعوا فيه شيئاً من هذا الطرف وشيئاً من ذلك الطرف ، فكانت نظرتهم ونظريتهم في هذه القضية - برأينا - التعبير عن خاصية الحضارة العربية الإسلامية في « الوسطية .. والموازنة .. والتوازن » ، ورفض التطرف الذي يمسك واحداً من أطراف الظاهرة ، غافلاً عن الموقف الوسطي الموفق والمؤلف بين ما يحسبه البعض متناقضات لا سبيل إلى الجمع بينها ، فضلاً عن التوفيق والتأليف .. وهذا الموقف الوسط هو الذي نسميه : « الدين » ، و « الدولة » .. وفيه :

(أ) يكون الحاكم الأعلى في المجتمع - (الدولة) - نائباً عن الأمة ووكيلاً لها فيما تفوضه إليه من سلطات .. ولها عليه الرقابة والحساب والعزل ، عند الإخلال بشروط التفويض .. فالخليفة - هنا - ليس خليفة عن الله ولا نائباً عن السماء ..

(ب) كما يكون - في الأساس - منفذاً للقانون الذي يضعه مجتهدو الأمة وأهل الخبرة بشؤونها ، بالشورى والرأى والنظر ، في إطار كليات الدين ومثله العليا ووصاياها العامة .. أي أن الأمة - هنا - هي مصدر السلطات ، شريطة أن تنفذ سلطاتها بالوصايا الدينية المتمثلة في النصوص القطعية الثبوت والقطعية

الدلالة ، طالما بقيت هذه النصوص محقة لمصلحة الأمة في مجموعها ، وإلا قدمت المصلحة على هذه النصوص .. لأن الشريعة - في السياسة والدولة وال عمران - مقاصد ، ورأس هذه المقاصد ومحورها وجماعها هو تحقيق مصلحة الأمة الكافلة لسعادتها في الدنيا والآخرة ..

(ج) « فللدين ، مدخل في الدولة ، لكنه لا يرقى إلى مستوى « الوحدة » .. كما أن علاقتهما لا تنزل إلى مستوى « الفصل » بينهما ، وإنما هو « التمييز » بين « الدين » و « الدولة » .. فالتمييز ، هو المصطلح الأصح والأدق للتعبير عن نوع هذه العلاقة بينهما ..

ولقد زكى هذا النهج الوسطى الذى مثل جوهر موقف الحضارة العربية الإسلامية في هذه القضية المحورية ، أن « الإسلام : الدين » ، لم يعترف لبشر - بعد الرسول ﷺ - بسلطة دينية ، بل لقد وقف بسطان النبى الدينى عند حدود ما هو « دين » وبلاغ عن الله سبحانه ، وباكتمال الدين والشريعة ، وانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، انقضى زمن الوحي ، وبلغت الإنسانية طور الرشـد ، عندما أوكـلها الله إلى وكيليه عندها : الكتاب - وهو القرآن الكريم - والعقل الذى جعله الله من أجل القوى الإنسانية .. بل أجلها على الإطلاق ..

ومن ثم ، فلقد كان طبيعيا - فى هذا النهج الإسلامى الوسطى - أن تُرفض « العلمانية » ، وأن يرفض تقيضها - الحكم بالحق الإلهى - ووحدة السلطتين : الدينية ، والزمنية ؛ لأن كليهما قد قام فى مناخ فكرى وعملى كان الاعتقاد « بالكهانة » و « الكهنوت » و « السلطة الدينية » فيه مسلمة من المسلمات ..

ولذلك فإننا نستطيع أن نقول : إن موقف الحضارة العربية الإسلامية هذا كان هو التطبيق - فى مجال السياسة و الدولة - لموقف « الإسلام : الدين » الذى ينكر وجود « سلطة دينية » لبشر - خارج نطاق الموعظة والإرشاد - والذى لم يحدد للحكم فى الدولة نظاماً محددة ومفصلة ، ولم يضع نظريات ثابتة ودائمة ، ولم يسن قوانين جامعة وشاملة .. كما أنه لم يهمل ذلك بالكلية ، وإنما توسط فى الأمر ، فوقف عند تحديد المقاصد والفلسفات والغايات التى صاغها فى صورة « مثل عليا » و « وصايا » و « كليات » و « أطر » حاكمة ومرنة فى ذات الوقت ثم ضرب - بآيات الأحكام - الأمثلة على نماذج التشريع والتقنين ليهتدى بهذه الأمثلة على درب الخلق والإبداع والإضافة والتجديد ! ..

ونحن إذا شئنا الإشارة إلى الأدلة والمعالم التى استندت إليها حضارتنا فى اتخاذ التمييز بين « الدين » و « الدولة » نهجا وسبيلا تميزت به عن غيرها من الحضارات .. فإن بالاستطاعة أن نقول :

١ - إن صحابة الرسول ﷺ كانوا يسألونه - فى الكثير من المواقف التى يدلى فيها برأيه أو يتخذ فيها قراره - ذلك السؤال الشهير : « يا رسول الله ، أهو الوحي ؟ .. أم الرأي والمشورة ؟ .. » .. فإن قال لهم : إنه الوحي .. كان منهم السمع والطاعة ، وإسلام الوجه لله ، لأنه « الدين » الخالص والبلاغ عن الله .. وإن قال لهم : إنه الرأي .. كانت منهم الشورى ، والأخذ والرد ، والنقد والتصويب ، لأنها « السياسة والدنيا » ..

٢ - إن الرسول ﷺ قد نبه على ما يعنيه كون الإسلام خاتم الرسالات ، فى مجال الدولة والسياسة ، فعلمنا أن طبيعة السلطة فى الدولة والمجتمع ، عند

الأمر السابقة ، كانت - في الغالب - « دينية » خالصة ؛ لاستمرار النبوة ، الأمر الذي جعل « الملك » و « النبوة » مقترنين أو متحدين في أغلب الأحيان .. أما بعد ختام طور النبوة والرسالة بمحمد ﷺ فإن السلطان الديني للبشر قد انطوت أعلامه عن ميدان الحكم والسياسة والدولة ، وانفردت به الشريعة وأحكامها .. ينبهنا إلى ما عناه الإسلام من تطور وتطور في مسيرة الإنسان على هذا الدرب فيقول - فيما يرويه عنه أبو هريرة - : « إن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وإنه لا نبي بعدى ، وإنه سيكون خلفاء » (١) ..

فنحن أمام طور جديد أثمر تطور حاسم في مسيرة الإنسانية على درب السياسة والحكم والدولة ، غير من طبيعة السلطة في هذه الميادين ومؤسساتها .

٣ - وفي غزوة بدر .. وبعد أن عسكر الرسول ﷺ بجيش المسلمين استعداداً للقتال ، سأله المسلمون بلسان الصحابي « الحباب بن المنذر » ، عن « طبيعة » قراره هذا ؟ .. هل هو « دين » ، فله الطاعة والتسليم .. أم هو « سياسة ورأى » ، فيخضع للثورى والبحث والتعديل ؟ ؟ .. سأله الحباب بن المنذر :

« يا رسول الله : رأيت هذا المنزل ، أمزل أنزلك الله ، فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ؟ .. أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ .. »

فقال ﷺ :

« بل هو الرأى والحرب والمكيدة ... »

(١) رواه البخاري وابن ماجه وابن حنبل .

فقال الحباب :

يا رسول الله : إن هذا ليس لك بمنزل !... فأنهض بنا حتى نأتى أدنى ماء من القوم - (قريش) - فننزله ، ونغور ما وراءه من القلب - (الآبار) - ثم نبني عليه حوضا ، فنملؤه ماء ، ونشرب ولا يشربون !... .
فاستحسن الرسول رأى الحباب ، وفعله (١) !..

فهذا ، تمييز - من المسلمين ومن الرسول - بين ما هو : دين خالص ، وما هو : سياسة لأمر الجيش ، كشأن من شئون : الدولة ، و : الدنيا ..

٤ - وفي غزوة الخندق - (سنة ٥ هـ) .. عندما اشتد الأمر على المسلمين في : المدينة ، المحاصرة ، سعى الرسول ﷺ إلى عقد : معاهدة ، مع قادة : غطفان ، وأهل : نجد ، يتخلون بموجبها عن حلفهم مع قريش ، ويفكون حصارهم للمدينة ، لقاء حصولهم على ثلث ثمار المدينة .. وبعد أن تمت المفاوضات ، وأعد مشروع المعاهدة ، وقبل إمضائه ، استشار الرسول قاندى الأنصار : سعد بن معاذ (٥ هـ / ٦٢٦ م) وسعد بن عباد (١٤ هـ / ٦٣٥ م) : فدار بينهم هذا الحوار الذى بدأه سعد بن معاذ :

.. يا رسول الله : أهذا أمر تحبه فنصنعه لك ؟ .. أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع ؟ أو أمر تصنعه لنا ؟ .. ؟ ..

.. بل أمر أصنعه لكم . والله ما أصنعه إلا لأننى قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ! ..

(١) ابن عبد البر (الدرر فى اختصار المغازى والسير) ص ١٣ . تحقيق : د . شرفى ضيف . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

- يارسول الله : والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان .. وما طمعوا قط أن ينالوا منا ثمرة إلا بشراء أو قرى - (ضيافة) - فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك ، نعطهم أموالنا ؟! .. والله لا نعطهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم !... .

فنزل الرسول - مسرورا - على رأى أصحابه ، وعدل عن الرأى الذى كان قد ارتآه .. وقال لقادة غطفان ونجد : انصرفوا ، فليس لكم عندنا إلا السيف .. وتناول الصحيفة - (مشروع المعاهدة) - فمحاها ! (١) ..

فهنا - أيضا - تمييز من الصحابة - قادة الأنصار - عند مداولاتهم مع رسول الله ﷺ بين الدين ، وبين السياسة ، ... فلما لم يجدوا ما رآه الرسول وأشار به ، وحيا ودينا خالصا ، يستوجب السمع والطاعة ، قدموا مشورتهم واجتهادهم الذى يدل الموقف ؛ لأن القضية سياسة وحرب واقتصاد .. وعلى رأيهم ومشورتهم نزل الرسول - عليه الصلاة والسلام - ..

٥ - ويدخل فى هذا الباب - باب السياسة والرأى والاجتهاد - إنجاز الرسول ﷺ فى ميدان القضاء .. فلقد كانت تعرض عليه المنازعات ، فيستوضح البينات . ويستوفى الأيمان ، ثم يقضى ، بالرأى ، لا بالوحي الدينى ، الذى لا ينطق فيه عن الهوى .. ولذلك ، فلقد تحدث إلى أصحابه منبها لهم على أن قضاءه ليس وحيا حتى يصادف الصواب مهما خفى ، ومن ثم فهو ليس دينا خالصا ، وإنما هو الرأى والاجتهاد وأمور الدنيا ، المتميزة

(١) المصدر السابق . ص ١٨٤ .

عن شئون ، الدين ، .. تحدث إليهم في هذا الأمر فقال : ، إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى له بما يقول .. فأنا بشر أقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه بقوله .. فأظنه صادقا .. فإنما أقطع له قطعة من النار ، فلا يأخذها ! .. (١) .

فهو هنا ﷺ ينبه على أن بشريته تجعله يقضى بقاء على ما يسمع من الحجاج والبيانات ، وأنه قد يقضى بناء على ظنه ، صدق طرف من طرفي النزاع .. وكل ذلك يخرج قضاياه من دائرة ، الدين ، الموحى به ، المبرأ من الخطأ والمنزه عن الظن ، ويدخل به إلى دائرة ، الرأي والاجتهاد ، دائرة الدولة والسياسة ، لأمر الناس ! ..

٦ . وقصة الرسول ﷺ مع تأييزه (تلقيح) - نخل المدينة ، شاهد في هذا المقام .. فبعد هجرة الرسول إلى المدينة ، وجد أهلها ، يلقحون ، نخليها .. فقال :

« ما يصنع هؤلاء ؟ »

« قالوا : يأخذون من الذكر فيجعلونه في الأنثى .. »

« قال : ما أظن ذلك يغني شيئا . »

« فبلغهم ، فتركوه .. فصار الثمر شيئا ! .. »

فلما راجعوه في الأمر قال - عليه الصلاة والسلام - : ، إنما هو الظن ، إن كان يغني شيئا فاصنعوه ، فإنما أنا بشر مثلكم ، وإن الظن يخطيء ويصيب

(١) رواه الإمام أحمد .

ولكن ما قلت لكم : قال الله ا.. فلن أكذب على الله .. ما كان من أمر دينكم
قبالي ، وإن كان شأننا من أمر دنيائكم فشأنكم به .. أنتم أعلم بأمر
دنيائكم .. (١) .

فهنا ، بالنص لا بمجرد الاستنتاج - تمييز حاسم وواضح وقاطع بين ما هو
«سياسة ودنيا» وبين ما هو «وحي ودين» .. فما كان «دنيا» فمرجعه
«الوحي» والتنزيل ؛ لأن فيه من «الغيب» ما لا تدركه العقول الإنسانية بذواتها
إن هي استقلت بالنظر .. أما ما كان «دنيا» - بما فيها «الدولة والسياسة لشئون
المجتمع» - فالمرجع فيها إلى «العقل والتجربة» الإنسانية ، المحكومين
«بالمصلحة» و«مصلحة مجموع الأمة» ، في إطار «كليات» «الدين» و«مثله
العليا» و«وصاياه» .

٧ - بل إننا لنجد لرسول الله ﷺ موقفا صريحا يدعو فيه صحابته وقادة
جيوشه إلى التمييز ما بين «حكم الله» - سبحانه وتعالى - الذي هو قضاء ديني
قد اختص به ، وأودع الوحي بعضا منه ، وبين ما هو «سياسة وحرب واقتصاد
وشئون تتعلق بالمجتمع والدولة» مما لم يرد فيها نص قطعي الدلالة والثبوت
ذلك أن تقديرنا للأمور وقرارنا فيها هو «حكمنا نحن» ، وليس لإنسان - حتى
ولو كان صحابيا جليلا أو سيفا من سيوف الله أو أميرا من أمراء رسوله - أن
يدعى أنه يحكم بين الناس - مجتهدا - ب«حكم الله» ، ولا أن قراره هو «كلمة
الله» .. ينهي الرسول صحابته عن انتحال هذه «السلطة الدينية» الإلهية ،

(١) رواه مسلم وابن ماجة وابن خنبل .

ويطلب من قادة الجيوش وأمراء السرايا أن تكون معاهداتهم مع من يحاربون ويصالحون معاهدات واتفاقات موضوعة في الإطار البشري والسياسي ، دون أن يزعم لها نسبة تخرجها من دائرة « الرأي والاجتهاد » وتضفي عليها قداسة « حكم الله » ..! فلقد روى عنه عليه السلام أنه ، كان إذا أمر - (بتشديد الميم مفتوحة) - أميرا على جيش أو سرية أوصاه : إذا حاصرت أهل حصن ، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا (١) ..!؟

فهو هنا يدعو إلى التمييز بين حكم الله وقضائه - المأخوذ من النصوص القطعية الدلالة والثبوت وحدها - وبين حكم الناس وسياساتهم وحريهم وقضائهم ، وينهى عن أن يضفي البشر على أحكامهم الاجتهادية صبغة إلهية تمنحها قداسة أحكام الله!..

ولو لم يكن في سننه الشريفة عليه السلام غير هذا الحديث الشريف لكفى في رفض الإسلام للسلطة الدينية الكهنوتية ، ولقيام دليلا على خطئ الرأي الذي زعم أصحابه أن حكومة النبي وسياسته للدولة إنما كانت « حكومة الله » و « حاكمية الله » ، التي تجعل « الدولة والسياسة » « دينا خائضا » فتنتزع من الأمة الحق في أن تكون مصدرا للسلطة فيما لم يسبق فيه حكم الله!..

ولما كانت السنة النبوية ، التي مثلت ، ديوان سياسة الدولة الإسلامية ، على عهد البعثة قد امتلأت بالمواقف والنصوص التي ضرينا منها الأمثال الشاهدة

(١) رواه مسلم والترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجه والدارمي وابن حنبل.

على « التمييز » - دون « فصل » - بين ما هو « رسالة ووحى ودين خالص » وما هي « سياسة ورأى واجتهاد فى الدنيا والدولة » من إنجاز الرسول - عليه الصلاة والسلام - .. فلقد وجدنا كثيرين من علماء الأصول وأئمة الحديث النبوى - تعبيرا عن وضوح قسمة التمييز بين الدين و الدولة - يفردون المباحث التى قسمت هذه السنة النبوية إلى :

أ - سنة تشريعية : تمثل الثوابت الدينية الواجب الالتزام بنصها - مع فقهاء فى إطار ملاساتها ومقاصدها - لتعريفها عن الثوابت التى ضمنت وتضمن للأمة تميزها الحضارى ، رغم اختلاف الزمان والمكان ..

ب - سنة غير تشريعية : تمثل إنجاز الرسول فى سياسة الدولة .. والشئون الدنيوية .. وفى القضاء وكل ما سكت عنه « الوحي الدينى » مما تعلق بالمتغيرات التى تبدل وتطور باختلاف الزمان والمكان ..

فنحن مطالبون - حتى نكون متبعين للرسول ومُتأسِّين به ومُهتدين بهدى سنته - مطالبون بالالتزام ، بسنته التشريعية ، « لأنها دين » ، وهى نصلتها بموضوع « الوحي » - صارت كأنها منه ..

أما فى « سنته غير التشريعية » - ومنها تصرفاته ﷺ فى السياسة والحرب والسلم والمال والاجتماع والقضاء ... ومثلها وما شابهها من أمور الدنيا - فإن اقتداءنا بالرسول فيها يتحقق بالتزامنا « المعيار » الذى حكم تصرفاته ﷺ .. فهو - كقائد للدولة - كان يحكم فيها على النحو الذى يحقق « المصلحة » للأمة ، فإذا حكمنا - كساسة - بما يحقق « مصلحة » الأمة ، ويدفع عنها الضرر والضرار ،

كنا مقتدين بالرسول ، حتى ولو خالفت نظمنا وقوانيننا وترتيبنا الإدارية وتنظيماتنا ماروى عنه من أحاديث في مثل هذه الميادين : لأن ، المصلحة .. بطبعها - متغيرة ومنطوية بتغير المكان وتطور الزمان ... والرسول ﷺ - كقاض - كان يحكم بين الفرقاء المتنازعين والمتحاكمين إليه بناء على البينة ، و ، اليمين ، ، وهذا هو ، المعيار ، الذى إذا التزمه القاضى المسلم - الملتزم بمقاصد الشريعة وأحكامها - كان مقتديا بالرسول ومناسيا به ، حتى ولو جاءت أحكامه مخالفة لأقضية الرسول - عليه الصلاة والسلام - ..!

لقد ازدانت مباحث الكثير من علماء الأصول وأئمة الحديث فى تراثنا الحضارى بالآثار الفكرية التى عنيت بهذا المبحث الهام ، مبحث تقسيم السنة إلى ، تشريعية ، و ، غير تشريعية ، .. بل ومنهم من أفرده بالتأليف فى كتاب خاص .. وفى هذا المقام تكفى إشارتنا إلى اثنين من هؤلاء الأعلام :

* فالإمام القرافى : أبو العباس أحمد بن إدريس (٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م) : يجعل هذه القضية محور كتابه الهام (الإحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضى والإمام) .. وفيه يقسم السنة النبوية الشريفة إلى أقسام أربعة :

أولها : تصرفات الرسول ، بالرسالة ، أى بحكم كونه رسولا يبلغ رسالة ربه ويبشّر وينذر بوحي السماء .

وثانيها : تصرفات الرسول ، بالفتيا ، .. أى المتعلقة بالفتاوى التى يفسر بها غامض الوحي ويفصل بواسطتها مجمله .

وثالثها : تصرفات الرسول ، بالحكم ، أي القضاء .. وهي التي تتعلق بقضائه بين الناس في المنازعات التي يتحاكمون إليه للفصل فيها .

ورابعها : تصرفاته ، بالإمامة ، أي السياسة ، .. وتشمل كل أفعاله وأفعاله وإقراراته الخاصة بالدولة والسياسة في مختلف الميادين والمجالات .

وبعد هذا التقسيم يحدد الإمام القرافي أن القسمين : الأول والثاني من السنة (أي التصرفات بالرسالة ، وبالفتيا في الدين) هما تبليغ وشرع ، يدخلان في باب « الدين » .. أما القسم الثالث - (أي تصرفات الرسول بالحكم - القضاء) - فليست ديناً خائصاً ؛ إذ هي مغايرة لتصرفاته بالرسالة ، وبالفتيا الدينية .. وهي اجتهاد بشري يتوخى مقاصد الشريعة الإلهية .. ومن ثم يجب الوقوف بها عند محل ورودها ؛ لأن أحكامه فيها مترتبة على ما ظهر له ﷺ من البيانات التي حكم وقضى بناء عليها ووفقاً لها .

وكذلك الحال مع تصرفاته وسنته ﷺ في الإمامة ، التي هي رئاسته للدولة وسياسته لشئونها العامة والمتنوعة وفق المصلحة فيما هو مفوض إليه .. وفي هذا القسم تدخل الآثار والسفن والمأثورات التي تتحدث عن : قسمة الغنائم ، والتصرفات المالية المتعلقة بالأرض والزراعة والتجارة والحرف والصناعات وتجهيز الجيوش وتجهيزها وقتالها .. وكذلك عقد المعاهدات .. والأمور الإدارية المتعلقة بتعيين القادة والأمراء والولاة والقضاة والعمال .. الخ .. الخ . ففي هذين القسمين - (الثالث والرابع) - من أقسام السنة النبوية يتحقق الناسي والافتداء بالرسول وسنته بالتزامنا المبادئ والمعايير الكلية والمقاصد

والغايات التي حكمت تصرفات الرسول ﷺ في كل من « القضاء »
و« السياسة » .

فليس « الحكم والقضاء » ، وليست « السياسة » ، وشئون المجتمع السياسية ديناً
خالصاً وشرعاً إلهياً وبلاغاً عن السماء يجب فيه الالتزام بما في السنة النبوية
من وقائع وأوامر ونواهي وتطبيقات ؛ لأنها أمور تقرر بناء على « بينات » قد
يتبين غيرها ، وعالجت مصالح هي « بالضرورة » متطورة ومتغيرة .. وذلك
على عكس ما هو « دين » ، و« شرع » ، و« بلاغ » ، من هذه السنة النبوية الشريفة ،
مثل ما جاء منها متعلقاً بالرسالة والفتيا ، فإن الاتباع فيه واجب ديني ،
والتقيد بأحكامه ومقاديره ومواقفه وكيفية شرط لصحة إيمان المؤمن
بالإسلام (١) ..!

إن صحابة رسول الله لم يغيروا شيئاً من « سنته التشريعية » - (لأنها دين) -
.. بينما أعملوا رأيهم واجتهادهم في « سنته غير التشريعية » - (السياسية
والإدارية والاقتصادية .. الخ) - .. فوجدنا الولاة والعمال الذين ولاهم الرسول
وظائف الدولة ، كعمال على الأقاليم ، وجباة للأموال والصدقات ، وكسفراء
وكتاب ومترجمين ... الخ .. الخ .. وكذلك سنته في تنظيم الجيوش وأساليب
القتال وإدارة شؤون الدولة ... الخ .. الخ .. قد أصابهم وأصابها تغييرات
وتغييرات .. فكان ذلك شاهداً من شهود التمييز بين ما هو سياسة ودنيا وما هو
وحي ودين .. وكان - أيضاً - عاملاً حدد نطاق التأسي ومضمونه في السنة

(١) القرافي (الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضى والإمام) ص ٨٦

- ١٠٩ - تحقيق : الشيخ عبد الفتاح أبو غدة . طبعة حلب سنة ١٩٦٧ م .

النبوية .. ووجدنا أسلافنا من علماء الكلام والأصول يقررون : أن : التأسى
بالرسول ليس بواجب إلا في الشرعيات المخصوصة ، التي قد أمنا منه وقوع
الخطأ فيها ، دون غيرها .. (١) !

* وبعد الإمام القرافي أتى الفقيه المجدد ، والمجتهد الأصولي ، والإمام
المحدث :

ولي الله الدهلوي ، أحمد بن عبد الرحيم الفاروقي (١١١٠ - ١١٧٦ هـ
١٦٩٩ - ١٧٦٢ م) : ليقرر ذات الحقيقة وذات المبادئ في كتابه (حجة الله
البالغة) الذي قسم فيه السنة النبوية إلى قسمين :

أولهما : ما سبيله تبليغ الرسالة .. وفيه قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ
الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (٢) .. ويدخل في هذا القسم : علوم
الآخرة ، وعجائب الملكوت ، وشرائع وضبط العبادات .. وبعض هذه العلوم
وحي ، وبعضها اجتهاد جاء بناء على ما علمه الله من مقاصد الشرع ، فهو
بمنزلة الوحي ..

وثانيهما : ما ليس من باب تبليغ الرسالة .. وفيه قوله ﷺ : إنما أنا بشر ،
إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا
بشر ، وقوله في قصة تأبير النخل : فإني إنما ظننت ظناً ، ولا تواخذوني

(١) قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد (المعنى فى أبواب التوحيد والعدل) ج ١ ص
٢٨٦ . طبعة القاهرة .

(٢) الحشر : ٧ .

بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به ، فإنى لم أكذب على الله ، (١) ..

وفى هذا القسم تدخل علوم الدنيا : الطب ، والزراعة ، والصنائع ، والحرف وكل ما كان سنده ومصدره التجربة .. والأمور المتعلقة بالسياسة من كل ما يأمر به الخليفة ، فى الحرب والغنائم .. الخ .. الخ .. وكذلك أمور الدنيا لأنها مبنية على اليقينات والأيمان (٢) .

فكل ما خرج عن القسم الخاص بتبليغ الرسالة الدينية من السنة النبوية فليس بدين ، خالص ، وإنما هو : دنيا ، و : سياسة ، ، على العقل المسلم أن يتناول موضوعاتها ابتداء بالنظر والاجتهاد ، دونما تقيد بما روى فيها من النصوص والمأثورات . فقط عليه أن يلتزم المبادئ الحاكمة للنظر فى هذه الأمور ، فإن كان الأمر قضاء كان المعيار هو : البيئة واليمين .. وإن كان الأمر سياسة كان المعيار هو : تحقيق المصلحة للأمة ودفع الضرر والضرار عن جماهير المسلمين ..

هكذا كان عرض هذه القضية الهامة ، وذات الدلالة الكبرى ، فى أصول حضارتنا العربية الإسلامية ، ولدى علماء الأصول .. وهكذا كان وضوحها .. وعلى هذا النحو كان حسمها .. وهو حسم ووضوح نعتقد أنهما لا يحتاجان إلى مزيد .

(١) رواه مسلم وابن حنبل .

(٢) (حجة الله البالغة) ج ١ ص ١٢٨ ، ١٢٩ طبعة القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .

ولقد انعكس هذا الموقف - موقف - التمييز - بين - الدين - ، و - الدولة - ، لا
الفصل - ولا - الوحدة - ، بما يعنيه من رفض - العلمانية - رفضه - للدولة
الدينية - (الثيوقراطية) - . انعكس هذا الموقف في الفكر السياسي الذي ساد
لدى التيارات الرئيسية والعريضة في حضارتنا العربية الإسلامية ، والذي
أصبح فيه كثر من عدا الشيعة من المذاهب والفرق والتيارات ..

* فاء - تنزلة : يدافعون عن هذا الموقف عندما يقولون : بمدينة - السلطة
السياسية في الدولة الإسلامية .. وهي طبيعة مدنية ، نابعة من الطبيعة
المدنية ، لمهام صاحب هذه السلطة ؛ لأنه - أي الخليفة والإمام ورأس الدولة -
إنما يختاره أهل الاختيار وينصبونه - في الأساس - لمصالح الدنيا ، لا لمصالح
الدين ... ، فما يأتيه الإمام ويقوم به من مصالح الدنيا ؛ لأنه ليس فيها - (أي
في تصرفاته ومهامه) - إلا اجتلاب نفع عاجل أو دفع ضرر عاجل ، دون
الثواب والعقاب .. فخطؤه لا يؤدي إلى فساد في الدين ، كما لا يؤدي الخطأ
في سائر ما يتعلق بالمأكل والمشرب إلى فساد في الدين .. (١) .

* والأشعرية : يقولون بهذا الموقف ، ويلتزمونه ، عندما يتفقون مع
المعتزلة على أن الإمامة - أي السلطة السياسية - و الدولة ، ليست أصلاً من
أصول الدين .. فهي - ليست من أصول الاعتقاد (٢) .. وليست من أصول

(١) القاضي عبد الجبار بن أحمد (المغنى في أبواب التوحيد والعدل) ج ٢٠ ق ١ ص
٧٧ ، طبعة القاهرة .

(٢) الشهرستاني (نهاية الإقدام في علم الكلام) ص ٤٧٨ . تحقيق جيوم . طبعة
مصورة ، بدون تاريخ

والسياسة : ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى
 الصلاح ، وأبعد عن الفساد ، وإن لم يشرعه الرسول ولا نزل به وحى .. إن
 الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، فإذا ظهرت أمارات الحق ،
 وقامت أدلة العدل ، وأسفر صبحه بأى طريق فثم شرع الله ورضاه وأمره ...
 والله - تعالى - لم يحصر طرق العدل وأدلته وأماراته فى نوع واحد وأبطل غيره
 من الطرق ... بل بين أن مقصوده إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط؛
 فأى طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها .
 والطرق أسباب ووسائل ، لا تراد لذواتها ، وإنما المراد غايتها التى هى
 المقاصد ، ولكنه نبه بما شرعه من الطرق على أسبابها وأماليها .. ولا نقول :
 إن السياسة العادلة مخالفة للشريعة الكاملة ، بل هى جزء من أجزائها وباب من
 أبوابها ، ونسميتها سياسة أمر اصطلاحى ، فإذا كانت عدلا فهى من
 الشرع .. (١) .

هكذا ، ميزت ، حضارتنا العربية الإسلامية بين الدين ، وبين الدولة ،
 فلم تقل تياراتها الفكرية الأساسية ، بالطبيعة الدينية ، (الثيوقراطية) السلطة
 السياسية وأهلها ، ولا بوحدة السلطتين : الدينية ، والزمنية ... كما لم تقل هذه
 التيارات الفكرية - التى مثل فكرها قسما هذه الحضارة - «فصل ، الدين ،
 عن الدولة على نحو ما صنعت التيارات العلمانية ، فى الحضارة الغربية -

(١) ابن قيم الجوزية (أعلام الموقعين) ج ٣ ص ٣ ، ج ٤ ص ٣٧٢ ، ٣٧٣ . طبعة
 بيروت سنة ١٩٧٣ م .

ذلك لأن بدءنا الحضارى قد نشأ وتبلور وازدهر فى ظل «الإسلام : الدين» ،
ذلك الذى تم يعرف «الكهانة» ولا «الكهنوت» ، وقداسة البشر والمؤسسات
والحكومات .. وفى ذات الوقت فإنه لم يدر ظهره لسياسة الدولة والمجتمع ،
فيدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ... وإنما برىء من هذا الانشطار ، واتخذ
النهج الوسطى الإسلامى سبيلا للتأليف بين ما يمكن ويجب التأليف بينه من
عناصر وأقطاب «الدين» و «الدولة» ، فأقام بينهما العلاقات ، مع التمييز
بينهما فى ظل قيام هذه العلاقات 1..

إن الذين لا يبصرون فى «الإسلام : الدين» وفى «الإسلام : الحضارة»
هذا الموقف الواضح والمحدد والحاسم هم الذين تم يفقهوا مقاصد الإسلام
وغايات شريعته ، تلك التى جعلت «مصلحة» الأمة هى معيار الصواب
والخطأ والنفع والضرر فى السياسة والدولة والمجتمع ، بل وجعلت المرجع
الأول فى حسن الأمور وقبحها - ومن ثم ، وتبعاً لذلك - رضا الله أو سخطه
عليها ، هو لجماعة المسلمين .. فمارأه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن 2..
وما الذين يزعمون أن الإسلام مع «الطبيعة الدينية» (الشيوقراطية)
للسلطة السياسية إلا معقدون لتديانات التى انحرفت إلى هذا الفكر الغريب عن
نهج الإسلام .

وما الذين يرون ذلك فيسمعون إلى عزل الإسلام وشريعته عن الحياة
السياسية «بالعلمانية» ، إلا كمن يفعل مشكلة ثم يستعير لها الحلول 3..
وإذا كانت التيارات الفكرية الرئيسية التى أبدعت فى حضارتنا فكر الإسلام
السياسى ، قد التزمت - كما أسلفنا - هذه القاعدة .. فقالت «بمدنية» الدولة ،

مع « إسلاميتها » ، دون أن تكون « دينية » - (ثيوقراطية) ولا « علمانية » ،
ينعزل فيها « الدين » عن « الدولة » .. فإن أفراد الشيعة بمخالفة هذه القاعدة
هو شاهد على ثبوتها ؟ ..

لقد عرف تاريخنا الميأسي ذلك الصراع العنيف والدموي والمأساوي بين
الدولة الأموية وبين المعارضة الشيعية ، وبلغ اضطهاد بني أمية للشيعة حد
المأساة ، الأمر الذي دفع الشيعة إلى رفض هذه الدولة الأموية ، بل والكفر
بسلطانها البشرية ، ثم أخذت - كفرقة مستضعفة - تحلم بسلطة إلهية ، صنعها الله
على عبده ، وهو مصدر الوصية بها ، والتعيين لأئمتها ، ولا مدخل للبشر في
اختيار هؤلاء الأئمة المعصومين ! ..

ذهبت الشيعة - وحدها من بين تيارات الفكر الإسلامي - هذا المذهب ،
فقالت - عمليا ، ورغم اختلاف الدوافع والغايات - بمثل ما قالت به الكنيسة
الكاثوليكية في أوروبا العصور الوسطى من قداسة صاحب المِلطة ، وخلافته
ونائبته عن الله لا الأمة ، وعصمته دون الأمة ، وجعله مصدر الدين والقيم
عليه ، وارتفاعه عن مستويات المراقبة أو المحاسبة ، فضلا عن المؤاخذه
والتخيير من قبل الرعية والمحكومين ! .. فإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية قد
عرفت « رجل الدين » و « الأكليروس » والمؤسسات المقدسة ، فإن الشيعة قد
عرفت نحو من هؤلاء الوسطاء « آيات الله » .. وحجج للإسلام .. و « مراجع »
كونوا « طبقة دينية » تنوب عن الإمام الغائب ، وتملك سلطانه وسلطانته التي
زادت - في فكرهم - عن سلطات الرسل والأنبياء ! ..

هنا مثلت الشيعة ، النتوء ، الذي خرج عن ، القاعدة ، التي التزمتم بها سائر تيارات الفكر الإسلامى ، وهو خروج يثبت ، القاعدة ، ولا ينقصها ؟!.. لقد رأوا فى ، الإمامة ، - وهى ، الولاية - ، والدولة والرئاسة السياسية جزء منها :

* أصلا من أصول الدين ، لا يتم الإيمان إلا بالاعتقاد بها... (١) .. بل قالوا : إنها أدخل فى أصول الدين وأؤكد فى أركانه من معرفة الله ، ومن عدله ، ومن نبوة أنبيائه .. فهى - عندهم - من قواعد الإيمان الخمسة - الشاملة لقواعد الإسلام - :

١ - المعرفة : بما فيها الصفات الثبوتية والسلبية .

٢ - التصديق : بالعدل والحكمة .

٣ - التصديق : بنبوة محمد ، وجميع ما جاء به .

٤ - التصديق : بإمامة الأئمة الاثنى عشر ، وما جاءوا به .

٥ - التصديق : بالمعاد الجسمانى .

وهم يجعلون القواعد ، الثلاثة الأولى خاصة بالإسلام ، والأخيرتين من امتياز الإيمان .. (٢) .

(١) محمد رضا المظفر (عقائد الإمامية) ص ٦٥ . طبعة النجف - دار النعمان .
 (٢) أبو جعفر الطوسى (تلخيص الشافى) ج ١ ق ١ ص ٩١ (هامش) ، وص ٥٩ ، ٦٠ .
 تحقيق السيد حسين بحر العلوم - طبعة النجف سنة ١٣٨٣ - سنة ١٣٨٤ هـ .
 وأبو حنيفة النعمان المغربي (دعائم الإسلام) ج ١ ص ٢ ، ١٣ - تحقيق آصف بن على أصغر فيضى - طبعة القاهرة - سنة ١٩٦٩ م .

* وهم يقيسون « الإمامة » على « النبوة » ، ويقررون « العصمة » لصاحبها ، الأمر الذي يجعل « سياستها » ديناً خالصاً .. فيقولون : إننا « نعتقد أن الإمامة كالنبوة .. وحكمها حكم النبوة ، بلا فرق .. » (١) ولذلك ، فإن دفع الإمامة كفر ، كما أن دفع النبوة كفر ؛ لأن الجهل بهما على حد واحد .. لأن منطلق الإمامة هو منطلق النبوة ، والهدف الذي لأجله وجبت النبوة هو نفس الهدف الذي من أجله تجب الإمامة ، وكما أن النبوة لطف من الله كذلك الإمامة ، واللحظة الحاسمة التي انبثقت بها النبوة .. وهي يوم الدار - (عندما جمع النبي عشيرته ودعاهم للإسلام) - هي نفسها اللحظة التي انبثقت بها الإمامة .. واستمرت الدعوة ذات لسانين : النبوة ، والإمامة ، في حده واحد ...

بل لقد رفعوا شأن « الإمامة » على « النبوة » ، عندما قالوا : .. ولقد امتازت الإمامة على النبوة بأنها استمرت بأداء الرسالة بعد انتهاء دور النبوة .. فالنبوة لطف خاص ، والإمامة لطف عام .. (٢) .

* والأئمة ، عند الشيعة ، معينون من السماء ، بالنص والوصية ، من الله لرسوله .. وهذا التعيين جزء من « رسالة » الرسول ، أمر بإيلاغه للناس .. ووصولاً إلى هذا المعنى فسروا قول الله - سبحانه - لرسوله ، في القرآن :

(١) عقائد الإمامية ص ٧٤ .

(٢) (تلخيص الشافعي) ج ٤ ص ١٣١ ، ١٣٢ . والشريف المرئضي (مجموع من كلام السيد المرئضي) اللوحة ٦٣ . مخطوط بالمكتبة النيمورية . دار الكتب المصرية .

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (١)

(١) بأن معناه ، بين لتابعيك .. من القائم بعدك - (الإمام) .. وإن لم تفعل فكأنك ماقت بالأمر على وجهه ... !

* فالسياسة .. عند أصحاب نظرية الإمامة الشيعية - مقدسة ؛ لأنها دين خالص ، وذلك لأن مصدرها - الإمام - له عصمة الأنبياء ، إذ ، يجب أن يكون الواسطة بين الله تعالى وبين خلقه - نبيا كان أو إماما - معصوما ... (٢).

إنها ، الكيانة ، - في الواقع والجوهر - .. لأن مصدر السياسة - الإمام - واسطة بين الله وبين خلقه ، .. وهو ، معصوم ، من الخطأ ، وحده ، دون الأمة .. والله هو الذي يختاره ، دون البشر الذين ، ليس لهم حق في تعيينه أو ترشيحه أو انتخابه ؛ لأن الشخص الذي له من نفسه القدسية استعداد لتحمل أعباء الإمامة العامة وهداية البشر فاطبة يجب ألا يعرف إلا بتعريف الله ولا يعين إلا بتعيينه ؛ ولذلك فليس للناس أن يتحكموا فيمن يعينه الله ... ! (٣).

* ولقد استمرت أفكار الشيعة هذه عن الإمامة ، حتى أياها الآن في نظرية قائد الثورة الإيرانية آية الله الخميني عن ، عموم ولاية الفقيه ، النائب عن الإمام الغائب ، والمالك لسلطانه ..

(١) المائدة : ٦٧ .

(٢) (تلخيص الشافي) ج ١ ق ١ ص ٢٠١ .

(٣) (عقائد الإمامية) ص ٧٤ .

فلالإمام - عند الخميني ، كما عند عموم الشيعة - مقام يعلو مقام الملائكة والرسول والأنبياء ... وبعبارة ، يقول الخميني : « إن ثبوت الولاية والحاكمية للإمام لا تعني تجرده من منزلته التي هي له عند الله ، ولا تجعله مثل من عداه من الحكام . فإن للإمام مقاما محمودا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون ؟ وإن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ! وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم والأئمة كانوا قبل هذا العالم أنوارا ، فجعلهم الله بعرشه محققين ، وجعل لهم من المنزلة والنزقى ما لا يعلمه إلا الله ... » (١) .

وعوموم ولاية الفقيه تعطى هذا الفقيه العادل كل سلطات هذا الإمام .. ولذلك وجدنا الإمام الخميني يميز بين ما هو « سلطة حقيقية » في الدولة ، وبين « الأمور التنظيمية » في الوظائف والإدارة بجهاز الدولة .. ثم يقرر أن السلطة - كل السلطة - للفقهاء ورجال الدين الذين يمكنهم أن يستعينوا في الأمور التنظيمية ، بمن عدا الفقهاء من ذوي الاختصاص ، وأن ذوي الاختصاص هؤلاء ، مهما بلغ علمهم في علوم الدنيا ، فإنه لا سلطان لهم في الحكومة الإسلامية ، وما هم إلا ، عمال ، عند الفقهاء ..

فالمطلوب - عند الخميني - هو : « تشكيل حكومة إسلامية يقودها الفقهاء العدول .. وعليها أن تستفيد من ذوي الاختصاص العلمي والفني فيما يتعلق بالأعمال الإدارية والإحصائية والتنظيمية ، وأما ما يتعلق بالإدارة العليا

(١) الإمام الخميني (الحكومة الإسلامية) ص ٥٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

للدولة ، ويشئون بسط العدالة ، وتوفير الأمن وإقرار الروابط الاجتماعية
العادلة ، والقضاء والحكم بين الناس بالعدل ، فذلك ما يختص به الفقيه .. إن
تولى الفقيه لأمر الناس هو انصياح لأمر الله ، وأداء للوظيفة الشرعية الواجبة
.. والحكومة في الإسلام تعنى : اتباع القانون ، وتحكمه ، والسلطات الموجودة
عند النبي ﷺ وولاية الأمر الشرعيين من بعده إنما هي مستمدة من الله ..
والفقيهاء العدول هم وحدهم المؤهلون لتنفيذ أحكام الإسلام وإقرار نظمته ، وإقامة
حدود الله ، وحراسة ثغور المسلمين ، لقد فوض إليهم الأنبياء جميع ما فوض
إليهم ، وانتموهم على ما ائتمنوا عليه .. وبما أن حكومة الإسلام هي حكومة
القانون ، فالفقيه هو المنصدي لأمر الحكومة لا غير ، هو ينهض بكل ما نهض
به الرسول ﷺ ، لا يزيد ولا ينقص ... إن الفقههاء هم أوصياء الرسول ﷺ من
بعد الأئمة ، في حال غيابهم ، وقد كفوا بالقيام بجميع ما كلف الأئمة بالقيام
به .. إن الفقيه هو : وصي النبي ، وفي عصر الغيبة يكون هو إمام المسلمين
وقائدهم ، والقاضي بينهم بالنقض ، دون سواه ... إن حجة الله تعالى أن الإمام
مرجع للناس في جميع الأمور ، والله قد عينه ، وأناط به كل تصرف وتدبير
وكذلك الفقههاء .. فالفقههاء اليوم هم الحجة على الناس ، كما كان الرسول ﷺ
حجة الله عليهم ، وكل ما كان يناط بالنبي فقد أناطه الأئمة بالفقههاء من بعدهم
فهم المرجع في جميع الأمور والمشكلات والمعضلات ، وإليهم قد فوضت
الحكومة وولاية الناس وسياساتهم والجباية والإنفاق ، وكل من يتخلف عن
طاعتهم فإن الله يؤاخذهم ويحاسبه على ذلك .. وإذا كان الشخص يعلم الكثير
عن الطبيعة وأسرارها ، ويحسن الكثير من الفنون ، ولكنه يجهل القانون ، فليس

علمه ذلك مؤهلاً إياه للخلافة ، ومقدماً إياه على غيره ممن يعلم القانون ويعمل بالعدل ... ومن المسلم به : « الفقهاء حكام على الملوك » .. فالحكام الحقيقيون هم الفقهاء ، والسلاطين مجرد عمال لهم !.. وإذا نهض بأمر تشكيل الحكومة فقيه عالم عادل ، فإنه يلي من أمور المجتمع ما كان يليه النبي ﷺ منهم ، ووجب على الناس أن يسمعوا له ويطيعوا . ويمتلك هذا الحاكم من أمر الإدارة والرعاية والسياسة للناس ما كان يملكه الرسول وأمير المؤمنين . عليه السلام .. فإنه جعل الرسول ولياً للمؤمنين جميعاً ، ومن بعده كان الإمام ولياً ، ومعنى ولايتهما أن أوامرهما الشرعية نافذة في الجميع ، وإليهما يرجع تعيين القضاة والولاة ، ومراقبتهم وعزلهم ! إذا اقتضى الأمر . ونفس هذه الولاية والحاكمية موجودة لدى الفقيه .. فالقيم على الشعب بأسره لا تختلف مهمته عن القيم على الصغار إلامن ناحية الكمية! .. (١) .

تلك هي نظرية الإمامة الشيعية ، قديماً .. وهذه هي صورتها الحديثة كما تمثلت في : عصوم ولاية الفقيه ، عند الإمام الخميني ... وهذا الفكر ، هو الذي وضعته الثورة الإيرانية - بعد انتصارها سنة ١٩٧٩ م - في التطبيق ، عندما فننته ، الدستور الإسلامي لجمهورية إيران الإسلامية ، الصادر في ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٩٩ هـ / ١٥ نوفمبر سنة ١٩٧٩ م - فقرراً ، وصاية الفقهاء ، على الأمة ، وانفرادهم بالسلطة العليا في الدولة ، وهيمنتهم وحدهم على أجهزة القرار والتنفيذ بشئون الحكم ، سلماً كانت أو حرباً ..

(١) المرجع السابق . ص ١٤٩ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٥٤ ، ٤٣ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٥٦ ، ٤٩ ، ٥١ .

فولاية الله العظمى - الإمام الخميني - ، ولاية الأمر ، وكافة المسؤوليات الناشئة عنها ... ، إذ هو القائد .. وفي حالة غيابه يتكون (مجلس القيادة) من ثلاثة أو خمسة من الفقهاء المجتهدين ، المراجع ، (١) .

* والمحافظة على الدستور بقولها مجلس من الفقهاء يعينهم ، الإمام الرضي :

* ولإمام الرضي سلطات : تعيين رأس الجهاز القضائي .. والقيادة العامة للقوات المسلحة ، بحيث يكون من صفه وحده التعيين والعزل لرئيس أركان الجيش ، والقائد العام لحرس الثورة ، وتشكيل مجلس الدفاع الوطني الأعلى ، وتعيين وعزل قادة القوات الثلاث بالجيش ، وإعلان الحرب والسلام ، والتعبئة العسكرية ، واعتماد نتيجة انتخاب رئيس الجمهورية ، وحق عزله ، وتقرير صلاحية المرشحين لمنصبه .. (٢) .

فبالإضافة إلى هذا النموذج من نماذج الفكر السياسي نظرية ، الحكم بالحق الإلهي ، كما عرفت في أوروبا الكاثوليكية في عصورها الوسطى .. فإن الواجب يحتم علينا أن نؤكد على خصوصية هذا الفكر واختصاصه بالشريعة ، دون سائر فرق الإسلام وتياراته الفكرية .. فهو لا يمثل قسمة من قسومات الفكر السياسي العام لحضارتنا الإسلامية ، فضلاً عن أنه - جغرافياً - خارج عن إطار أمتنا العربية مرفوض من مذاهبها الفكرية السائدة .. فلم ولن يكون مبرراً للدعوة

(١) (الدستور الإسلامي لجمهورية إيران الإسلامية) المادة ١٠٧ . طبعة مؤسسة الشهيد .

إيران - قم سنة ١٩٧٩ م .

(٢) المصدر السابق . المادة ١١٠ .

«العلمانية» - في واقعنا الإسلامي - على النحو الذي كان عليه الأمر في أوروبا
«الكهانة» .. والحكم بالحق الإلهي ، في العصور الوسطى ..!

بل إننا واجدون من جمهور الشيعة من ينظر إلى تراث المذهب في الإمامة
نظرته إلى الموروث الذي يجب إخضاعه للنظر الناقد ... ومن جمهورها - بل
ومجتهديها - من يرفض « عموم ولاية الفقيه » ..!

فرغم هذه الصفحة المعترضة - من كتاب التراث القديم - يظل إبداع
حضارتنا في الفكر السياسي خالياً من المبررات التي تستدعي « العلمانية »
كحل طبيعي لما في فكرنا وواقعنا من مشكلات .

وكما مثلت نظرية الشيعة في « الإمامة - الإلهية - المعصومة » خروجاً على
سياق الفكر السياسي العام والغالب في حضارتنا العربية الإسلامية .. بدأت
رفضاً مشروعاً وثورياً لسلطة بشرية ظالمة ، لكنها بدلاً من أن تنصدي لهذه
السلطة البشرية الخائفة بالآمة ، تفوقعت وحلت بالمخلص المعصوم ، الذي
صنعه الله على عبده ، والذي سيأتي ليملأ الأرض عدلاً بعد أن طفحت
بالجور! .. ثم هاهي قد استقرت ، كخصوصية - شيعية - فارسية ، تحت عنوان
« عموم ولاية الفقيه » مرفوضة من جمهور المسلمين ، بل ومن قطاع متنامي
في صفوف الشيعة الاثني عشرية ذاتها ...

كما مثلت هذه النظرية تنوعاً غير إسلامي - بالمعنى السياسي - وغير عربي
- بالمعنى القومي - كذلك عرفت الحياة الفكرية الإسلامية يميذان مبحث طبيعة
السلطة السياسية للدولة الإسلامية ، شبهة حكومة دينية ودولة دينية ، صاغها

أنصارها تحت عنوان « نظرية الحاكمية » ؟! .. وشاع في ذهن العامة من شباب الحركات الإسلامية المغالية ، وفي كتابات عدد من الذين يتناولون الفكر السياسي للإسلام بجمود جعلهم يتعبدون بظواهر النصوص ، أو يعواطف تنحي العقل والعقلانية عن مكانهما الرائد والقائد في البحث والنظر والتفكير ... شاع في ذهن أولئك وفي كتابات هؤلاء أن « الحاكمية » تعنى : عداة الإسلام لأن تكون الأمة الإسلامية مصدر السلطة والسلطان في سياسة الدولة وتنظيم المجتمع وتنمية العمران ؛ لأن السلطة - كل السلطة - في هذه الأمور الدنيوية هي لله وحده ، تشريعاً وتنفيذاً ، كما هو الحال مع سلطان الله فيما هو وضع إلهي ووحى سماوي من أركان الدين وأصول العقائد ومناسك العبادات ... ولقد غدت نظرية « الحاكمية » هذه سبيلاً لافتعال التناقض بين أن تكون الدولة إسلامية وبين الاعتراف بالأمة كمصدر للسلطات ، وأصبحت عذراً يبرر به قطاع من الحركة الفكرية والسياسية - بالحق حيناً وبالباطل حيناً - الدعوة إلى « العلمانية » ، باعتبارها طوق النجاة من « الحاكمية » التي بدت صورة حديثة للثيوقراطية الكنسية الغربية ، ولنظرية الإمامة الشيعية .. ولذلك كان لزاماً علينا ، ونحن ننفي مبررات « العلمانية » ، بإقامة الأدلة على خلو فكرنا السياسي الإسلامي من « الكهانة » ، و « الثيوقراطية » ، و « السلطة الدينية » التي نفرزها ، كنفية - وتستند عليها كحل لمثل هذا المشكل ... كان لزاماً علينا أن نتناول قصة فكرنا السياسي الإسلامي مع نظرية « الحاكمية » ؛ لنرى كيف بدأت شذوذاً عن المسار الطبيعي لفكر الإسلام السياسي ... ثم اختفت ... فلما بعثت من جديد كانت مجرد « شبهة حكومة دينية » ، صيغت في ملابس

غير عربية .. وأن استعارتها وتجربتها من الملابس الخاصة التي صيغت فيها ، ثم توظيفها في إطار الأمة العربية الإسلامية هو أشبه ما يكون باستعارة « الفيو قراطية الكاثوليكية » أو « ولاية الفقيه الشيعية الفارسية » ، وإقحامهما في محيطنا العربي الإسلامي الرافض لهما بحكم حقائق الفكر السائد ووقائع التاريخ وطبيعة المسيرة الحضارية !..

* لقد بدأت قصة أمتنا وحضارتنا مع مضمون « الحاكمية » وشعارها عندما رفض « الخوارج » الأولون - وكان جمهورهم من شباب القراء المنتسكين - سلطة كل من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (٢٣ ق . هـ - ٤٠ هـ / ٦٠٠ م) بعد معاوية بن أبي سفيان (٢٠ ق . هـ - ٦٠ هـ / ٦٠٣ - ٦٨٠ م) بعد اتفاقهما على التحكيم في النزاع السياسي الناشب بينهما ، والذي استقطب جمهور الأمة للقتال في معركة صفين (٣٧ هـ / ٦٥٧ م) .. رفض الخوارج هذه السلطة انبشيرية ، ثم رأوا الأمة قد استقطبت وراء رموز هذه السلطة البشيرية ، فقالوا - في سذاجة المتأول - إن الحكم والسلطة والسلطان - حتى في شؤون السياسة والحرب - لله وحده .. وهو قد حكم بأن معاوية ومن معه هم الفئة الباغية ، وقالها وأجب بقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (١) .. ثم ذهبوا - انطلاقاً من فكرة « حاكمية الله » وحده

(١) الحجرات : ٩ .

في هذه القضية الدنيوية وأمثالها ، إلى رفض مبدأ تحكيم البشر وإعطائهم أية سلطة أو سلطان فيما حكم فيه الله ، غير مميزين ولا مفرقين بين ثوابت الدين ، التي انفرد الله بها كخارج وحيد ، وبين شئون الدنيا التي استخلف الله فيها الإنسان حاكماً في إطار الشريعة ومقاصدها وحدودها .. فصاحوا صيحتهم الشهيرة : « لا حكم إلا لله » .. حتى لقد سموا « المحكّمة » ١٩ ..

ومنذ تلك اللحظة أدرك على بن أبي طالب فساد هذا التأويل الخارجي .. فالحكم لله : كلمة حق ، عندما يكون التشريع ، ديناً ، أما عندما تكون بإزاء الدنيا والسياسة ، فالحكم للإنسان وللأمة ، على طريق الدين .. ولذلك كان تعليقه على قول الخوارج : « لا حكم إلا لله » هو قوله : « إنها كلمة حق يراد بها باطل » !! نعم ، لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون : لا إمرة إلا لله ، وإنه لا بد للناس من أمير ، بر أو فاجر ٢٠ .. (١) .

ثم مضت السنوات .. وتوالى الأحداث .. وتبدلت المواقف .. فتدخل الخوارج عن هذا التأويل الفاسد .. وقالوا : كما سبقت إشارتنا - بأن الإمامة مستخرجة من « الرأي » وليس من الكتاب والسنة .. على حين قالت الشيعة - خصوصاً الخوارج - « بالإمامة - الإلهية - المعصومة » !! .. واختفى شعار الحاكمية من فكرنا وتاريخنا قرابة أربعة عشر قرناً ! ..

* ثم جاء الأستاذ أبو الأعلى المودودي (١٣٢١ - ١٣٩٩ هـ / ١٩٠٣ - ١٩٧٩ م) منذ أكثر من نصف قرن فبعث هذا الشعار وأحيا هذه الدعوة التي

(١) الإمام على بن أبي طالب (نهج البلاغة) ص ٦٥ طبعة دار الشعب - القاهرة .

بداها ، الخوارج ، في صدر الإسلام عندما أعلنوا أنه : (لا حكم إلا لله !) ...
وقيل : إن الرجل قد شدد على اختصاص الحاكمية بالله .. « الحاكمية القانونية »
أي حاكمية التشريع .. و « الحاكمية السياسية » ، أي حاكمية التنفيذ .. ونفى
أن يكون لبشر - فردا كان أو حزبا أو طبقة أو شعبا - أي حق ، ولو جزئي ، في
هذه « الحاكمية الإلهية » ، ... ولما كانت « الديمقراطية » - كما هي في الغرب
.. وكما تحدث عنها الرجل - هي « حاكمية الجماهير » فلقد رفضها الرجل كل
الرفض ، وعادها كل العداة ! ..

قيل هذا عن المودودي ، وتثبت به مقالده الكثيرون ، وسيقت عليه شواهد
من نصوص الرجل من مثل قوله : « إن وجهة نظر العقيدة الإسلامية تقول :
إن الحق تعالى وحده هو الحاكم بذاته وأصله ، وأن حكم سواء موهوب
وممنوح ... (١) وإن أي شخص - أو جماعة - يدعى لنفسه أو لغيره حاكمية
كلية أو جزئية ، في ظل هذا النظام ، هو - ولا ريب - سادر في الإفك والزور
والبهتان المبين ... فالله معبود بالمعاني الدينية ، وسلطان حاكم بالمعاني
السياسية والاجتماعية ... وهو لم يهب أحدا حق تنفيذ حكمه في خلقه .. إن
الإنسان لا حظ له من الحاكمية إطلاقاً (٢) وأن الأساس الذي ارتكزت عليه
دعامه النظرية السياسية في الإسلام أن تنزع جميع سلطات powers الأمر
والتشريع من أيدي البشر ، منفردين ومجتمعين ، ولا يؤذن لواحد منهم أن
ينفذ أمره في بشر مثله فيطيعوه ، أو ليس قانونا فينقادوا له ويتبعوه ، فإن ذلك

(١) (الحكومة الإسلامية) ص ٨١ ، ٨٢ مطبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

(٢) المرجع السابق ص ٧٠ ، ٧٣ .

أمر مختص بالله وحده ، لا يشاركه فيه أحد غيره ، كما قال هو في كتابه :
﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (١) ...
فالخصائص الأولية للدولة الإسلامية ثلاث :

١ - ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أو لسانر القاطنين في الدولة نصيب من الحاكمية ، فإن الحاكم الحقيقي هو الله ، والسلطة الحقيقية مختصة بذاته تعالى وحده . والذين من دونه في هذه المعمورة إنما هم رعايا في سلطانه العظيم .

٢ - ليس لأحد من دون الله شيء من أمر التشريع ، والمسلمون جميعا - ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا - لا يستطيعون أن يشرعوا قانونا ، ولا يقدرّون أن يغيروا شيئا مما شرع الله لهم .

٣ - إن الدولة الإسلامية لا يؤسس بنيانها إلا على ذلك القانون المشرع الذي جاء به النبي من عند ربه ، مهما تخيرت الظروف والأحوال ، والحكومات Government التي بيدها زمام هذه الدولة state لا تستحق طاعة الناس إلا من حيث إنها تحكم بما أنزل الله وتنفذ أمره تعالى في خلقه ... (٢)

وأن وضعية الدولة الإسلامية : أنها ليست ديمقراطية Democracy فإن الديمقراطية عبارة عن منهاج للحكم تكون السلطة فيه للشعب جميعا ... وهي ليست من الإسلام في شيء ، فلا يصح إطلاق كلمة الديمقراطية على نظام

(١) يوسف : ٤٠ .

(٢) (نظرية الإسلام السياسية) ص ٣١ - ٣٣ . طبعة بيروت - ضمن مجموعة عنونها
« نظرية الإسلام وهديه » - سنة ١٩٦٩ م .

الدولة الإسلامية ... (١) .

نعم .. لقد قال الأستاذ المودودي ذلك .. ومثله كثير !... ونحن نعتزف أن كلماته هذه من الممكن أن يؤدي اجتزائها ، وغياب وضعها إلى جوار غيرها من التي عرض فيها لذات القضية ، وأيضاً غياب المعنى المحدد لما عنده الرجل من ، الحاكمية ، وما كتبه عن ، الخلافة الإنسانية ، عن الله في الأرض ... إن غياب ذلك من الممكن أن يوهم - وهو قد أوهم الكثيرين - أن الرجل عدو للديمقراطية ؛ لأن الحاكمية تعني تجريد الإنسان من كل سلطات التشريع والتنفيذ ..

لكن لنبدأ أولاً بتحديد معنى المصطلحات عند الرجل :

* إن معنى كلمة ، الحاكمية ، عنده هي : ، السلطة العليا ... والمطلقة ، .. فهي ليست السلطة ، العليا ، فقط .. بل ، المطلقة ، أيضاً .. إنها لا تطلق إلا على الـ (فعال لما يريد) والذي (لا يسأل عما يفعل) .. (٢) .

* ومعنى كلمة ، الديمقراطية ، - في الحضارة الغربية - هي : ، حاكمية الجماهير ... وسيادتها المطلقة من كل قيد ، سوى ما تصنعه الجماهير لنفسها .. أي أن للجماهير السلطة العليا ، والمطلقة ..

(١) المرجع السابق . ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) (تدوين الدستور) ص ٢٥٦ ، ٢٥٣ . ترجمة محمد عاصم الحداة . طبعة بيروت سنة ١٣٨٩ هـ / سنة ١٩٦٩ م . ضمن مجموعة عنواها ، نظرية الإسلام وهدية في السياسة والقانون .

والآن نكتفى بأن نسأل ... (١) .. هل يدعى مسلم - مهما بلغ إيمانه بالديمقراطية - أن الجماهير يجب أن تكون - في ديمقراطيتنا - مطلقة السلطة ، فلا تسأل عما تفعل ؟ وتفعل ما تريد ؟ حتى لو أخلت الحرام وحرمت الحلال الثابت دلالة وورودا عن الله سبحانه وتعالى ؟؟؟ أم أن سلطة الجماهير وسلطان الأمة وسلطاتها يجب أن تقيد بما قطع فيه الله بالشرع ، فهي حرة داخل الإطار الإلهي ؟ ..

وبعد هذا التساؤل .. لنواصل عرض الفكر المتكامل للأسناد المودودي ... إن الرجل ثم يقل بوجود تشريع إلهي كامل لما هو قائم وما يستجد من القضايا والمشكلات ، حتى يمكن أن يتصور أنه يجرد الإنسان من كل حق في التشريع والتفكير ، كما توهم بعض نصوصه المجترأة ... بل الرجل يقول : إن مجالس الشورى أو البرلمانات لا يباح لها أن تسن نظاما أو تصدر حكما فيما ورد فيه نص صريح واضح في شريعة الله ... أما ما لم يرد فيه نص شرعي - وهو المجال الأوسع - فلأهل الحل والعقد أن يجتهدوا في سن الأنظمة التي تحقق مصلحة الأمة بالمشورة المتبادلة .. على أن تكون منسجمة مع الإطار العام لأسس الشريعة ... (٢) .

إذن قلب بشر أن يسنوا القوانين والنظم فيما لا نص فيه .. وهو المجال الأوسع ! ... بل إن المودودي يسمي هذه السلطة التي تمارسها مجالس الشورى والبرلمانات ، يسميها : حاكمية ، ؟ .. وذلك عندما يذهب لإبداع تعريف

(١) (الإسلام والمدنية الحديثة) ص ٣٦ ، ٣٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م .

(٢) (المرجع السابق - ص ٤٠ .

للحكومة الإسلامية ، والتي يراها إلهية ، أي ، ثيوقراطية ، Theo-cracy لأن صاحب السلطة المطلقة والعليا في التشريع لمجتمعها هو الله .. ولكنها ليست ثيوقراطية الغرب الكنسية التي تتحكم فيها طبقة الكهنة priest class .. لأنها في الإسلام أيضا ديمقراطية Democracy لأن الإسلام قد أقر ، نيابة الشعب واستخلافه عن الله في ظل سيادة الله وحاكميته .. فالحكومة الإسلامية نذلك هي . عند المودودي : ، « الثيوقراطية ، أو الحكومة الإلهية الديمقراطية ... لأنه قد خول فيها للمسلمين ، حاكمية شعبية مقيدة » .

" Limited popular sovereignty .. " (١) .

إذن ففي الإسلام ، حاكمية شعبية ، ، وإن تكن مقيدة .. مقيدة بالنصوص القطعية . التي تناولت المجال الأقل من شئون المجتمع ، وتركزت لأصحاب الحاكمية الشعبية ، ، المجال الأوسع ، - كما قال المودودي : ..

بل وحتى فيما وردت به النصوص الإلهية نجد لأصحاب ، الحاكمية الشعبية ، مجالا كبيرا .. وبعبارات المودودي ، فإن : « هناك مع هذا العنصر القطعي ، غير القابل للتغيير والتعديل ، عنصر آخر يوسع في القانون الإسلامي إلى حيث لا نهاية ، ويجعله يرحب بالتغيير والرقى في كل حالة من حالات الزمان المتطورة ، وهو يشتمل عدة أنواع :

١ - تعبير الأحكام أو تأويلها أو تفسيرها ... وهو باب واسع جدا في الفقه الإسلامي . فالذين لهم عقول ناقبة . يجدون أمامهم مجالا واسعا

(١) (نظرية الإسلام السياسية) ص ٣٤ ، ٣٥ . (الإسلام والمدنية الحديثة) ص ٣٦ .

للتعبيرات المختلفة حتى في أحكامها القطعية الصريحة : فكل منهم يرجع - على حسب فهمه وبصيرته - تعبيرا من هذه التعبيرات على غيره ، محتجا بالدلائل والقرائن . وهذا الاختلاف في تعبير الأحكام مازال له وجود بين أصحاب الفقه والعلم من الأمة من أول أمرها ، ولا بد له أن يبقى مفتوحا في المستقبل أيضا ..

٢ - القياس .. وهو تطبيق حكم ثبت من الشارع في قضية ، على قضية أخرى تماثلها ، أى بقياسها عليها ..

٣ - الاجتهاد .. وهو فهم قواعد الشريعة وأصولها العامة وتطبيقها في قضايا جديدة لا توجد لها النظائر والأشباه في الشريعة ...

٤ - الاستحسان .. وهو وضع ضوابط وقوانين جديدة في دائرة المباحث غير المحدودة على حسب الحاجات ، بحيث تتفق إلى أكبر درجة مع روح الإسلام الشامل .

فهذه الأمور الأربعة إذا تدبرتم ما فيها من الإمكانيات ، فإن الشبهة لانكاد تساوركم بأن القانون الإسلامى قد ضيق نطاقه في حين من الأحيان عن تلبية حاجات التمدن الإنسانى المتزايدة المتجددة ، والوفاء بمطالب أحواله المتطورة ... (١) .

(١) (القانون الإسلامى وطرق تنفيذه في باكستان) ص ١٧٣ ، ١٧٥ . طبعة بيروت .
ضمن مجموعة عناونها : نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون ، سنة ١٩٦٩ م .

فالأحكام القطعية القليلة .. من مثل :

١ - الأحكام الصريحة القطعية الواردة في القرآن والأحاديث .. كالحدود .. والميراث ..

٢ - والقواعد العامة الواردة في القرآن والأحاديث ، كحرمة كل شيء مسكر ، وكل بيع لا يتم فيه تبادل المنفعة بين الجانبين على تراض مذهبهما ...

٣ - والحدود المقررة في القرآن والسنة لتحديد بها حريتنا في الأعمال ولا نتجاوزها ، كحد أربع نساء لتعدد الزوجات ، وحد ثلاث مرات للطلاق ، وحد ثلث المال للرصية ...

هذه الأحكام القطعية هي من ، الثوابت ، المحددة لصورة مدنية الإسلام المتميزة .. ولا بد لكل مدنية من ثوابت ، لا تقبل الترحيح والتغيير ! .. (١) . فإذا علمنا أن ، القرآن ليس هو بكتاب الجزئيات ، بل هو كتاب المبادئ والقواعد الكلية ، ومهمته الحقيقية أن يعرض الأسس الفكرية والخلقية للنظام الإسلامي بوضوح ، ثم يثبتها فورياً بكائنا الطريقتين ؛ التدليل العقلي ، والتحرير العاطفي . أما ما يتعلق بالنصورية العملية للحياة الإسلامية فإنه لا يرشد الإنسان إليها بوضع قوانين وأنظمة تفصيلية ... بل إنه حدد الحدود الأساسية ... (٢) فقط ..

إذا علمنا ذلك أدركنا - بمنطق المودودي - ومن خلال نصوصه كيف وسع

(١) المرجع السابق ، ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) (المبادئ الأساسية لفهم القرآن) ص ٦٢ ، تعريب : خليل أحمد الحمادي . طبعة

الكويت سنة ١٣٩١ هـ / سنة ١٩٧١ م .

الإسلام مجال ، الحاكمية البشرية المقيدة ، .. وما هو نطاق القيود الإلهية على هذه الحاكمية البشرية ..

والأستاذ المودودي ، بعد أن نفى أن تكون ، الحاكمية البشرية ، في الإسلام لفرد أو طبقة ، أو كهنة سدنة ، تحدث عن خلافة الإنسان ونيايته عن الله ... فالأمة نائبة عن الله ، وهي تنتخب حاكمها ، ونوابها ، وأهل الحل والعقد فيها ، بطريقة ديمقراطية ، الأمر الذي ، يجعل الخلافة الإسلامية ، ديمقراطية ، ، على العكس من القيصرية أو البابوية أو الثيوقراطية (الدولة الدينية Theocracy) على حسب ما يعرفها الغرب ورجاله

ويستطرد المودودي فيقول إن ، ديمقراطيتنا الإسلامية - هي كديمقراطية الغرب - لا تتألف الحكومة فيها ولا تتخير إلا بالرأى العام . ولكن الفرق بيننا وبينهم : أنهم يحسبون ديمقراطيتهم حرة مطلقة العنان ، ونحن نعتقد الخلافة الديمقراطية متقيدة بقانون الله عز وجل ... (١) .

وفي مكان آخر يفصل في الطابع الديمقراطي للنظام السياسي الإسلامي ، فيقول : ، إننا نعارض سيادة فرد أو أفراد أو طبقة سيادة مطلقة تسأثر بالسلطة ، أكثر من معارضة المتحمسين للديمقراطية الغربية ، ونؤكد المساواة في الحقوق وتكافؤ الفرص أكثر من تأكيد أنصارها ، ونحارب كل نظام يكبت الحريات ، فلا يبيح حرية التعبير أو التجمع أو العمل ، أو يضع العراقيل في سبيل بعض الأفراد لاختلافهم في الجنس أو الطبقة أو أصل الولادة ، بينما يعطى الآخرين

(١) (تدوين الدستور الإسلامي) ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

حقوقاً وامتيازات خاصة . فإذا كانت الديمقراطية الغربية تعتبر هذه الأمور جوهرها (Essence) وروحها فإنه لا خلاف بينها وبين ديمقراطيتنا الإسلامية ... نحن نؤمن بحاكمية الله تعالى ، ونقيم نظام حكمنا على فكرة الاستخلاف أو النيابة ، وهي نيابة ديمقراطية في جوهرها وروحها ، يتم فيها انتخاب الخليفة أو الرئيس أو الأمير وفق رأى الجماهير وإرادتهم الحرة ، كما يتم فيها انتخاب أهل الحل والعقد والشورى كذلك ، وهم الذين لهم الحق المطلق فى نقد تصرفات الحكام ، ومحاسبتهم ... (١) .

وإذا كان المودودى قد مال فى كتابه (نظرية الإسلام السياسية) - الذى كتبه سنة ١٩٣٩ م - إلى ، أن للأمير الحق فى أن يوافق الأقلية أو الأغلبية من أعضاء مجلس الشورى فى رأيها ، كما أن له أن يخالف أعضاء المجلس كلهم ، ويقضى برأيه ، (٢) .. أى مال إلى عدم إلزام الشورى للحاكم ... فلقد عاد وعدل عن هذا الرأى فى كتابه (تدوين الدستور الإسلامى) - الذى كتبه سنة ١٩٥٢ م - وقال : إنه ، لا مندوحة لنا من أن نجعل الهيئة التنفيذية تابعة لآراء أغلبية أعضاء المجلس التشريعى ، (٣) .

فهل بقيت ثمة شبهة ، أو بقى أى غبار على فكر الرجل يبرر الظن بعدائه للديمقراطية ، بدعوى أن مفهومه للحاكمية الإلهية يتنافى بها ..!

لا نعتقد .. ولا نظن ..!

(١) (الإسلام والمدنية الحديثة) ص ٣٦ - ٣٨ .

(٢) (نظرية الإسلام السياسية) ص ٥٩ .

(٣) (تدوين الدستور الإسلامى) ص ٢٧٦ .

وأخيرا .. فإن هناك حقيقة هامة قامت وراء نقد المودودي للديمقراطية الغربية التي كانت أساسا من أسس الدولة القومية الواحدة التي سعى (حزب المؤتمر) لإقامتها في الهند الموحدة .. وهذه الحقيقة نقول : إن عداؤ المودودي هذا قد نبع من عداوته لفكرة القومية الهندية الواحدة ، فكلاهما كان يعني - في ظروف الأقلية المسلمة والأغلبية الهندوكية - سحق الشخصية الحضارية والقومية الثقافية للمسلمين ... والمودودي - في نصوص كثيرة له - يميز بين الديمقراطية - بمعنى النيابة عن الأمة وحكم الأغلبية - وبين تطبيقها في ظل أغلبية ثابتة ، على أقلية ثابتة - لاختلافهما في الأصول والحضارة - .. فهي في رأيه ، هنا ستكون « بريرية » ، ولن تكون « ديمقراطية » .. يقول - في نص هام جدا من نصوصه هذه - موضحا فكره ، وحاسما موقفه : « إنه لا يمكن لأى عاقل أن يعارض الديمقراطية ، ولا يمكنه القول بأنه يجب أن يكون هناك حاكم ملكي أو أرستقراطي ، أو أى نوع آخر من أنواع الحكم ، إن القضية التي تقلقنا منذ فترة طويلة ، وتزيدنا قلقا يوما بعد يوم ، هي أن نظام الحكم في الهند يسير منذ حوالي ثمانين سنة (١) مضت على أساس المؤسسات الديمقراطية ، على افتراض وجود قومية واحدة ، وذلك بسبب القيادة الخاطئة والحكم الخاطيء من جانب الإنجليز من ناحية ، وحسن حظ وأناية الهنادكة من ناحية أخرى . ولا يجب أن نخلط هنا بين الديمقراطية نفسها والمؤسسة ذات النوع الجمهوري ، على افتراض وجود القومية الواحدة ؛ فبينهما فرق

(١) كتب هذا الكلام سنة ١٩٣٧ م .. والإشارة إلى تاريخ هزيمة الهند أمام بريطانيا في خمسينات القرن التاسع عشر .

السماء والأرض ، ولا يعنى الاختلاف مع واحدة أننا نختلف مع الأخرى .
 حقيقة الأمر أنه لا يوجد فى الهند قومية واحدة ، ولا توجد بالهند الأسس التى
 يمكن أن تقوم عليها القومية الواحدة . ولكن لنفترض أن الهنادكة والمسلمين
 والمنبوذين والسيخ والمسيحيين وغيرهم يمثلون أمة واحدة .. فإن من الممكن
 تطبيق قاعدة الجمهورية (الديمقراطية) هذه بينهم على أساس أن يسير الحكم
 طبقاً لما ترتضيه الجماعة التى تمثل الأغلبية بين هذه الأمم (١) ... إنه حين
 يتم تطبيق أصول الحكومة المنبثقة عن الأغلبية (أى حكومة الأغلبية) فى
 النظام الديمقراطى ، فإن هذا يعنى أن المجموعة كثيرة العدد تتولى الحكم ،
 وتنال أغراضها ورغباتها بقوة الحكومة ، كما أن المجموعة قليلة العدد تصبح
 مستبعدة وتضحي برغباتها ومصالحها فى سبيل رغبات ومصالح الأغلبية ،
 وهذا هو ما يطلق عليه : استبداد الأغلبية .. وهو أعمق جرح وأسوأ علامة على
 وجه ديمقراطيات هذا الزمان ... ويمكن لمبادئ حكومة الأغلبية أن تكون فى
 مكانها الصحيح حين يتم الاتفاق أصلاً على الأمور الأساسية للمواطنين ، وأن
 يكون الاختلاف بينهم اختلافًا فى الآراء فقط ، وليس فى المصالح ، ومن
 الممكن فى مثل هذا النظام أن تصبح أقلية اليوم هى أغلبية الغد ، وأن تصبح
 أكثرية اليوم أقلية الغد ... ولكن اختلاف الأهداف .. أو الأصول الدينية ، أو
 العواطف القومية ، أو اختلاف أسلوب الحياة وغيرها من مثل هذه
 الأمور لا يمكن أن تنتهى عن طريق الدلائل أو الاستنتاجات ، ومن هنا فإن
 المجموعة التى تشكل الأغلبية سوف تظل دائماً هكذا .. فمن الخطأ - إذن - أن

(١) (المسلمون والصراع السياسى الراهن) ص ١٠٨ . طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م .

نطلق على هذا الشيء اسم : الديمقراطية ، ويجب أن نطلق عليه اسم : البربرية؟! ... (١) إن عزيمة القومية لاتزداد ولا تنضج في ظل هذا النظام ، بل هي تختنق وتعتصر للنهاية ، وتقطع جذورها ، ففي هذا النظام نحن قلة في العدد ، وهذا النظام يعطي ما عنده لمن هم كثرة في العدد ... إن القوة جميعها سوف تتحرك لتستقر في أيدي الآخرين .. وهم سوف يحققون وجودنا بقوة ويشدة ١٩ ... (٢) .

هكذا وضحت مواقف الرجل الفكرية كل الوضوح .. وظهر جليا ، من خلال هذه النصوص ، التي نعملنا الإفاضة في إيرادها لكيلا تكون هناك حجة لمن يجتزئون النصوص ١٩ .. ظهر جليا أن الرجل لم يكن عدواً للقومية ، ولا للديمقراطية ، ..

* فهو قد رفض ، القومية السياسية الواحدة ، لكل الهند .. لأنها كانت تعني سحق الأغلبية الهندوكية للقومية الحضارية والثقافية للأقلية المسلمة ... فموقفه هذا كان دفاعا عن ، القومية الحققة ، .. وليس عداً ، للقومية ، .. ثم هو قد قدم لهذه المعضلة حلاً قومياً نابعا من تعدد القوميات في شبه القارة الهندية ٢ ..

* وهو قد رفض مؤسسة الدولة الديمقراطية ، القائمة على حكم الأغلبية ، لا رفضاً منه للديمقراطية ، بل لأنها - في ظروف الهند حيث تتعدد القوميات - ستؤدي إلى دوام الحكم بيد الأغلبية الهندوكية ، واستبعاد الأقلية المسلمة عنه

(١) (الأمة الإسلامية وقضية القومية) ص ٩٦ ، ٩٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م .

(٢) (المسلمون والصراع السياسي الراهن) ص ١٠٩ .

دائما ، لدوام ارتباط الأغلبية بالأصول الحضارية القومية ... وهذا الموقف هو رفض لتوظيف المؤسسات الديمقراطية في غير موضعها ، وليس رفضا للديمقراطية ، فهو نفسه يقول : إنه لا يمكن لعاقل أن يعارض الديمقراطية .

* ونظريته في الحاكمية الإلهية لا تنفى انحيازها للديمقراطية ... فالحاكمية ، بمعنى السلطة المطلقة .. سلطة الفعال لما يريد .. الذى لا يسأل عما يفعل .. ليست مما يدعيه البشر ... ونطاق التشريع الإلهي القطعي محدود ، وأغلبه كليات وقواعد عامة ... أما ما عداه فأختصاص ، الحاكمية البشرية ، المحكومة بهذه الكليات ومروح الشريعة العام - التى هي فكرية الأمة ومعياري الخير والشر والصواب والخطأ في حياتها والأمة - عن طريق نوابها وممثليها - هي التى تمارس هذه ، الحاكمية البشرية ... فهي إذن - هذه الحاكمية - ديمقراطية في الجوهر والمضمون والأساس ...

هكذا انجلى الغموض الذى أحاط بفكر الأستاذ المودودي السياسي ... وهو الغموض الذى علم الله كم دفع أناسا بعيدا عن جادة الصواب ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟!

فتعار الحاكمية ، إذن ، عند المودودي لا يماثل ، الثيوقراطية ، ولانظرية «الحكم بالحق الإلهي» كما شاع عن الرجل عند كثيرين من أنصاره وأعدائه على السواء ؟!

لكن هذا شعار هو شعار موهم ، أدت وتؤدي كثير من النصوص التى كتبها

المودودي حوله إلى لبس جعل الكثيرين يحسبونه على « الشيوعية » و « الدولة الدينية » .. ثم هو إحياء لمقولة خارجية مثلت طليعة الانحراف عن الإيمان بسلطان الأمة السياسي في حضارتنا العربية الإسلامية .. وفوق كل هذا فإنه شعار لجأ إليه المودودي مدفوعاً بملاسات هندية خاصة : دولة متعددة القوميات ... والمسلمون فيها أقلية قومية ، فسلطة الأغلبية الهندوكية لا بد أن ترفض ؛ لأنها أغلبية دائمة معادية لغيرها من القوميات ، وبخاصة للقومية الإسلامية ... فهو - هنا أيضا - رفض لسلطة بشرية مستبدة ومعادية ، يستخدم شعاراً فيه « شبهة » الإيهام بتجريد البشر من أن تكون لهم السلطة والسلطان في سياسة الدولة والمجتمع ... ومن هنا كان رفضه وطرح نظريته جانباً أجدى في تحديد المعاني الدقيقة واختيار المصطلحات المعبرة عنها بدقة ، في ميدان ومناخ ملئ بعوامل اللبس والأفكار والشعارات المثيرة للشبهات ! ..

فلا شعار الحاكمية ، - في نشأته الأولى - بذى صلة حقيقية بفكر الإسلام السياسي .. ولا هو ، في صورته المودودية - بالمعبر عن واقع الفكر الإسلامي الحديث ، أو ضرورات النهضة الإسلامية في إطار أمنا العربية .. إنه شعار دخيل على تراثنا القديم واجتهادنا الحديث .. تخلى عنه الذين ابتدعوه قديماً .. وجوهر فكر المودودي عنه مخالف لما فهمه منه أنصاره وأعداؤه على السواء .. فهو لا يعدو - رغم ما أوضحنا من مضامينه الحقيقية - أن يكون شبهة من الشبهات ! ..

والأمر الذي يؤكد براءة « الإسلام : الدين » و « الإسلام : الحضارة » من

الانحراف إلى القول ، بالسلطة والدولة الدينية ، ، أو القول ، بفصل الدين عن الدولة ، ، هو بقاء نظرية الإمامة الشيعية وصورتها الأخيرة . - ولاية الفقيه . - وبقاء ، شبهة السلطة الدينية ، - نظرية ، الحاكمية ، - خارجا عن طبيعة المسار الأصلي لفكر الإسلام السياسي ، كما أبدعته التيارات الفكرية الأساسية التي عرفت حاضارتنا وأيضا بقاء هذا ، الفتوة ، غريبا عن المناخ العربي الإسلامي الذي التزم موقف الرفض والنفور من كل الأطروحات المجافية ، لوسطية الإسلام

ولقد ظلت ، صفحة ، هذا ، الفتوة ، في مسيرتنا الفكرية ، مجرد ، جملة معترضة ، تنتظر من يحذفها من كتاب الفكر السياسي للإسلام ، وبقيت ظاهرة غير طبيعية ، تشوب صفحات هذا الكتاب ، إلى أن عرف الإنسان العربي طريقه إلى عصر اليقظة والنهضة والتنوير في القرن التاسع عشر الميلادي ، فرأينا نقاء الفكر السياسي في هذه القضية يعود ليتألق في الآثار الفكرية لمدرسة التجديد الديني ، التي تبلورت من حول فيلسوف الإسلام وموقف الشرق جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م) والتي كان الإمام محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) المهندس الأعظم لبنائها الفكري المجدد للإسلام ..

فأعلام هذا التيار التجديدي ، وإن اعترفوا بوجود ، سلطة زمنية ، و ، سلطة روحية ، إلا أنهم يجعلون ، السلطة الروحية ، للدين تتمثل في كل متدين به ، وليس في ، رجال ، لهذا الدين يتخذون لأنفسهم من السلطة والسلطان ما لا يشاركهم فيه الآخرون .. وكما جعلوا السيادة والرقابة للأمة على رجال

«السلطة الزمنية» ، فذلك جعلوا للأمة السيادة والرقابة على كل من يسمى «استخدام سلطان الدين» ذلك لأن «إرادة الشعب» الغير مكره ، والغير مسلوية حريته قولا وعملا ، هي قانون ذلك الشعب المتبع ، الذي يجب على كل حاكم أن يكون خادما له أمينا على تنفيذه !..» (١) .. كما يقول جمال الدين الأفغانى ..

ومن منطلق «الإسلام : الدين» و«الإسلام : الحضارة» لم ير أعلام تيار (الجامعة الإسلامية) التجديدي بين السلطتين ، الزمنية ، و«الروحية» : ذلك التناقض العدائى ، ولا هذه الثنائية الحادة والأنشطار المستحكم الذى كان بينهما فى الواقع الأوربى ، وهو التناقض الذى أثمر «العلمانية» هناك ... فقال أعلام هذا التيار التجديدي : إنه «إذا سار الدين فى غايته الشريفة» ، حمدته السلطة الزمنية ، بلا شك ، وإذا سارت السلطة الزمنية فى الغاية المقصودة منها ، وهى (العدل المطلق) حمدتها السلطة الروحية وشكرتها ، بلا ريب . ولا تتنافر هاتان السلطان إلا إذا خرجت الواحدة منهما عن المحور اللازم لها ، والموضوعة لأجله !..» (٢) .

ولقد تصور - وصور - أعلام تيار التجديد الدينى علاقة الدين بالدولة على النحو الذى يمكن رصد عناصره الأساسية فى هذه النقاط :

١ - تأسيس المشروع النهضوى المستقبلى على الثوابت والأصول التى تمثل

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ٥٣٣ - دراسة وتحقيق دكتور محمد

عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

(٢) المصدر السابق ص ٣٢٤ .

« هوية الأمة الحضارية » .. ذلك « لأن الظهور في مظهر القوة ، لدفع الكوارث ، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها الآباء والأسلاف .. ولا ضرورة - في إيجاد المنعة - إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكتها بعض الدول الغربية الأخرى ، ولا ملجئ للشرق - في بدايته - أن يقف موقف الغربي في نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك ؟ ... » (١) .

فتميزنا الحضارى حقيقة تاريخية .. وهو ضرورة مستقبلية نافعة ، نعصم مشروع نهضتنا من المسخ والتشويه المتمثل في فكرية « التغريب » .. وهو شرط صلاحه ، عندما يلائم طبيعة الأمة وخصائصها ..

٢ - والإسلام - المتجدد بالاجتهاد العقلانى - هو الركيزة الطبيعية والقوية للنهضة المنشودة فى إطار أمنا العربية الإسلامية .. فتجديد « دنيانا » رهن بتجديد « ديننا » !... وهذه سبيل لمريد الإصلاح فى المسلمين لا مندوحة عنها ، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ، ليس عنده من مواده شئ ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدا . وإذا كان الدين كافلا بتهديب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة فيه (ما ليس لهم فى غيره) ، وهو حاضر لديهم ، والعناء فى إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إمام لهم به ، فلم الجدول عنه إلى غيره ١٩ .. » (٢) .

(١) المصدر السابق ص ٥٣٣ .

(٢) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج ٣ ص ٢٣١ - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

٣ - وتأسيس التمدن الحديث على ركائز التمدن الإسلامى لا يعنى صب الحاضر والمستقبل فى قوالب انسلف وتجارب الأقدمين ، وإنما يعنى جمع ثوابت الهوية إلى متجددات العصر ومقتضياته ، فتكون : معاصرين ، نبذع ما تواجه به تحديات العصر ومستحدثات الواقع ومتطلبات المستقبل ، على أن تكون : معاصرتنا ، امتداداً متسقاً ومتطوراً لثوابت هويتنا العربية الإسلامية .. فنضمن النهضة العصرية مع التواصل الحضارى ، الأمر الذى ينفى التناقض بين : أصيل موروثنا ، وبين : جدتنا وحداثتنا ، ، ولو رزق الله المسلمين حاكماً يعرف دينه ، يأخذهم بأحكامه ، لرأيهم قد نهضوا ، والقرآن الكريم فى إحدى اليدين ، وما قرر الأولون وما اكتشف الآخرون فى اليد الأخرى ، ذلك لأخرتهم ، وهذا لدنياهم ، ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم ! .. (١) .

٤ - وأسلمة : الدولة ، فى مشروعنا الحضارى لا تعنى أنها : دولة : دينية .. ثيوقراطية ، .. كما عنت ذلك مسيحيتها فى الحضارة الكاثوليكية الغربية ، فطبيعة : السلطة الدينية : للدولة مما ياباه نهج الإسلام . فالكاثوليكية الغربية هى التى : جعلت أصلاً من أصول المسيحية كون السلطة الحقيقية : (مدنية - سياسية - دينية) فى نظام واحد ، لا فصل فيه بين السلطتين ، أما الإسلام فإنه ليس فيه سلطة دينية ، سوى سلطة الموعظة الحسنة .. وهى سلطة خولها الله لكل المسلمين ، أدناهم وأعلاهم ... وليس للخليفة ، أو القاضي ، أو المفتى ، أو شيخ الإسلام أية سلطة دينية .. بل إن كل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهى

(١) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

سلطة مدنية .. !! فليس في الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه ؟! .. (١) .

٥ - ونفى : السلطة الدينية ، و : الثيوقراطية ، عن الدولة الإسلامية لا يعنى ، علمانية ، هذه الدولة ، وتحررها من هيمنة الشريعة الإسلامية ، وفصلها عن الدين .. ذلك لأن الإسلام ليس مجرد رسالة روحية خالصة ، وإنما هو موقف كلى وفلسفة شمولية وأيديولوجية حياتية وضع المعايير والفلسفات والأطر للنظام المدنى أيضا .. فالإسلام : دين ، وشرع ، قد وضع حدودا ، ورسم حقوقا ، وليس كل معتقد فى ظاهر أمره بحكم يجرى عليه فى عمله ، فقد يغلب الهوى ويتحكم الشهوة ، فيغصط الحق ، ويتعدى المعتدى الحد فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود ، وتنفيذ حكم القاضى بالحق ، وصون نظام الجماعة ، وتلك القوة لا يجوز أن تكون فوضى فى عدد كثير ، فلا بد أن تكون فى واحد ، وهو السلطان أو الخليفة ، (٢) - (الدولة) - ... فإلله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ..!

٦ - فهى - إذن - دولة : إسلامية ، و : مدنية ، فى ذات الوقت .. للشريعة مكان السيادة والهيمنة على ، واقعها الحى ، وعلى (القانون ، المنظم لحياة هذا الواقع ... والأمة هى مصدر السلطة والسلطان فى التشريع والتقنين لمقاصد هذه الشريعة وتجسيد فلسفاتها واقعا ووضع مقاصدها فى الممارسة والتطبيق ...

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٥ ، ج ٣ ص ٢٨٨ ، ٢٨٦ ، ٢٨٥ .

(٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٨٧ .

وإذا كانت : الحرية ، فريضة إسلامية وضرورة شرعية إنسانية ، وليست مجرد حق من حقوق الإنسان ، فإن حرية الأمة لن تتحقق إذا لم تكن - في سياسة الدولة والمجتمع - مصدراً للسلطة والسلطان .. فالحكمة والعدل في أن تكون الأمة - في مجموعها - حرة مستقلة في شئونها ، كالأفراد في خاصة أنفسهم ، فلا يتصرف في شئونها العامة إلا من تثق بهم من أهل الحل والعقد ، المعبر عنهم في كتاب الله بأولى الأمر ؛ لأن تصرفهم - وقد وثقت بهم - هو عين تصرفها ، وذلك منتهى ما تكون به سلطتها من نفسها (١) .

بل إن كون الأمة هي مصدر السلطة في حياتها السياسية ليلبغ الحد الذي يجعلها الحاكمة على الدولة .. فهي تباع الحاكم وتتوجه - إن كان ملكا - على شرط الدستور والقانون ، فإن وفي كانت له حقوق الطاعة ، وإلا ، فإما أن يبقى رأسه بلا تاج ، أو تاجه بلا رأس ؟! (٢) .



هكذا كشفت مدرسة التجديد الديني الحديثة النقاب عن الوجه المشرق للفكر الإسلامي في هذا الموضوع .. موضوع : (الإسلام وطبيعة السلطة السياسية في الدولة والمجتمع) ، ومن ثم : (الإسلام والعلمانية) فأزاحت وهم الدين زعموا أن الإسلام مع : الحكومة الدينية .. الثيوقراطية ، ومن ثم أفقدت دعاء العلمانية ، من أنصار تيار : التغريب ، كل مبرر لتكلف مشكلة يستعيزون لها حلا متكلفا هو الآخر ؟! ..

(١) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٥٨ .

(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ص ٤٧٨ ، ٤٧٩ .

وظهر جليا أن ، شبهة السلطة الدينية ، ، في تراثنا الفكري لم تعد أن تكون :

* ، خصوصية شيعية ، أنمرتها ملايسات وغايات مختلفة عن تلك التي دعت إلى نظيرتها الأوربية ..

* ، مصطلحات موهمة ، دفعت إليها ملايسات خاصة ، لا وجود لها ولا لنظيرها في إطار الأمة العربية المسلمة ..

* ، آفة التقليد ، للأطروحات الفكرية التي عرفتها ديانات أخرى وحضارات أخرى ، رغم تعارض أسسها وغاياتها ومناهجها مع الأسس والغايات والمناهج التي تميز بها الإسلام ..

حدث ذلك ويحدث رغم وضوح مضاره ومخاطره على ذلك التميز الذي طبع نهج الإسلام فأكسبه خصوصية ازدان بها كدين ، وكحضارة .. وهي خصوصية من الواجب - ومن الطبيعي - أن تسعى إلى التحلي بها أمة هذا الدين ...

وهو قد حدث ، ويحدث رغم أن الرسول ﷺ قد حذرنا مخبئه منذ عصر البعثة ، عندما تنبأ به فقال ، محذرا : « لتتبعن سنن من كان قبلكم ، باعا بباع ، وذراعا بذراع ، وشبرا بشبر ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتم فيه » (١) : ١٢ ..

لقد عرفت مجتمعات قديمة وحضارات غير إسلامية ذلك النهج الذي جعل

(١) رواه البخاري ومسلم وابن ماجه وابن حنبل .

« السياسة ديناً خالصاً » ، وكان ذلك قبل أن تبلغ الإنسانية طور الرشد الذى يؤهل الأمة لأن تكون مصدراً للسلطة والسلطان فى شئون الدنيا وتنظيم الدول وسياسة المجتمعات .. فعرفت الكسروية الفارسية كسرى مفوضاً من معبوده «أهورا- مزدا» ، مفوضاً بالحق الإلهى لتكون « سياسته » « دين السماء » وقانونها المقدس !.. وعرفت القيصرية الرومانية القيصر- فى الوثنية - : ابن السماء - وفى المسيحية - : رئيس الكنيسة الحاكم بالحق الإلهى ، على النحو الذى اشتهر فى أوربا الكاثوليكية بعصورها الوسطى - المظلمة !.. كما عرف التاريخ العبرانى « وحدة السياسة والدين » ، ندوام السلطة السياسية بيد الأنبياء !..

لكن الإسلام الذى فتح - بختم طور النبوة - للإنسانية باب المرحلة التى بلغت فيها رشدها ، هو الذى علمنا رسوله ﷺ أن هذا الطور الجديد قد اقتضى تطوراً حاسماً وتغيراً نوعياً فى طبيعة السلطة السياسية للدولة الإسلامية ، وفى طبيعة العلاقة بين « الرسالة » ، « السياسة » ، « الدين » و « الدولة » ... عندما قال - عليه الصلاة والسلام - : « إن بنى إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبي خلفه نبي ، وإنه لا نبي بعدى ، إنه سيكون خلفاء » (١) ... فنبه على أن لنظام الحكم فى الإسلام طبيعة نخائف طبيعته التى عرفت فى التاريخ القديم وفى الحضارات التى سبقت حضارة الإسلام ... وعندما قال - معلقاً على حادث تأييد النخل - : « إنما أنا بشر مثلكم .. وما قلت لكم : قال الله ! .. فما كان من أمر دينكم فإلئى ، وما كان من أمر

(١) رواه البخارى وابن ماجه وابن حنبل .

دنياكم فشأنكم به ، أنتم أعلم بأمر دنياكم ، (١) .. فنبه على أنه ﷺ مع جمعه بين الرسالة ، و السياسة ، قد تمايز في إنجازهما هو ، رسالة : عما هو سياسة : .. ما هو دين عما هو دولة .. فاختلاف الوضع وتغير نوعيا - عن الكهانة ، التي سادت عصور ما قبل الإسلام وحضارته ..

لكن ... وبالرغم من هذا الهدى النبوي قد نفر ضئيل العدد من المسلمين من تقدم أمة الإسلام ، باعا بباع ، وذراعا بذراع ، وشبرا بشبر ، فجعلوا السياسة ، دينا خالصا ، وجعلوا الإمامة : إلهية ، معصومة ، عصمة الأنبياء ! ..

وإذا كان هذا الفكر قد ظل - في تاريخنا وراثنا - مجرد ، نتوء .. وخصوصية مذهبية ، أنكرتها التيارات الرئيسية التي صنعت فكر الإسلام السياسي .. كما ظل هذا الفكر مجرد ، فكر نظري ، نشأ كرفض للسلطة البشرية الظالمة ، وكحلم مثالي بسلطة معصومة صنعها الله على عبده واصطفاهما كما اصطفى الأنبياء ! ... إذا كان هذا هو حال تراث الإسلام وتاريخه مع هذا اللون من الفكر ، فإن شبيهه - الكهانة الكاثوليكية - عندما سادت أوروبا العصور الوسطى ، قد أفرزت ذلك اللون من ردود الفعل الحادة .. أفرزت نهج العلمانية ، SECULARISM .. الذي أنكر أهله ومفكروه أن تكون للدين ، علاقة ب الدولة والمجتمع ، ورفضوا أن تكون ، للرسالة الدينية ، صلة ب سياسة دنيا الناس ! ..

(١) رواء مسلم وابن ماجه وابن حنبل .

وكما ابتلى تراثنا القديم بأفة تقليد ، الكهانة ، القديمة .. كذلك ابتلى فكرنا الحديث والمعاصر بأفة تقليد ، العلمانية ، الأوربية .. وغفل الفريقان - القائلون بأن ، دولة ، الإسلام هي ، دين خالص ، .. والقائلون بأن الإسلام ، دين ، لا علاقة له بـ ، الدولة ، - غفلوا عن أن للإسلام - في هذا الأمر - نهجا متميزا يرفض ، الكهانة ، و ، وحدة الدين والدولة ، ، و ، الرسالة والسياسة ، ، والسلطة الدينية ، و ، الدولة الدينية ، و ، الحكم بالحق الإلهي ، .. كما يرفض في ذات الوقت - نقيض هذه ، الكهانة ، ، وهي : العلمانية ، التي تفصل ، الدين ، عن ، الدولة ، ، وتدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! ..

إنه النهج الإسلامي المتميز بـ ، وسطية ، الإسلام .. تلك ، الوسطية ، التي لا تعنى رفض هذين النقيضين لكي تقف بينهما ، وعلى مسافة متساوية بينهما وبين كل منهما - كما هو شأن ، الوسطية الأرسطية ، - وإنما هي ترفض الانحياز لأي من النقيضين ، لتصوغ معالم موقفها الثالث من السمات والقسمات الممكن جمعها والتأليف بينها من بين سمات وقسمات النقيضين اللذين رفضت الانحياز لأي منهما وحده .. فهي وسطية ، العدل ، بين الظلمين .. و ، الحق ، بين الباطلين .. و ، الاعتدال ، بين التطرفين .. الوسطية التي تجمع وتؤلف بين ما يعد في المنظومات غير الإسلامية متناقضات يستحيل الجمع بينها ، فضلا عن التأليف ! .. الوسطية التي تجمع بين ، الرسالة ، و ، السياسة ، .. بين ، الدين ، و ، الدولة ، مبصرة العلاقة بينهما ، دون أن تبلغ هذه العلاقة حد ، الاندماج والوحدة ، - كما في ، الكهانة والدولة الدينية - الثيوقراطية ، - .. ودون أن تتدنى وترق خيوط هذه العلاقة

إلى حد ، الانفصال ، ، كما هو الحال في ، العلمانية ، ، .. الوسطية التي تدعو إلى الدولة : ، الإسلامية - المدنية ، ، والسياسة : ، الإسلامية - المدنية ، ، التي تمارس فيها الأمة حقها - بل واجبها - في أن تكون مصدر السلطات ، شريطة أن لا تحل حراما ولا تحرم حلالا دينيا ، وإنما هي تبدع في شئون دنياها في إطار مقاصد الشريعة وفلسفاتها ... دولة : إسلامية ترقض ، الدولة الدينية ، رفضها ، للعلمانية ، ، على حد سواء !!؟ ..

دولة : ، إسلامية - مدنية ، ترضى روح الشريعة الإلهية الثابتة ، وتلتزم الحدود القرآنية القطعية الدلالة والثبوت ، ومن ذلك يتكون لها إطار ديني ، يقف عند الكليات والمقاصد والغايات والفلسفات ، وفي داخل هذا الإطار الديني - الذي غدا مجسدا لهوية الأمة وروحها الحضاري - تجتهد الأمة ، بواسطة الدولة : لتساير بإبداعها الفكري في النظم والقوانين حركة الواقع المتغير والمتطور دائما وأبداً ، بحكم قانون الله وسنته في تطور واقع الحياة والمجتمعات .. فهي دولة فيها : ، الثابت - الديني ، ، وفيها : ، المتغير - المدني ، .. ومن هنا قامت ، العلاقة ، ، وفي ذات الوقت ، التمايز ، بين ، الرسالة ، و ، السياسة ، .. وبين ، الدين ، و ، الدولة ، في هذا البناء الإسلامي الفريد !! ..

إن الإسلام : ، دين ، و ، دولة ، .. وإن ، واو ، العطف التي نعطف ، الدولة ، على ، الدين ، ، كما تفيد ، المغايرة ، .. وهذا هو معناها اللغوي - فإنها تفيد قيام الصلة والاشتراك ..

ذلك هو موقف ، الحضارة الإسلامية ، - على امتداد تاريخها - من قضية العلاقة بين ، الدين ، و ، الدولة ، - لقد رفضت - بما أبدعته تياراتها الفكرية

الأصيلة والرئيسية - مقولة : فصل الدين عن الدولة ، رفضها لمقولة « وحدة الدين والدولة » .. أى أنها رفضت جوهر العلمانية ، وجوهر الكهانة والثيوقراطية .. واختارت - بمنهج « الوسطية الإسلامية » - موقف « التمييز » بين الدين والدولة .. فكانت « شبهة السلطة الدينية » فيها « نكوء » مقادراً لمواريت غير إسلامية ، كما هو حال « الفكرية العلمانية » الحديثة والمعاصرة ، مجرد تقليد لمسيرة الحضارة الغربية ، يصطنع مشكلة ليصطنع لها الحلول . وما الآفة التي وقفت وبقف خلف دعاة « الدولة الدينية » ودعاة « الدولة العلمانية » إلا آفة التقليد والجمود !



القفز على حقائق الفكر ووقائع التاريخ

لكن العجب - كل العجب - هو الغفلة أو التغافل - من قبل البعض - لكل هذا
الوضوح في موقف الإسلام من علاقة الدين بالدولة .. ذلك الذي أشرنا إليه
فيما تقدم من الصفحات ..

فكما وجدنا البعض يذهب في الادعاءات التي تفتح الباب ، للعلمانية ،
إلى الحد الذي يشذ فيه عن الفكر الذي استقر عليه العلماء والباحثون ، فينكر
علاقة ، الفكر الإسلامي ، بالدولة والسياسة وتنظيم المجتمعات وتحديد نمط
معين ونهج متميز للتمدن والعمران .. توصلا إلى جعل ، العلمانية ، الحل
الطبيعي في حضارة إسلامها ، في زعمهم - دين لا دولة ، كما كانت هي الحل
الطبيعي في حضارة قصت مسيحيتها أن تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله ..

كما صنع البعض ذلك على جبهة ، الفكر الإسلامي ، .. وجدنا بعضا من
الكتاب ، وإن لم يقولوا إن الإسلام - كفكر نظري - قد ماثل المسيحية في
، الكهانة ، و ، الدولة الدينية ، و ، الحكم بالحق الإلهي ، ، إلا أنهم قالوا
ويقولون : إن ذلك قد حدث ، عمليا ، للإسلام ؟! .. فرأينا هذا البعض يجتهد
في ، القفز ، على هذه الحقائق الفكرية ، الصلبة والعديدة - التي قدمناها - ساعيا
إلى التبشير بفكرية ، التغريب ، ، ومنها ، العلمانية ، ، بدعوى تماثل الإسلام

«عملياً» مع المسيحية في «الشيوقراطية» و«الكهانة» و«تماثل» الواقع الإسلامي» مع واقع أوربا العصور الوسطى والمظلمة عندما سادت نظرية «الحكم بالحق الإلهي» .. ولذلك ، فإن «العلمانية» - بنظر هذا البعض - تصبح هي الحل عندنا كما أصبحت هي الحل لأوربا عصر النهضة والإحياء .. ويتمادي هذا البعض في هذه الدعوى فيزعم أن «العلمانية» قد استقرت لها السيادة في واقعنا النهضوي الحديث، منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي ، وأنها كانت القرنين والسبب لكل مشروعات النهضة والتحديث والتنمية التي عرفتها بلادنا في عصرها الحديث !..

وفي اعتقادنا أنه رغم ظهور شذوذ هذا الادعاء ، عندما يوضع في ضوء الحقائق التي قدمناها ، والتي مايزت بين الإسلام والمسيحية الكاثوليكية الغربية ، كما مايزت بين واقع تطورنا ونظيره في الغرب .. إلا أن «درجة القبول» لهذا الادعاء في صفوف المثقفين العلمانيين - ونحن حريصون على إدارة الحوار الموضوعي معهم حول هذه القضية المحورية - تدعونا إلى تفصيل القول في حظ هذا الادعاء من الصدق «الفكري والواقعي» .. وتدعونا - كذلك - إلى اختيار أكثر الأصوات علواً بهذا الادعاء ، وأشدهم حماسة له ، ممثلاً في الدكتور لويس عوض ؛ لندير معه ومن خلاله الحوار حول حقيقة هذا الادعاء بوجود العلاقة بين الإسلام و«الكهانة والشيوقراطية» ... وقيام «العلمانية» وازدهارها في نهضتنا المصرية والعربية الحديثة ..

يقول الدكتور لويس عوض في الدراسة التي نشرها بمجلة «المصور» عن

(قصة العلمانية في مصر) ومع أن الإسلام - على خلاف المسيحية - دين يقوم في أساسه على الفلسفة الإنسانية ، باعتبار أن الله - في الإسلام - قال : إن الإنسان هو سيد المخلوقات ، وجعل له مكانة ممتازة في الكون أعلى من مكانة الملائكة نفسها . والإسلام في جوهره لا يعرف حكم الكهنوت ، وليس فيه وسطاء بين الإنسان والله .. إلا أن الإسلام - كالمسيحية - قد عرفا دورائهما الثيوقراطية والهيومانية (١)

وبناء على دعوى مرور الإسلام ، عمليا - مثله مثل المسيحية - بالدورات الثيوقراطية ، يذهب الدكتور لويس عوض إلى القول بأن نهضتنا الحديثة ، مثلها كمثل نهضة أوربا المسيحية ، قد اعتمدت على استبدال العلمانية ، الكهنوت والثيوقراطية ، الإسلامية ، وأن هذه النهضة الحديثة ، بما أرست من فكر وأقامت من مؤسسات إنما كانت - كنظيرتها الأوربية - ثمرة للصراع بين دعاة الحكم بالحق الطبيعي ، وبين دعاة الحكم بالحق الإلهي .. فالتماثل بيننا وبين الغرب قائم في واقع التطور التاريخي ، وقائم - تبعاً لذلك - في التحول .. ومنها حل العلمانية ، وفي هذه الدعوى يقول الدكتور لويس : لقد أصبحت مصر - رغم الكثير من التقلبات المعادية - أرسخ قاعدة للعلمانية في الشرق الأوسط .. (٢) .

وانطلاقاً من مذهب الذي يرى أن استقلال مصر ، هو استقلالها عن ماضيها الإسلامي ومحيطها الإسلامي ، وأن تحضرها هو عين تغريبها ،

(١) (المصور) العدد ٣٠٧٧ في ٣٠ - ٩ - ١٩٨٣ م .

(٢) المرجع السابق . العدد ٣٠٧٨ في ٧ - ١٠ - ١٩٨٣ م .

يذهب ليعدد القادة العظماء الذين قادوا النهضة العلمانية لمصر ، فإذا هم
بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١ م) ومحمد علي (١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ / ١٧٧٠ -
١٨٤٩ م) وإسماعيل باشا (١٢٤٥ - ١٣١٢ هـ / ١٨٣٠ - ١٨٩٥ م) والورد
كرومر (١٨٤١ - ١٩١٧ م) وسعد زغلول (١٢٧٣ - ١٣٤٦ هـ / ١٨٥٧ -
١٩٢٧ م) وجمال عبد الناصر (١٣٣٦ - ١٣٩٠ هـ / ١٩١٨ - ١٩٧٠ م) (١)!! ..

ولخطورة هذه الدعوى - التي تتعدى حدود تزييف التاريخ إلى نطاق
تضليل المسيرة المستقبلية ، وهذا هو هدفها الأساسي والأخطر - نجد لزاما علينا
عرض مقولاتها - بأمانة وموضوعية - على حقائق تاريخنا ووقائع نهضتنا
الحديثة ؛ ابتغاء الوصول إلى الحقيقة في هذا الموضوع الخطير ..

* يقول الدكتور لويس عوض - بصيغة الوثائق مما يقول - : « إنني أعلم أن
معركة الديمقراطية المصرية كانت دائما معركة بين الحق الطبيعي ومن
يدعون بالحق الإلهي . ومن يدعون بالحق الإلهي يريدون حرمان الشعب من
ممارسة حقه الطبيعي كمصدر السلطات ، ويسبغون هذه الصفة على الملوك
والفقهاء والعباقرة والبابوات والأبطال .. » (٢) .

فهل - حقا - كانت تلك هي المعركة ؟ .. وهل حقا كان هؤلاء هم فرقاؤها ..
دعاة الحكم بالحق الطبيعي .. ودعاة الحكم بالحق الإلهي ؟! .. ومتى ؟ ..
وفي أي بلد من بلادنا حدث هذا الذي ، علمه ، الدكتور لويس ؟! ..

(١) المرجع السابق . العدد ٣٠٧٧ في ١٩٨٣/٩/٣٠ م ، والعدد ٣٠٧٦ في ١٩٨٣/٩/٢٣ م
والعدد ٣٠٧٨ في ١٩٨٣/١٠/٧ م .

(٢) (المصور) حديث مع الدكتور لويس - العدد ٣١٠٦ في ١٩٨٤/٤/٢٠ م .

إن الشهير ، والمتعارف عليه ، والذي كاد أن يكون إجماع الذين أرحوا لهذه الأمة ، والذين درسوا ويدرسون هذا التاريخ ، يؤكد - في هذه القضية - على عدد من الحقائق التي نقول :

١ - إن أمتنا لم تنظر إلى « الدولة » العثمانية باعتبارها « خلافة إسلامية » ، تمتلك الشروط الإسلامية للخلافة والإمامة ، وإنما نظرت إليها باعتبارها « سلطنة » قائمة على « القهر والتغلب » .. وإن الثورات والتمردات والانتفاضات ضد هذه « السلطنة » إنما كانت متوالية ومشروعة ، وقادتها كانوا هم علماء الشريعة وأئمة الإسلام !! .. كما كانت فترات التهادن مع هذه « السلطنة » في إطار التعامل مع « حكم الضرورة » ومع « الممكن » الذي هو « أخف الضررين » .. فلقد ظل الإسلام : « الدين » و « الفكر » على ولائه وبمسكه بشروط الخلافة والإمامة ، يحجب « المشروعية الإسلامية » عن سلاطين آل عثمان ، بدءاً من « السلطان » سليم (٨٧٥ - ٩٢٦ هـ / ١٤٨٠ - ١٥٢٠ م) حتى « السلطان » عبد الحميد (١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ / ١٨٤٢ - ١٩١٨ م) .. فأين هو « الواقع الشيوقراطي » الذي مر به الإسلام ، كما مرت به مسيحية الغرب الكاثوليكية !! .. إن كان المقصود تجاوزات سلاطين آل عثمان ، الذين رأوا أنفسهم ظل الله في الأرض ، وسيوفه المسلحة على رقاب عباده .. فلقد ظل الإسلام وعلماءه منكرين لهذا التجاوز والانحراف ، يحجبون عنه « المشروعية الإسلامية » ، ويحولون بينه وبين أن يصبح « واقعاً إسلامياً » و « فكراً دينياً » .. فأين هذا من دور المؤسسة الكنسية في الغرب الكاثوليكي حيال قصة الكهانة والشيوقراطية والحكم بالحق الإنهائي !! .. وأين هذا التماثل بين واقع الغرب

الكاثوليكي وواقعنا في عصورنا المظلمة التي تسلط فيها سلاطين آل عثمان؟!..

٢ - وعلى حين كانت المؤسسة الكنسية - في الغرب الكاثوليكي - هي المبتدعة لنظرية ، الحكم بالحق الإلهي ، ، والمহারية بضراوة ضد أن يكون الشعب مصدر السلطات .. كان علماء الإسلام - في مجملهم - أئمة الدعوة إلى ضرورة أن تكون الأمة هي مصدر السلطات!!.. ولم يكن هذا الموقف لهؤلاء العلماء طارنا حديثا ، جاء كثرة ، للعلمانية ، .. وإنما كان موقفا أصيلا أعلنوه في ظل السلطنة العثمانية ، وضمنوه الوثائق والقرارات التي نصت على حق الأمة في تولية الحكام ، وفي عزلهم ، وفي الثورة عليهم ، وفي قتالهم ، حتى ولو كانوا ، سلاطين ، ، بل و خلفاء ،؟!..

ف ، مجلس الشرع - الذي كانت بيده قيادة الأمة ، في مصر ، أوائل القرن التاسع عشر الميلادي - هو الذي اجتمع بدار المحكمة العليا ، بيت القاضي ، في يوم الاثنين ١٣ صفر سنة ١٢٢٠ هـ / مايو سنة ١٨٠٥ م ، وقرر عزل الوالي العثماني أحمد خورشيد باشا .. واختيار محمد علي باشا واليا - بدلا منه - على مصر ، وذهب علماء مجلس الشرع إلى محمد علي قائلين له : ، تكون واليا علينا ، بشروطنا ،؟!.. ولما رفض خورشيد باشا قرار عزله قائلا : ، إني موكى من طرف السلطان ، فلا أعزل بأمر الفلاحين ،؟!.. قاد مجلس الشرع ، المقاومة والحصار والقتال ضد هذا الوالي وأعدائه .. وعندما سئل قائد مجلس الشرع ، وأبرز علماء الإسلام يومئذ السيد عمر مكرم (١١٦٨ - ١٢٣٧ هـ / ١٧٥٥ - ١٨٢٢ م) .. عندما سئل من قبل مندوب الوالي التركي :

- كيف تعزلون من ولاه السلطان عليكم .. وقد قال الله تعالى : **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ** (١) .

كان جوابه الذي حدد فيه انحياز الإسلام إلى حق الأمة - بل وواجبها - في أن تكون مصدر السلطة والسلطان .. وانحياز علماء الشريعة إلى هذه الديمقراطية الإسلامية .. قال :

- **أولو الأمر** : العلماء وحملة الشريعة ، والسلطان العادل . وهذا الوالي - (خورشيد باشا) - رجل ظالم . وجرت العادة - من قديم الزمان - أن أهل البلد يعزلون الولاة ، وهذا شيء من زمان ، حتى الخليفة والسلطان إذا ساروا فيها بالجور ، فإنهم - (أهل البلد) - يعزلونه ويخلعونه .. (٢) (٣) .

فإذا كان هذا هو موقف الإسلام وعلمائه .. فأين هي ، الكهانة والثيوقراطية ، التي مر بها الإسلام ، كما مرت بها المسيحية ، والتي ناصبت حق الأمة في الديمقراطية وفي أن تكون مصدر السلطات العداء !!؟ ألم يكن علماء الإسلام - هنا - هم الدعاة إلى الديمقراطية الإسلامية ، وإلى أن تكون الأمة هي مصدر السلطة والسلطان !!؟

٣ - وهذا الخلاف الذي حدث بين السيد عمر مكرم وبين الوالي محمد علي

(١) النساء : ٥٩ .

(٢) الجبرني (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) ج ٦ ص ٢١٩ - ٢٢٣ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م . والرافعي (تاريخ الحركة القومية) ج ٢ ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

باشا .. هل يحق لمنصف يفقه حقائق تطورنا التاريخي أن يقيم شبهة بينه وبين الصراع الذي شهده الغرب بين ، السلطة الدينية ، و السلطة الزمنية ، ؟!

إن عمر مكرم كان الداعية الصلب لمبدأ حق الأمة - بل وواجبها - في أن تكون مصدر السلطات .. كما كان القائد المبرز لثورة الشعب في سبيل حقوقه ، ومنها الديمقراطية .. ومن ثم فلم يكن صراعه مع محمد علي صراعاً بين الدين ، وبين الدولة ، ، ولا صراعاً بين دعاة الحكم بالحق الإلهي وبين دعاة الحكم بالحق الطبيعي .. وإنما كان - في حقيقته وجوهده - صراعاً بين الثورة ، وبين الدولة ، بكل ماتعنيه هذه المصطلحات من دلالات (١) .

٤ - وإذا كانت أولى ثورتنا الشعبية الحديثة ، من أجل الديمقراطية وحق الأمة في أن تكون مصدر السلطة والسلطان ، كانت تلك التي قادها مجلس الشرح ، وعلماء الإسلام في سنة ١٨٠٥ م .. فلقد كانت ثورتنا الشعبية الثانية - لتحقيق ذات الأهداف - تلك التي قادها أحمد عرابي باشا (١٢٥٧ - ١٣٢٩ هـ / ١٨٤١ - ١٩١١ م) في سنة ١٨٨١ م .. ولم تكن - هي الأخرى - صراعاً بين دعاة الحكم بالحق الطبيعي وبين دعاة الحكم بالحق الإلهي ، وإنما كانت ثورة شعبية ضد الاستعمار الغربي ونفوذه والاستبداد الداخلي وأعوانه .. وهي لم تقطع الروابط مع الدائرة الإسلامية التي كانت ممثلة يومئذ في الإمبراطورية العثمانية ، وإنما رامت ترسيخ استقلال مصر في إطار كومنولث إسلامي ، ، يكون إطار انتماء حضاري وأداة مقاومة للزحف الاستعماري الطامع في عالم

(١) انظر دراساً عن عمر مكرم . مجلة (الهلال) عدد نوفمبر سنة ١٩٨٤ م وعدد فبراير سنة ١٩٨٥ م ..

الشرق والإسلام .. وعن هذه العلاقة بين : الاستقلال الوطنى ، لمصر وبين دائرة : انتمائها الإسلامى ، يقول عرابى : « إننا جميعا أبناء السلطان ، كأُسرة فى بيت ، ولكن ، كما هو الحال فى الأسرة . فنحن أهالى الأقطار الإسلامية لكل منا حجرة مستقلة ، يترك لنا أمر تنظيمها حسب إرادتنا ، حتى لا يسمح للسلطان نفسه بالتدخل فى ذلك (١) ، .. »

وبسبب من وضوح عداء هذه الثورة ، الديمقراطية ، للغرب .. وبسبب من وعيها بأهمية الانتماء المصرى للمحيط الإسلامى ، بما يمثله من روابط حضارية ، يذهب الدكتور لويس عوض فيهيّل على هذه الثورة التراب ، فيكشف بموقفه هذا من الثورة العرابية أن القضية عنده ليست ، الديمقراطية ، بقدر ما هى ، التغريب ، ، فإذا كانت ، ديمقراطية ، فى إطار الانتماء الإسلامى فهى مرفوضة ، ولن تكون مقبولة إلا إذا كانت بالمفهوم الغربى العلمانى ، وكجزء من ، القيم الغربية ، .. فعنده أن ، مشكلة العرابيين الحقيقية ليست موقفهم من الجيوش الغربية ، ولكن موقفهم من القيم الغربية (٢) .. ، ؟ !

هكذا تقوم ، حقائق الواقع ، ، كما قامت ، حقائق الفكر ، شاهدة على اختلاف المسيرة التطورية ، واختلاف الفكر النظرى بين أمّتنا العربية الإسلامية وبين الغرب الكاثوليكي إبان عصوره الوسطى وخلال مخاض نهضته الحضارية الحديثة .

(١) أحمد عرابى (كشف الأسرار) ج ١ ص ١٠٤ . طبعة دار الهلال . القاهرة سنة ١٩٥٨ م .

(٢) (المصور) العدد ٣٠٧٦ فى ٢٣ / ٩ / ١٩٨٣ م .

والآن ... نأتى إلى مناقشة دعوى الدكتور لويس عوض : « علمانية مصر الحديثة » ، وارتباط يفظتها ومشروعات نهضتنا الحديثة والمعاصرة بتبنى العلمانية وسيادتها .. إن الرجل يريد - مرة أخرى - أن يقفز فوق حقائق الفكر التى عرفتها الأمة تاريخيا ، وفى مطلع عصرها الحديث .. وفوق حقائق الواقع الذى صنعه هذه الأمة منذ أن أسلمت وتعربت وحتى مطلع عصرها الحديث ، ليقول - بلسان الحال والمقال - : ليكن !... لكن مصر قد تحولت ، بواسطة الدولة الحديثة ، ومن خلال مشروعات النهوض ، منذ حكم محمد على باشا وحتى جمال عبد الناصر إلى دولة « علمانية » ... وهو ادعاء لا بد من مناقشته ، وحوار أنصاره ، من خلال محاورة الدكتور لويس : أبرز المروجين لهذا الادعاء ..



عصر محمد علي باشا والعلمانية

ففيما يتعلق بحقبة محمد علي باشا ، ومشروعه النهضوى ، نجد الدكتور
لؤيس عوض يضمن مصورا مصر الحديثة وكأنها ، هبة بونايرت ، ؟!..
فيحدث عن محمد علي ومشروعه القومى النهضوى باعتباره الامتداد
لمشروع نابليون .. فعنده ، أن محمد علي قد :

١ - أحل نظرية ، الحق الطبيعى ، محل نظرية ، الحق الإلهى ، ..
٢ - وأحل ، القوانين الطبيعية ، التى وضعها الإنسان ، محل ، القوانين
الإلهية ، ..

٣ - وجعل التعليم بالكامل علمانيا ..

٤ - وأن الدراسات الإنسانية التى أبدعها الجبرئى (١١٦٧ - ١٢٣٧هـ /
١٧٥٤ - ١٨٢٢ م) قد رسخت أسس التفكير العلمانى ؟؟؟!..
٥ - وأن رفاعة الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ / ١٨٠١ - ١٨٧٣ م) قد

صنع ما صنعه الجبرئى ، من ترسيخ لأسس التفكير العلمانى ، وزاد عليه
مناهضته للرهبانية والكهنوت ؟؟؟! ..

تلك هى ، أدلة ، الدكتور لؤيس علي ، علمانية ، مشروع محمد علي

وتجربته .. وفيها يقول ، بنص كلماته : « ... ومع بونابرت ومحمد علي حلت
 « نظرية » ، الحق الطبيعي ، محل نظرية « الحق الإلهي » ، وحلت القوانين
 التي وضعها الإنسان محل القوانين الإلهية ، إلا فيما يتصل بقوانين الأحوال
 الشخصية ... في عصر محمد علي كانت علمنة التعليم كاملة ، وكان ما أرسى
 أسس التعليم العلماني الراسخة هو بعثات المائتي طالب الذين أوفدهم محمد
 علي إلى فرنسا وإنجلترا وإيطاليا والنمسا ... وكذلك العديد من المدارس التي
 أنشأها محمد علي في مصر ... ومع هذه وتلك « الألف كتاب » التي ترجمت
 إلى اللغة العربية تحت رعاية محمد علي ، وبالمثل رسخت أعمال الجبرتي
 والطهطاوي في مجال الدراسات الإنسانية أسس التفكير العلماني . لقد اجتاحت
 البلاد منذ أسس بونابرت المجمع العلمي المصري روح جديدة ، وكانت
 مناهضة الطهطاوي للرهبانية ، بل وللكنهوت ، هي المعبر الحقيقي عن روح
 العصر (١) ؛

ونحن - قبل أن نناقش هذه « الأدلة » الخمسة على « علمانية » مشروع
 محمد علي وتجربته ، ننبه على ثلاثة أخطاء وقع فيها الدكتور لويس ...
 أولها : أن تلاميذ البعثات العلمية التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا ليسوا
 مائتين ... وإنما هم ٣٣٩ طالبا ... (٢) .

(١) (المصور) العدد ٣٠٧٧ في ١٩٨٣/٩/٣٠ م .
 (٢) عمر طوسون (البعثات العلمية في عهد محمد علي وعباس وسعيد) ص ٤٠٤ - ٤٠٨
 طبعة القاهرة ١٩٣٤ م .

وثانيها : أن الكتب التي ترجمت في عهد محمد علي لم تبلغ الألف ، وإنما هي على وجه الدقة والتحديد ٢٢٧ كتابا (١) .

وثالثها : أن البعثة العلمية الفرنسية التي صحبت حملة بوناپرت ، والتي عملت بالقاهرة كفريق علمي ، لا يجوز وصفها بـ « المجمع العلمي المصري » . فلم يكن بمصر يومئذ علماء تجوز لهم عضوية المجامع العلمية .. و « علماء مصر » - ممثلين في الجبرتي - قد رأوا في التجارب الكيميائية البسيطة لعلماء هذه الحملة - عندما زاروا مقرها - شيئا من عمل الشيطان ؟! .. فعلماء هذه الحملة لم يكونوا مصريين ، حتى يسميهم الدكتور لويس « المجمع العلمي المصري » ، ووجودهم في مصر - كجزء من الحملة الاستعمارية الغازية - لا يعطيهم صفة « الوطنية والمواطنة » .. اللهم إلا إذا كان الدكتور لويس يرانا والفرنسيين « أمة واحدة » ، وما أظن أن عشقه للتغريب قد بلغ أو يبلغ به هذه الحدود ؟! .. فمجمع نابليون لم يكن مصرياً .. ومجمعنا العلمي المصري - هو شيء آخر ، حتى وإن حمل نفس الاسم الذي أطلقه نابليون على المجمع الفرنسي في مصر .. فالعبارة بالينية والجوهر والافتناء .. وليست بالأسماء ! .. والآن .. لننظر في « أدلة » الدكتور لويس علي « علمانية » مشروع محمد علي وتجربته ...

* هل - حقا - أخلت تجربة محمد علي بمصر نظرية « الحق الطبيعي » محل نظرية « الحق الإلهي » ؟؟ ..

(١) د. جمال الدين الشيال (تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي) الملاحق ص ٦ - ٣٩ طبعة القاهرة سنة ١٩٥١ م .

لقد سبق ورأينا كيف أن الفكر النظري للإسلام لم يعرف ولم يعترف بما سمي في الحضارة الغربية الكاثوليكية « الحكم بالحق الإلهي » ... وسبق ورأينا « الواقع المصري » أوائل القرن التاسع عشر ، في الفترة الزمنية التي تولى فيها محمد علي حكم مصر ، وقد خلا من أية ظلال لهذا « الحكم بالحق الإلهي » .. فعلماء الإسلام الذين تبلورت زعامتهم للأمة في « مجلس الشرع » قد عزلوا الوالي التركي « باسم الأمة » وبحق أهل البلاد « وبذات الاسم ونفس الحق عهدوا إلى محمد علي بحكم البلاد ... فلم يكن هناك « حق إلهي » كي يخلى مكانه « لحق طبيعي » .. وإن « اندماج » عقل الدكتور لويس في فكر الحضارة الغربية وأحداث تطورها الفكرى ووقائع صراعاتها التاريخية لن يستطيع - مهما اشتد - أن يغير واقع تطورها المتميز فيجعل من إسلامنا « كاثوليكية بابوية » ، ومن كلمات عمر مكرم التي تحدثت عن أن الوالي إنما يكون واليا « بشروط الأمة » التي لها أن تعزله وتخلعه وثقاته إذا سار فيها بالجور ، حتى ولو كان خليفة وسلطانا ، ... لن يستطيع « اندماج » عقل الدكتور لويس في « فكرية التغريب » أن يجعل من هذه الكلمات التي عبرت عن « واقع تطورها المتميز » ، حقا إلهيا ، ليقول إنه قد أخلى مكانه « في تجربة محمد علي » لنظرية « الحق الطبيعي (١) » ، ! ..

* وكذلك .. فإن حظ الحديث عن حلول « القوانين الطبيعية » محل « القوانين الإلهية » ليس بأوفر في الصدق من هذا الحديث الذي سبق عن حلول « الحق الطبيعي » محل « الحق الإلهي » في مصر محمد علي باشا ..!

(١) المصور - العدد ٣٠٧٦ في ٢٣ - ٩ - ١٩٨٣ م .

إن الإسلام القانوني لم يعرف ذلك الوضع الذي ساد في أوروبا الكاثوليكية ،
عندما هيمنت ، المؤسسة الكنسية المقدسة ، على القضاء ، واحتكرت حق
التشريع القانوني ، وأصبح تشريعها إنهياف مقدسا .. ففي الإسلام قليلة هي آيات
الأحكام في القرآن الكريم ، وأقل منها آيات ، الحدود ، ، هذه وتلك ، مع
الأحاديث النبوية الصحيحة التي تمثل ، السنة التشريعية ، ، إنما تمثل في
الجوهر والأساس : فلسفة التشريع القانوني ، وإطار الاجتهاد البشري الذي أوكل
إليه الإسلام إبداع القوانين وتطويرها وتغييرها ، وفقا لمصلحة الأمة المنظورة
دائما وأبدا ، بحكم اختلاف الزمان والمكان ، وفي اتساق مع فلسفة هذا الإطار
الشرعي ومثله ومقاصده .. وما الأحكام القليلة التي وردت في النصوص
القطعية الدلالة والقبول إلا ، نماذج ، تطبيقية للتشريع الإسلامي ، في «ثوابت»
لا خلاف عليها ولا اختلاف حياها ولا دخل فيها للتطور ، من مثل ، الحدود ،
التي تستهدف الحفاظ على النفس والعقل والنسب والعرض والدين ... فتعتبر
القوانين الإلهية ، لا يجوز إطلاقه على «فقه المعاملات» ، و«اجتهادات
الفقهاء» ، لأن هذا الفقه وهذه الاجتهادات هي «قانون - وضعي - إسلامي» ..
أما ، الوضع الإلهي ، فهو ممتثل في ، الشريعة ، التي هي «النهج» ، و«المثل»
و«المقاصد» وفلسفة القانون .. وليس في ، فقه المعاملات ، الذي هو ، قانون
الأمة ، ونمرة إبداع عبقريتها في ميدان «التشريع» ... وإن كلمات المشرع الفذ
اندكتور عبد الرزاق السنهوري (١٣١٣ - ١٣٩١ هـ / ١٨٩٥ - ١٩٧١ م) في
هذه القضية شديدة الوضوح .. فهو يقول : «إن الكتاب والسنة هما المصادر
العليا للفقه الإسلامي . وقد قصدت بالمصادر العليا أن أقول : إنها مصادر

تنتطوي - في كثير من الأحيان - على مبادئ عامة ترسم للفقه اتجاهاته ، ولكنها ليست هي الفقه ذاته ، فالفقه الإسلامي هو من عمل الفقهاء ، صنعوه كما صنع فقهاء الرومان وقضاة القانون المدني ، (١) .

هذا عن موقف الإسلام الرافض لهذه الثنائية التي عرفت بها أوربا الكاثوليكية - والتي سيطرت تجزئتها على فكر الدكتور لويس عوض - ثنائية : « القوانين الطبيعية » ، « القوانين الإلهية » ... !

ثم ... هل احترام الدكتور لويس حقائق تاريخ مصر القضائي في عهد محمد علي باشا ، عندما قال إن محمد علي قد غير القوانين التي كانت سائدة في المؤسسة القضائية ، وأحل « القوانين الطبيعية » التي وضعها الإنسان ، محل « القوانين الإلهية » ؟ .. هل احترام حقائق هذا التاريخ ؟ .. وهل احترام عقول القراء الذين حدثهم عن هذا التاريخ ؟ .. !

إن كلام الدكتور لويس يؤكد أن محمد علي قد غير المنظومة القانونية التي كانت سائدة قبل عصره في مصر وأنجز تغييرا في فلسفة القضاء المصري ... فهل لهذا الكلام حظ من « الصدق التاريخي » ؟ .. !

لقد كتب الجبرتي عما يقرب من عشرين عاما من عصر محمد علي ... وكتب أمين سامي باشا (١٢٧٤ - ١٣٦٠ هـ / ١٨٥٧ - ١٩٤١ م) موسوعته الفذة (تقويم النيل) ، وهي التي أرخت لعصر محمد علي يوماً بيوم ،

(١) السنيهوري (مصادر الحق في الفقه الإسلامي) - طبعة القاهرة - منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٧ م ، والنص منقول عن مجلة « المسلم المعاصر » ص ٧٨ عدد أبريل ١٩٧٥ م .

ورصدت جميع ما حدث بمصر في عهده من إصلاحات وأحداث .. فلم ترد
في (عجائب الآثار) ولا في (تقويم النيل) مجرد إشارة إلى أن تغييرا ما قد
حدث ، على عهد محمد علي في المنظومة القانونية التي كان يقضى بها
قضاة مصر في ذلك التاريخ !!..

أما عبد الرحمن الرافعي الذي أرخ لمصر ومسيرتها القومية ، فإنه يضع
يدنا على الحقيقة الكاملة في هذه القضية عندما يقول : إنه في عهد محمد
علي « لم يتغير النظام القضائي كثيرا عما كان عليه في عهد المماليك ، ولم
يدخل محمد علي في هذا النظام تعديلا أو إصلاحا ، غير أنه جعل للديوان
الخدوي اختصاصا قضائيا . وأنشأ سنة ١٨٤٢م هيئة قضائية جديدة تسمى
(جمعية الحقانية) ، جعل من اختصاصها محاكمة كبار الموظفين على ما
يتهمون به في عملهم ، وتحكم أيضا في الجرائم التي تحيلها عليها
الدواوين (١) ... » .

فإذا كانت ، حقائق التاريخ ، تقول إن قضاء مصر في عصر محمد علي -
وخاصة في التشريع القضائي - لم يشهد ، تعديلا أو إصلاحا ، .. فهل أحترم
الدكتور لويس عوض عقول قرائه ، وحقائق التاريخ الذي حدثهم عنه حديث
« المؤرخ » ، عندما قال إن عصر محمد علي قد شهد ، انقلابا ، تشريعيا حلت
به ، القوانين الطبيعية ، محل ، القوانين الإلهية ، ؟؟؟..

* ثم ... هل حقا أن محمد علي قد « جعل التعليم - بالكامل - علمانيا ..
وأرسى أسس التعليم العلماني بالبعثات التي بعث بها كي نتعلم في
أوروبا ، ؟؟؟.. »

(١) الرافعي ، عصر محمد علي ، ص ٦٢٠ - طبعة القاهرة ١٩٥١ م .

إن حقائق تاريخ التعليم بمصر في ذلك العهد - كما دونتها مصادر
الأمهات - تقول :

١ - إن الأزهر قد ظل المؤسسة التعليمية الأولى في عهد محمد علي ، وإن
لم يعد المؤسسة الوحيدة .. الأمر الذي ينفي مقولة : العلمنة الكاملة
للتعليم ، ... كما كان طلاب الأزهر ، الذين تكونت عقولهم تكويناً إسلامياً ،
هم مادة التعليم في المدارس الجديدة غير الأزهرية التي أنشئت في ذلك
العصر ، وكذلك كان خريجو الأزهر ، من العلماء ونجباء طلابه هم جمهور
طلاب البعثات التي ذهبت إلى أوربا ؛ ليضيفوا علوم القمندان العظمى ، إلى
علوم الشريعة والعربية ، التي حصلوها في الأزهر الشريف (١) .

٢ - إن مجموع المدارس الحديثة التي أنشئت في عهد محمد علي قد بلغ
خمساً وثلاثين مدرسة - ٤ ابتدائية - و٤ تجهيزية (ثانوية) - و٦ خصوصية
وصناعية - و٤ عالية - و١٧ حربية - على حين بلغ مجموع مكاتب تحفيظ
القرآن الكريم التي أنشأها محمد علي بالقاهرة والإسكندرية والأقاليم تسعاً
وأربعين مكتبة (٢) .. ونقد كان القرآن الكريم ، والفرائض الدينية مادتين من
مواد الدراسة بالمدارس الابتدائية الجديدة (٣) .. فأين هي : علمنة التعليم ،
الجزئية ، فضلاً عن : الكاملة ، ؟ ..!

(١) المرجع السابق ص ٦٤٧ .

(٢) أمين سامي باشا (التعليم في مصر) ص ٢٢ - ٥٥ من القسم الرابع من الملاحق .
طبعة القاهرة سنة ١٩١٧ م .

(٣) المرجع السابق . ص ٢ من القسم الثالث من الملاحق .

٣ - إن مراجعة تخصصات البعثات العلمية التي أرسلها محمد علي باشا إلى أوروبا تنفي الزعم بأن هذه البعثات قد ، أرست أسس التعليم العلماني الراسخة ، ... فقد ذهبت هذه البعثات لتتعلم ، العلوم والفنون العملية ، ، والخاصة ، بالتمدن المدني ، ، ولم يذهب مبعوث واحد لدراسة العلوم الإنسانية أو الاجتماعية أو الفلسفية ، التي تتصل بسبب ضعيف أو قوى بنهج الحضارة الغربية العلماني ، انذى يفصل الدين عن الدولة ، ويرسخ الفكر المادي في النظر إلى الكون وعلاقة المسببات بالأسباب ..

ونحن نعتقد أن الدكتور لويس عوض لو أخلص القصد في مراجعة تخصصات هذه البعثات - وهي مذكورة على سبيل الحصر - في كتابات رفاعة الطهطاوي وعمر طوسون وعبد الرحمن الرافعي ، لما تحدث عن ، إرساء هذه البعثات - وترسيخها لأسس التعليم العلماني ، ، ... فقد ذهبت هذه البعثات - التي بدأت سنة ١٨١٣ م وحتى بعثة سنة ١٨٤٧ م - لتتعلم :

١ - الفنون الحربية والإدارة العسكرية .

٢ - والملاحة والفنون البحرية .

٣ - والهندسة الحربية .

٤ - والمدفعية .

٥ - وصنع الأسلحة وصب المدافع .

٦ - وبناء السفن الحربية والمدنية .

٧ - وهندسة الري .

٨ - والميكانيكا .

- ٩ - والطباعة والحفر .
- ١٠ - والزراعة .
- ١١ - والتاريخ الطبيعى والمعادن .
- ١٢ - والكيمياء .
- ١٣ - والطب والجراحة .
- ١٤ - وفن إدارة الماكينات .
- ١٥ - وفن المعمار .
- ١٦ - ورسم الخرائط .
- ١٧ - والترجمة .
- ١٨ - والإدارة .
- ١٩ - والدبلوماسية .
- ٢٠ - والصياغة والجواهر .
- ٢١ - والغزل والنسيج والصباغة وتجهيز الأقمشة .
- ٢٢ - والسراجة .
- ٢٣ - وصناعة الجلود والأحذية .
- ٢٤ - وصناعة الأختام وتصنيع الشمع .
- ٢٥ - وصناعة النقش والدهان .
- ٢٦ - وصناعة الساعات .
- ٢٧ - وصناعة الصينى والفخار .
- ٢٨ - وصناعة التنجيد والفراسة .

٢٩ - اللغات .

٣٠ - وعلم توازن القوى والآلات .

٣١ - والطبوغرافيا .

٣٢ - والتحصينات .

٣٣ - وفن معدن الفحم .

٣٤ - وصناعة الحرير .

٣٥ - وصناعة الورق^(١) ... وغيرها من : العلوم الطبيعية وتطبيقاتها .

وهذه العلوم الطبيعية وتطبيقاتها - وهي التي لا وطن لها ، ولا تتلون باختلاف الحضارات والفكریات « الإيديولوجيات » - هي التي يسميها الطهطاوي : العلوم والمعارف البشرية ... والفنون العلمية التي يظهر أثرها بالتجريب ، ، ويميز بينها وبين : العلوم النظرية .. من مثل الاعتقادات الفلسفية الأوربية الخارجة عن قانون العقل بالنسبة لغير الأوربيين .. والتي هي حشوات ضلالية مخالفة لسانن الكتب السماوية : والتي ينصح كل من يريد الاطلاع عليها ، أن يتمكن - أولا - من الكتاب والسنة ، حتى لا يغتر بذلك ولا يغتر اعتقاده وإلا ضاع يقينه ، !؟ .. لقد ذهبت هذه البعثات المصرية لتنهل من العلوم العلمية .. ولم تذهب لتتعلم ما يشوه أو يززع تصوراتها الفلسفية وروحها الحضارية المؤمنة وقيمها الإسلامية المتميزة .. ولم تنظر إلى علوم

(١) انظر الرافعي (عصر محمد علي) ص ٤٦٤ - ٤٧٣ ، ٤٧٨ ، ٤٨٢ ، ٤٨٩ ، ٤٩٤ ،

٤٩٥ . وانظر عمر طوسون (البعثات العلمية) ص ٢٣ ، ٢٤ ، ٢١٩ ، ١١ ، ١٦٢ ،

١٦٣ . وانظر رفاعة الطهطاوي (الأعمال الكاملة) ج ٢ ص ٢١ - ٢٢ طبعة بيروت -

تحقيق : د . محمد عمارة - سنة ١٩٧٣ م .

الغرب الأوربي ككل متحد ومترابط ، وإنما ميزت بين ما تحتاجه ليقوى مشروعاتها الحضارية المتميز ، وبين ما يطمس تميز هذا المشروع .. وعن هذا التمييز الواعي نتحدث أبحاث الطهطاوي ، فنقول :

أيوجد مثل باريس ديار شمس العلم فيها لا تغيب
وليل الكفر ليس له صباح أما هذا ، وحكم ، عجيب !

فهذه المدينة - كباقي مدن فرنسا وبلاد الإفرنج العظيمة - مشحونة بكثير من الفواحش والبذع والضلالات وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية ، (١) !

فأين هي ، العلمانية ، التي جلبتها من أوروبا إلى مصر هذه البعثات ؟ .. وهل في دعوى ، ترسيخ هذه البعثات لأسس التعليم العلماني ، - ومن أولياته طرح الدين جانبا - احترام لحقائق التاريخ ، والتزام بالأمانة العلمية حيال عقول القراء ؟ ..

* أما عن الاستدلال على « علمانية مصر » في عهد محمد علي ، وعلمانية مشروعه النهضوي ، بالدراسات الإنسانية التي أبدعها الجبرتي ، والتي رسخت أسس التفكير العلماني ، - على حد تعبير الدكتور لويس عوض - ... فلقد كان من الممكن المرور بمثل هذا ، الدليل ، دون تكلف الرد عليه .. وذلك أننا لو حملناه على محمل ، النقطة الشاذة ، لما خرجنا بذلك عن المؤلف ؟ ..

فالمعروف والمتعارف عليه ، لكل من قرأ الجبرتي - في كتابيه (عجائب

(١) (الأعمال الكاملة) ج ٢ ص ١٥٩ ، ١٦٠ ، ٧٩ .

الآثار في التراجم والأخبار) و (مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين) - أن الرجل لم يكن المعبر عن روح تجربة محمد علي ومشروعه النهضوي ، وإنما كان الناقد اللاذع لجوانب كثيرة من هذه التجربة ، حتى لقد أثار البعض شبهات حول علاقة محمد علي بموت هذا المؤرخ العظيم !... ومن المعروف والمتعارف عليه أن عواطف الجبرتي كانت مع قيادة علماء الدين وه مجلس الشرع ، وأنه كان دائم الانتقاد لشيخوخ الأزهر الذين تخلوا عن السيد عمر مكرم في صراعه ضد انفراد محمد علي بالسلطة في مصر ، كما كان نقده للسيد عمر مكرم مشوباً ونابعا من شماتته فيه ؛ لأنه هو الذي قاد عملية تنصيب محمد علي والياً على البلاد ... كذلك من المعروف والمتعارف عليه أن نقد الجبرتي للدولة العثمانية لم يخرج عن إطار الجامعة الإسلامية ، التي كان يرى أن ارتباط مصر بها هو الوضع الطبيعي والمفيد ... كل ذلك معروف ومتعارف عليه لكل من قرأ الجبرتي .. ولقد كان من الممكن الاكتفاء به ، والمرور دون تعليق على « نكتة » علمانية الجبرتي و « دراساته الإنسانية » التي رسخت أسس التفكير العلماني ... ولكننا أثرنا تقديم بعض كلمات الجبرتي التي تحدد مكانه من العلمانية والفكر العلماني ..

لقد أرخ الجبرتي لأحداث الحملة الفرنسية على مصر .. وكتب عن صراع الدولة العثمانية ضد جيش هذه الحملة .. فإذا علمنا أن هذا المؤرخ القذ قد تحدث عن هذه الحملة - التي يراها الدكتور لويس عوض الطليعة الرائدة لعلمنة مصر - تحدث عنها الجبرتي باعتبارها « كفرة الفرنسيين » .. وعن احتلال فرنسا لمصر بقوله : « وأناخت دولة الكفار بكلها على هذا القطر العظيم » .. وتحدث عن جلاء جيش هذه الحملة عن مصر ، وعودة مصر ولاية عثمانية ، فقال : « حمدا لمن جعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، وجعل

الدولة العثمانية .. بهجة الدين والدنيا ... وأعلن أن جهود السلطان العثماني ووزيره وجيشه هي التي منعت ، عموم الرزية ، بالحملة الفرنسية ، وأنه لولا هذه الجهود ، لصارت القضية أندلسية ، ، أي لوقعت مصر في قبضة الكفر كما حدث للأندلس ؟! ... ولذلك فلقد تحدث عن السلطان العثماني ، فوصفه ، بالملك الأعظم ، والسلطان الأفخم ، غياث المسلمين ، ملاذ المؤمنين ، مالك رقاب الأمم ، ملجأ العرب والعجم ، حافظ ناموس الشريعة الغراء بقوة سطوته .. سيف الله المسلول ... المحنت بعناية الرب الكريم ، مولانا السلطان الغازي سليم ، ... كما تحدث عن وزيره : ، رافع علم الإسلام ، مشيد الشريعة والأحكام ... بهجة الدين والدنيا ... منقذ الأمة المحمدية من التردى في كل مهلكة ... الذي أزال دولة الكفار ، وجدد دولة الأخيار ... ، (١) .

فهذه هذه هي : العلمانية ، ، بما تعنيه من فصل الدين عن الدولة .. والقبول لفكرية فرنسا بوناپرت ، والرفض لفكرية الدولة العثمانية ؟! .. وهذه هي الدراسات الإنسانية التي رسخ بها الجبرتي أسس التفكير العلماني ، ، على حد تعبير الدكتور لويس ؟!؟ ..

* أما استدلال الدكتور لويس عوض على علمانية مصر في عهد محمد علي ب ، علمانية رفاعة الطهطاوي ، ، وبدراسة الإنسانية التي رسخت أسس التفكير العلماني .. فإنه ترديد ، لخطأ شائع ، في كتابات الدكتور لويس وعدد من المتغربين العلمانيين ، ، الذين يخذعون قراءهم عندما يعلنون عن انتصار الطهطاوي لـ ، المذهب الإنساني ، ، ويضمرون أن مرادهم بـ ، الإنساني ، هو العلماني ، دون أن يدري قراؤهم هذا ، المراد ، ؟!؟ ..

(١) الجبرتي (مظهر التقديس) ص ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

صحيح أن الطهطاوى قد تجاوز إطار فكرية العصور المملوكية العثمانية ،
التي وقفت بتقسيم البشر عند : « المؤمنين » و « الكفار » ... وصحيح أنه اعتمد
التقسيم « الحضارى » ، الذى ميز - رغم العقائد الدينية - بين « المتوحشين »
و « الخشنيين » و « المتحضرين » (١) .. لكن الطهطاوى قد آمن بذلك . ودعا إليه
ليفتح للعرب والمسلمين باب الاستفادة من الحضارات الأخرى ومن
المتحضرين الآخرين ، حتى ولو كانوا غير مسلمين .. وذلك دون أن يتخلى
الرجل عن « الإطار المرجعى » المتميز للحضارة العربية الإسلامية ، أو يتبنى
« الإطار المرجعى » - المتميز هو الآخر - للحضارة الغربية العلمانية .

ولقد خيل إلى فى مرحلة من مراحل دراساته عن الطهطاوى أن الرجل قد
اتخذ موقف « التردد » ، حيال « علمانية الحضارة الغربية » (٢) ، لكن التقدم فى
وعى نصوص الطهطاوى وفقه كتاباته قد بلغ بى درجة اليقين برفض الرجل
للعلمانية الغربية رفضاً واعياً بحقيقتها المخالفة للإطار المرجعى لحضارته
العربية الإسلامية ..

لقد كان الطهطاوى على وعى كامل وعميق بأن « العلمانية » هى « الإطار
المرجعى » للحضارة الغربية .. وأن هذه العلمانية تعنى : الاعتماد على « العقل »
دون « النقل والوحى » .. وإرجاع كل « المسيبات » إلى « النواميس الطبيعية »
وحدها ، دون القوة الإلهية الخالقة والمديرة للكون .. واعتماد « العقل » وحده
مصدراً للقوانين ، دونما نظر إلى « الشريعة الإلهية » ومقاصدها وأحكامها ..

(١) (الأعمال الكاملة) ج ٢ ص ١٦ .

(٢) (انظر كتابنا (رفاة الطهطاوى : رائد التنوير فى العصر الحديث) ص ١٧٨ ، ١٧٩ .
طبعة القاهرة ، وبيروت سنة ١٩٨٤ م .

وأن هذه العلمانية لا تقيم للدين وزناً فيما يتعلق بسياسة الدولة وتنظيم المجتمع وتنمية العمران ...

كان الطهطاوى على وعى بهذه الحقائق ، عندما تحدث عن أهل باريس ، فقال : « إن أكثر أهل هذه المدينة إنما له من دين النصرانية الاسم فقط ، حيث لا يتبع دينه ، ولا غيره له عليه . بل هو من الفرق المحسنة والمقبحة بالعقل ، أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب .. ولذلك فهو لا يصدق بشيء مما فى كتب أهل الكتاب لخروجه عن الأمور الطبيعية ... (١) » .

وكما وعى الطهطاوى ، علمانية انخرب ، « باعتبارها ، الإطار المرجعى ، للحضارة الغربية ، الذى يعتمد ، الدنيا ، دون ، الدين ، و ، العقل ، دون ، النقل ، و ، النواميس الطبيعية ، دون ، الشريعة ، .. فلقد وعى تميز حضارته الغربية الإسلامية ، بإطار مرجعى ، يجمع ما بين ، العقل ، و ، النقل ، و ، الطبيعة ، و ، الشريعة ، و ، الدنيا ، و ، الدين ، .. وكتب عن هذه الحقيقة المحورية والهامة يقول : « إن تحسين النواميس الطبيعية لا يعتمد به إلا إذا قرره الشارع ... والتكاليف الشرعية والسياسة ، التى عليها مدار نظام العالم - مؤسسة على التكاليف العقلية الصحيحة الخالية عن الموانع والشبهات ؛ لأن الشريعة والسياسة مبنيتان على الحكمة المعقولة لذا أو التعبدية التى يعلم حكمتهامولى سبحانه ، ونسب لنا أن نعتد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه ... (٢) » .

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٧٧ .

(٢) المصدر السابق . ج ٢ ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ .

وهو لا يقف عند حدود الوعي الذي ميز بين حضارتنا العربية الإسلامية وبين الحضارة الغربية ، باختلاف ، الإطار المرجعي ، لكل منهما ، حيث وازنت حضارتنا وألفت بين ، الأقطاب ، ، وغاب هذا التوازن عن ، الإطار المرجعي ، العلماني للحضارة الغربية .. لا يقف الطهطاوي عند حدود هذا الوعي ، وإنما يتعداه ليعلن أن من ثمرات امتياز حضارتنا الإسلامية - والتي هي في ذات الوقت أسباب لهذا الامتياز والتميز - أن الإسلام هو ، دين ، و دولة ، ، و شرع ، ، و عبادات ، ، و شريعة مدنية ، .. فيقول : ، ، والذي يرشد إلى تزكية النفس هو سياسة الشرع .. ومرجعها الكتاب العزيز .. الجامع لأنواع المطلوب من المعقول والمنقول ، مع ما اشتمل عليه من بيان السياسات المحتاج إليها في نظام أحوال الخلق ، كشرع الزواجر المفصلية إلى حفظ الأديان ، والعقول ، والأنساب ، والأموال ، وشرع ما يدفع الحاجة على أقرب وجه يحصل به الغرض ، كالبيع والإجارة والزواج وأصول أحكامها ، فكل رياضة لم تكن بسياسة الشرع لاتثمر العاقبة الحسنى .. !

ولا يكتفى الطهطاوى بهذا التصريح الذى يؤكد مرجعية الإسلام فى تنظيم الدنيا والدولة والتشريع للقوانين - الأمر الذى ينفى عثمانيته نفياً قاطعاً - .. وإنما يذهب لينتقد « علمانية الحضارة الغربية » ، ويسفه المنطق العثماني فيقول : « ... ولا عبرة بالنفوس القاصرة ، الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا إليها تحسناً وتقبيحاً ، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود ، بتعدى الحدود ، فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع ، لا بطرق العقول المجردة . ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفساد ، ولا يناقى المتجددات المستحسنة التى يخترعها من منحهم الله تعالى العقل

وَأَهْمُهُمُ الصَّنَاعَةُ ... (١) .

فَهَلْ بَقِيَتْ - بَعْدَ ذَلِكَ - شِبْهَةٌ ، فِي رَفْضِ الطُّهَطَاوِيِّ ، لِلْعِلْمَانِيَّةِ ، ؟..؟

وَأَيْنَ هِيَ ، عِلْمَانِيَّةُ مِصْرَ ، وَ ، مِصْرُ الْعِلْمَانِيَّةِ ، - عَلَى عَهْدِ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ -
تِلْكَ الَّتِي نَحْدُثُ عَنْهَا الدُّكْتُورُ لُؤَيْسٌ ..؟؟

وَأَيْنَ هُوَ حَظُّ ، الْأَدَلَّةِ ، الَّتِي سَاقَهَا مِنَ الْجَدِيدَةِ وَالصَّدِيقِ وَالْمَوْضُوعِيَّةِ
وَالْأَمَانَةِ فِي الْإِتْسَاقِ مَعَ حَقَائِقِ الْفِكْرِ وَوَقَائِعِ التَّارِيخِ ؟..؟



(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ .

عصر الخديوى إسماعيل والعلمانية

وعلى ذات الدرب يمضى الدكتور لويس عوض فى محاورته ، الجريئة ، مستهدفا ، تبيين ، وجه العلمانية ، وتمويه حقيقتها بتغليف سمها كى يبتلعه القارئ فى محيطنا العربى الإسلامى ، فنراه يصور لقرائه أن كل مشاريع نهضتنا الحديثة قد كانت علمانية ... وأن بلادنا قد اكتملت علمانيتها تحت قيادة ، الحكام - المصلحين ، الذين عرفتهم فى عصرها الحديث ..

وعند الدكتور لويس عوض أن ، الحقبة الثانية ، من ، أحقاب مصر العلمانية ، كانت تلك التى حكم فيها الخديوى ، العظيم ، - كما يصفه - إسماعيل ، وهى الحقبة التى امتدت سنة عشر عاما (١٨٦٣ - ١٨٧٩ م) ..

أما عباراته ، التى يسوق فيها ، أدلته ، على ، علمانية مصر ، فى عصر الخديوى إسماعيل ، فإنها تقول :

... ويتولى إسماعيل الذى :

١ - كان يؤمن بمصر الأوربية ، بدأت من جديد إعادة بناء الدولة الحديثة العلمانية فى مصر بكل مصادميتها ..

٢ - الدولة القومية .. ذات المؤسسات البرلمانية ...

٣ - وإدخال قانون نابليون ، في الستينات من القرن التاسع عشر ، بوصفه القانون الرسمي في مصر فلقد بلغت علمنة القوانين المصرية مدها الكامل عندما أدخل الخديوي إسماعيل قانون نابليون بوصفه النظام القضائي الرسمي في مصر ، وأنشأ لجنة برئاسة رفاعة الطهطاوي ليترجم قانون نابليون إلى اللغة العربية .

ولقد رسخت السنوات الست عشرة من حكم إسماعيل أسس العلمانية في مصر الحديثة (١) .

تلك هي عبارات الدكتور لويس التي تسوق الأدلة الثلاثة على : رسوخ أسس العلمانية في مصر الحديثة ، تحت حكم الخديوي إسماعيل ..

وإذا كنا نعتقد الاعتقاد الجازم بتناقض هذه المقولة مع حقائق الفكر ووقائع التاريخ المصري في عهد الخديوي إسماعيل .. فإننا نعترف بوجود : شبهات ، في هذه المقولة ، قد جعلت منها فكراً شائعاً في أوساط كثير من الباحثين والقراء . وهي : شبهات ، نابعة من : أخطاء تاريخية شائعة ، ولا علاقة بينها وبين حقائق الفكر ووقائع التاريخ ولذلك وجب علينا - كما صنعنا به - أدلة ، علمانية مصر في عهد محمد علي - أن نصنع به : أدلة ، علمانية على عهد الخديوي إسماعيل ... أن نعرض هذه : الأدلة ، على حقائق الفكر ووقائع التاريخ ، كما جاءت في أمهات مصادر التاريخ الذي أرخ لمصر في تلك السنوات ..

(١) (المصور) العدد ٣٠٧٦ في ٢٣ / ٩ / ١٩٨٣ م . والعدد ٣٠٧٧ في ٣٠ / ٩ / ١٩٨٣ م .

* وأول هذه ، الأدلة ، ، وأكثر هذه ، الشبهات ، شيوعا هو « إيمان الخديوي

إسماعيل بمصر الأوربية » ..

حقيقة لقد شاعت الكلمات « المنسوبة » إلى الخديوي إسماعيل ، والتي نقول

على لسانه : « إنني أريد أن أجعل من مصر قطعة من أوربا » ..! ولقد حدثنا

الدكتور طه حسين (١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ / ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م) في كتابه - الذي

مثل حقبة تغريه - (مستقبل الثقافة في مصر) عن هذه الكلمات ، فقال إنها لم

تكن عبارات مجازية ، وإنما كانت نهجا نهجه الخديوي إسماعيل ، وحوله إلى

حقيقة عاشتها مصر في ذلك التاريخ ..

لكن هل حقا ، أراد ، الخديوي إسماعيل جعل مصر قطعة من أوربا

العثمانية ؟ .. وهل سعى في سبيل تحقيق هذه ، الإرادة ؟ .. وهل تحققت هذه

« الإرادة » ، في الفكر والواقع المصري ، على عهد الخديوي إسماعيل ؟ ..

إن وقائع التاريخ تنفي هذا ، الوهم ، الذي تحول إلى ، خطأ شائع ، في

الحركة الفكرية والثقافية لفترة تجاوزت القرن من الزمان ..! فلم تكن ، إرادة ،

إسماعيل أن يجعل من مصر قطعة من أوربا ، بسلخها عن حضارتها الشرقية ،

وإنما كانت تلك هي إرادة الاستعمار الأوربي ، الذي زاد تدخله في شئون مصر

إبان حكم إسماعيل .. وعندما تحدث إسماعيل في هذا الأمر فإنه لم يكن

يتحدث عن رغبة له في تحويل مصر إلى قطعة من أوربا ، وإنما كان يصف

الواقع الذي فرضه الاستعمار على مصر ، بواسطة « صندوق الدين » ، و « لجنة

التحقيق العليا الأوربية » ، التي فرضت الوصاية الأوربية على مصر ، بحجة

ضمان الوفاء بسداد ديون مصر قبل المصارف الأوربية .. فلقد كان الخديوي

يصف واقعا .. ويتحدث بلسان من يستسلم أمام « إنذار » ، لجنة التحقيق العليا الأوربية ، .. ولسان حاله - بل ومقاله - يعلن استنكاره لواقع تحويل مصر إلى قطعة من أوربا .. ولا يعلن عن إرادة المريد واختيار المختار ١٩ ..

فقصة هذا الأمر : أن عضوا لجنة التحقيق العليا الأوربية ، السير ريفرس ولسن ، قد قابل الخديوي إسماعيل في ٢٣ أغسطس ١٨٧٨ م ليعرف رأيه في تقرير اللجنة التي فرضت الوصاية الأوربية على مصر .. وفي هذه المقابلة أعلن الخديوي الخضوع لما جاء في هذا التقرير من توصيات .. وقال الخديوي للسير ريفرس ولسن ، ضمن ما قال ، تعبيرا عن الخضوع للإنذار ، وبصيغة الوصف لهذا ، الاتجاه ، الذي يفرضه التدخل الأجنبي على مصر ، قال الخديوي إسماعيل : « إن بلادى لم تعد فى أفريقية ، بل نحن الآن قطعة من أوربا ، ...!!٩ » (١) .

فأين هي « إرادة » إسماعيل أن « يجعل » مصر قطعة من أوربا ١٩ ..

وإذا كان إسماعيل قد عزل بعد هذا التاريخ عشرة أشهر فقط - في ٢٦ يونية ١٨٧٩ م - فأين هي السنوات الست عشرة التي وضع فيها إسماعيل هذه « الإرادة » موضع الممارسة والتطبيق ، حتى « رسخت أسس العثمانية في مصر » على يديه ، كما يقول الدكتور لويس ١٩ ..

* والدكتور لويس عوض « يستدل » على علمانية الخديوي إسماعيل ، وعلمانية مصر في عصره بنزعة الاستقلال التي كانت لدى الخديوي عن

(١) (الرافعي) (عصر إسماعيل) ج ٢ ص ٧٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨ م .

الدولة العثمانية .. وفضلا عن أن هذه النزعة لا تعقل جديدا بالنسبة للذين حكموا مصر العربية الإسلامية منذ عهد أحمد بن طولون (٢٢٠ - ٢٧٠ هـ / ٨٣٥ - ٨٨٤ م) فلقد نبعت هذه النزعة الاستقلالية من طبيعة الدور الرياى والقيادى لمصر ، ومن إمكاناتها الحضارية التى لم ينشق معها وضع ، الولاية التابعة ، لعاصمة الخلافة .. وهى نزعة لا علاقة لها بالعلمانية ، وإلا لكان الطولونيون والأخشيديون ، والفاطميون - الذين جعلوها مركز خلافة تتبعها الولايات - والأيوبيون - الذين جعلوها مركز السلطنة - ومن بعدهم المماليك - الذين جعلوها مركز الخلافة والسلطنة معا - وإلا كان جميع هؤلاء - « بمنطق » الدكتور لويس - علمانيين ؟!.. نقول : إنه فضلا عن هذه الحقيقة التى تقف خلف نزعة الاستقلال عند الخديوى إسماعيل ، والتى عبرت عن « حقيقة مصرية » عاشتها مصر ومارستها منذ إبلاها من نقابة القهر البيزنطى ، الذى انتهت آثاره باستقلال مصر على يد أحمد بن طولون ... فإن هذا الاستقلال لم يخرج بمصر عن دائرة الانتماء الحضارى للجامعة الإسلامية ، ولم يجعلها تدير ظهرها للمسئوليات القيادية والريادية نحو محيطها الإسلامى ، تلك المسئوليات التى كانت جوهر أسباب هذا الاستقلال ..

بل إننا نستطيع أن نقول : إن نزعة الاستقلال عند الخديوى إسماعيل ، والتى تجسدت فى فرمانات التى حصل عليها من السلطان العثمانى ، لم تتجه بمصر إلى « حرية المستقل » التى تحققت لها على يد محمد على - مثلا - وإنما وقفت بمصر الخديوى إسماعيل عند « سلبات الاستقلال » - إن جاز هذا التعبير - فغير ما حققته للخديوى من حصر توارث العرش فى ذريته هو ، نراها قد

أطلقت يده في التعامل وعقد الالتزامات والقروض المالية مع المصارف الأوربية ، الأمر الذي قاد مصر إلى السقوط في قبضة النفوذ الأجنبي ، حتى لقد فرصت عليها وصاية الداندين ، وانتهى الأمر إلى الاحتلال الإنجليزي السافر ١٨٨٢ م .. كما أن ، الحقوق الاستقلالية ، التي حصل عليها الخديوي في التشريع والتفنين إنما كانت مكرسة لإنشاء المحاكم القنصلية والمختطة التي اقتضتها السيطرة الأوربية المتزايدة على مقدرات البلاد ١٩ ..

فلا ، الاستقلال المصري ، - تاريخيا - مرتبط بالعلمانية .. ولا هو بالنقيض لانتماء مصر إلى حضارتها الإسلامية ، ولا هو بمانع لها من النهوض بدور القلب والعقل والقائد والقاعدة بالنسبة لما حولها من جيران ... كما أن هذا ، الاستقلال ، الذي عرفته تحت قيادة الخديوي إسماعيل لم يكن كله ، خيرا وبركة ، ، كما كان حاله على عهد محمد علي باشا !..

ثم .. إننا نسأل الدكتور لويس : من قال إن الدولة ، القومية - الديمقراطية ، هي الثمرة والقرين ، للعلمانية ، حتى تكون نزعة الخديوي إسماعيل ، الاستقلالية ، ، واتجاهه إلى إقامة المؤسسات البرلمانية دليلا على علمانيته وعلمانية مصر في عصره ؟؟ ..

إن دولة ، ولاية الفقيه ، التي يقودها آية الله روح الله الضميني ، في إيران - وهي النقيض الصارخ للعلمانية - هي دولة ، قومية ، حتى النخاع ١٩ .. وجميع الدول الفاشية والنازية الأوربية - وهي النقيض الصارخ للديمقراطية - كانت ، علمانية ، حتى النخاع ١٩ .. فليس هناك تلازم بين ، القومية - الديمقراطية ، وبين ، العلمانية ، .. وإنما التلازم قائم بين ، العلمانية ، وبين ، فصل الدين عن الدولة ، فقط لا غير !..

* أما ، سيد أدلة ، الدكتور لويس على عثمانية مصر الخديوى إسماعيل ، وهو ، ترجمة قانون نابليون فى ستينات القرن التاسع عشر ، بواسطة لجنة رأسها رفاعة الطهطاوى ؛ ليكون القانون الرسمى بمصر ، والنظام القضائى الرسمى لها ... ، أما هذا ، الدليل ، - وهو ، سيد أدلته ، - فإنه يكشف - هو الآخر - عن ، مازق ، جرد دعاوى الدكتور لويس من الحد الأدنى للأمانة اللازمة فى تعامل الكاتب - أى كاتب - مع حقائق الفكر ووقائع التاريخ ؟! ... إن هذا ، الدليل ، من ، أدلة ، الدكتور لويس على عثمانية مصر الخديوى إسماعيل يبلغ فى ، الزيف ، حد ، الفضيحة التاريخية ، ... ولدينا على ما نقول كل حقائق الفكر ووقائع التاريخ التى سجلتها أمهات المصادر التى أرخت لمصر فى عهد الخديوى إسماعيل .. وهى حقائق ووقائع نسوقها - موثقة - فى عدد من النقاط :

١ - بعد عدة أشهر من تولى الخديوى إسماعيل عرش مصر ، قام برحلته إلى الآستانة .. وعندما عاد من هذه الرحلة أصدر ، إرادة ، إلى شريف باشا ، رئيس ، مجلس الأحكام ، ، يحدد فيها أن ، المجموعة القانونية ، التى أحضرها معه من الآستانة ، والمسماة بـ ، الدستور ، هى القانون المعتمد ، فى جميع قضايا الجنايات وسائر الأحكام ، فى القضاء المصرى .. وتاريخ هذه ، الإرادة ، ١٨ محرم ١٢٨٠ هـ / ٥ يونيو ١٨٦٣ م .. ونصها : ، حيث إن المجموعة القانونية المطلق عليها اسم الدستور ، والتى أحضرتها من الآستانة قبل مدة ، وأرسلنا منها نسخة إليكم ، ستصير مرجعية الإجراء فيما بعد ، وحيث إنه توجد نسخ عديدة منها تحت الطبع ، فعند ختام طبعها يجب أن ترسلوا نسخا منها

لجميع المجالس ، وأن تهتموا بالتنبيه وإعلان الجهات اللازمة بأن القانون نامه
الهامايونى ، الذى كان دستورا للعمل لغاية الآن ، سيصبح منسوخا وملغى
الحكم ، وأن هذا الدستور سيكون معتبرا ومعمولا به فى جميع قضايا الجنايات
وسائر الأحكام . فذلك حررنا لكم هذا ، (١) ففى هذا ، التغيير الأول ، للنظام
المصرى ، اعتمد الخديوى إسماعيل ، المجموعة القانونية ، العثمانية - وهى
إسلامية .. وليست علمانية - مرجعا للقضاء المصرى ..

٢ - ولم يحدث الخديوى إسماعيل تغييرا فى ، القضاء الوطنى ، ، إلا فى
حدود ، الإضافة والتوسع ، لما كان قائما فى عصر محمد على ... فكان
(المجلس الخصوصى) - وهو بمثابة ، مجلس النظار ، - مع (مجلس الأحكام)
- الذى هو امتداد (للجمعية الحقيقية) التى أنشأها محمد على ١٨٤٢ م - كان
هذان المجلسان معا - مجتمعين - يكونان ، السلطة التشريعية ، فى مصر ،
وكان (المجلس الخصوصى) مكونا من ، كبار الذوات - أى رجالات الدولة ،
والعلماء ، - أما (مجلس الأحكام) فكان مكونا من ، تسعة من الكبراء ومن
عالمين ، أحدهما حنفى والآخر شافعى ، ..

ففى هذه ، السلطة التشريعية ، كان الفكر الإسلامى - وليس العلمانى -
حاضرا بواسطة هؤلاء العلماء .. أما التوسع الذى حدث فى دوائر المحاكم ،
فإنه قد أضاف إلى ، المحاكم الشرعية ، - التى هى ، قضاء البلاد ، - مجالس
- أو محاكم - الأقاليم ، الفصل فى المسائل المدنية والتجارية ، وفى كل مجلس -

(١) أمين سامى باشا (تقويم النيل) المجلد الثانى من الجزء الثالث - ص ٤٩٩ . طبعة
القاهرة سنة ١٩٣٦ م .

محكمة . « اثنان من العلماء ، بوظائف مفتين ، أحدهما حنفى والآخرا شافعى » .. وكان العمل أمام (مجلس الأحكام) و (مجالس الأقاليم) يجرى طبقا لقانون العثماني والقوانين التي أصدرها الخديوى ، (١) فلم يحدث فى سلطة التشريع ، ولا فى « دوائر القضاء » تغيير ، علماني « بهذا الإصلاح الذى أدخله الخديوى إسماعيل .

٣ - وبعد تسع سنوات من حكم إسماعيل ... وبعد خمس سنوات من ترجمة اللجنة التي رأسها رفاعة الطهطاوى لقانون نابليون .. أى فى حقبة السبعينات من القرن التاسع عشر ، أصدر الخديوى إسماعيل فى ٢٣ شوال ١٢٨٨ هـ / ٥ يناير ١٨٧٢ م قراراً بتعيين مفتى الحنفية وشيخ الأزهر ومفتى الجيزة أعضاء فى (المجلس الخصوصى) ، الذى هو المرجع فى أكثر أمور الحكومة ، وذلك للنظر فى القضايا الشرعية ، (٢) ..

فليس هذاك - حتى هذا التاريخ - أثر لـ « علمنة » القانون والقضاء المصريين ! ..

٤ - أما « حكاية » ترجمة قوانين نابليون ، التى يقول عنها الدكتور لويس إنها « قد بلغت بعلمنة القوانين المصرية مدها الكامل » فإنها لا تخرج عن حدود « الوهم - أو الخطأ - الشائع » - إن أحسن الظن - وقد تدخل فى عداد « جرائم تزيف التاريخ » !! ..

(١) (الرافعى (عصر إسماعيل) ج ١ ص ٤٤ - ٤٧ .

(٢) (تقويم النيل) المجلد الثانى من الجزء الثالث ، ص ٩٧٩ .

صحيح أن لجنة برئاسة رفاعه الطهطاوى قد أنجزت ترجمة مجموع قوانين نابليون (تعريب القانون الفرنساوى) وطبعته مطبعة بولاق - ١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م - وفى هذه المجموعة : القوانين المدنية ، والبلدية ، والمحاكمات ، والمرافعات ، وتحقيق الدعاوى ، والمدافعات ، والحدود ، والجنايات ... لكن هذه الترجمة لم تكن بغرض : علمنة قانون القضاء المصرى ، - كما يوهم الدكتور لويس قراءه - وإنما كانت بهدف أن يعرف المصريون القانون الذى يتحاكم إليه الأوربيون فى بلادهم - حتى يكونوا على بينة من حلول المشكلات الناجمة عن كثرة المعاملات مع هؤلاء الأوربيين فى ذلك التاريخ .. كانت ترجمة : للعلم والمعرفة وتصريف الأمور مع الأجانب ، ، وليست : علمنة للقانون المصرى والنظام القضائى فى مصر ، ... ودليلنا على هذا الذى نقول - من : حقائق الفكر - نفس المقدمة التى قدم بها رفاعه الطهطاوى الترجمة العربية لهذا القانون ... وفيها يقول عن سبب هذه الترجمة : إنه ، قد صدر الأمر العالى الخديوى بتعريبها ... حتى لا يجهل أهل هذا الوطن أصول الممالك الأخرى ، لا سيما وأن علاقات الاقتضاء ، ومناسبات الأخذ والعطاء ، تدعو إلى الإلمام بمثل تلك الأصول الوضعية ؛ ليكون من يتعامل معهم فى تسوية الأمر على بصيرة (١) .. !

ويزيد الطهطاوى هذا الأمر تأكيداً ووضوحاً فى المقدمة التى كتبها لطبعة ترجمة : قانون أحكام التجارة ، الفرنسى ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م ، عندما يتحدث عن : دواعى : هذه الترجمة لهذا القانون الفرنسى ، فيقول : .. وحيث

(١) (الأعمال الكاملة) ج ٥ ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ . طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م .

اتسعت الآن في مصرنا دائرة المعاملات بين أهالي الممالك الأوربية ، وكثرت
التعلقات ، فصار لا بأس لأرباب التجارة بمعرفة قوانين المعاملات الجارية عند
الأجانب ، بل صار الاطلاع عليها لمن يعقد التجارات معهم من الواجب ، ولهذا
حسن إبراز هذا القانون بالعربية إلى حيز الوجود (١) . . .

أرأيتم أن هذه الترجمة كانت ، للعلم .. والمعرفة .. وحتى يكون
المصريون على بينة وهم يعقدون عقود التجارات والمعاملات مع الأجانب ..
ولم تكن ، علمنة للقانون وللقضاء في مصر ، ١٩... .

٥ - لكن أمرا آخر كان يحدث بمصر ، منذ عهد الخديوى سعيد (١٢٣٧ -
١٢٧٩ هـ / ١٨٢٢ - ١٨٦٣ م) الذي سبق عهد الخديوى إسماعيل .. هذا الأمر
هو تزايد النفوذ الأجنبى بمصر ، وخاصة بعد عقد امتياز شركة قناة السويس ..
فلقد تزايد عدد الأجانب ، وتزايد نفوذهم ، وأخذت حكوماتهم تتدخل في
الشئون الداخلية للبلاد ، وتزايد عدد المدارس الأوربية في البلاد ، حتى لقد
افتتح منها سبعون مدرسة - للبنين والبنات - فى عهد الخديوى إسماعيل ..
وكما يقول الرافعى : « فلقد خرجت هذه المدارس عددا كبيرا من رجال
الأعمال وأئمة وموظفى الحكومة .. ونال كثير منهم الحماية الأجنبية
بواسطة القناصل ، فصاروا فى حكم الأجانب فى انتمائهم للدولة الأجنبية
وميلهم إليها ، وعدم خضوعهم لتنظيم الأهلية القضائية والإدارية » (٢) . . .

(١) المصدر السابق . ج ٥ ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .

(٢) (عصر إسماعيل) ج ١ ص ٢٠٥ .

فأصبح في البلاد كثرة من « الخواجات » ، وأشباه « الخواجات » ، ويسط النفوذ الاستعماري المتزايد ، حمايته ، على هذه « الجالية » النامية عددا ونفوذاً ... واستطاع هذا النفوذ أن يخلق لهذه « الجالية » قضاء غير القضاء الوطني ، فرض الاعتراف الرسمي به على الخديوي سعيد الذي أصدر ، إرادة ١٩ ، في ١٢ شعبان ١٢٧٢ هـ / ١٨ أبريل ١٨٥٥ م بإنشاء محكمة تجارية (مجلس تجار) مختلط من المصريين والأجانب ؛ ليقتضى في المنازعات التجارية التي يكون الأجانب طرفاً فيها (١) ...

وبتزايد النفوذ الأجنبي في شئون مصر أنشئ لفصل في دعاوهم - أواخر عهد سعيد ، في ١٨٦١ م - مجلس خاص باسم (قوميون مصر) يتألف من : رئيس مصري ، وعضوين مصريين ، وعضو أوروبي ، وآخر يوناني ، وعضو إسرائيلي - (يهودي) - وآخر أرمني ... أي بأغلبية غير مصرية !.. وإن ظلت دعاوى العقارات من اختصاص المحاكم الوطنية الشرعية ، باعتبارها وقتئذ المحاكم العادية في البلاد (٢) ...

لكن تعاضد النفوذ الأجنبي في عهد إسماعيل نشر فوضى التعدد في القضاء بالدعاوى التي كان الأجانب والخاصعون ، لحمايتهم ، طرفاً فيها .. بل لقد أصبحت المحاكم القنصلية - ومقرها قنصليات الدول الأجنبية ، وقضااتها هم القناصل الأجانب ١٩ - أصبحت تحكم للأجانب على الحكومة المصرية . وكانت كل محكمة قنصلية تحكم وفق قانون بلدها .. وكانت الدول المتمتعة بهذا الامتياز سبع عشرة دولة ، لها بمصر سبع عشرة محكمة قنصلية تحكم

(١) (تقويم النيل) المجلد الأول من الجزء الثالث - ص ١٦٠ .

(٢) (عصر إسماعيل) ج ١ ص ٤٧ ، ٤٨ .

وفق قانون بلدها.. وكانت أحكامها الابتدائية تستأنف في البلاد التابعة لها !!؟ ..

وتنظيماً لهذه « الفوضى القانونية والقضائية » أنشئت « المحاكم المختلطة » في مصر ١٨٧٥ م ، وهي محاكم ذات أغلبية أجنبية ، وللأجانب رئاسة جلساتها ، وينفرد القاضى الأجنبى بالحكم فى دائرتها الجزئية ذات القاضى الواحد ، وكذلك فى دائرة الأمور المستعجلة ، والأمور الوقتية ، ودائرة البيوع ونزع الملكية العقارية ... ولقد اعتمدت هذه المحاكم « قانون نابليون » شريعة تقضى به فيما يرفع إليها من منازعات (١) .. فكانت أول « اختراق أجنبى منظم » لنقضاء الوطنى الإسلامى فى مصر .. لكنه ظل « اختراقاً جزئياً ومحدوداً » ، فلم يخرج اختصاص هذا القانون النابليونى ومحاكمه المختلطة عن حدود منازعات الأجانب ، أو المنازعات التى يكون الأجانب طرفاً فيها .. ولم يتحول - طوال عهد إسماعيل - إلى قانون لمصر ونظام لقضائها !..

وجدير بالذكر أن إنشاء الخديوى إسماعيل لهذه « المحاكم المختلطة » - التى تقضى بقانون نابليون - إنما تم استناداً إلى نص « الأمر الجليل - الخط الهمايونى » الذى أصدره له السلطان ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣ م ، والذى جاء فيه : «... ومن المعلوم أن أمر إدارة أى مملكة كانت وحسن انتظامها وتزايد معموريتها وثروة أهاليها وسكانها لا يتيسر إلا بتوفيق معاملاتها وتطبيق إجراءاتها العمومية بأحوال الوقت والموقع وأمزجة الأهالى وطبائعها ، فقد أعطينا لكم المروخسية الكاملة فى إعمال قوانين ونظامات داخلية على حسب

(١) (المرجع السابق . ج ٢ ص ٢٤٢ - ٢٤٦ .

لنزوم المملكة ، وكذا لأجل تسهيل تنمية وتسوية كافة المعاملات ، سواء كانت من طرف الحكومة أو من طرف الأهالي مع الأجانب .. (١) .

لكن النفوذ الأجنبي المتزايد بمصر ، وخصيصا الخديوي إسماعيل لهذا النفوذ ، قد استعمل هذه ، الرخصة ، التي تتيح له العمل المستقل عن الأمانة لا في دعم الاستقلال الحقيقي لمصر ، وإنما في تنمية تبعيتها للغرب الاستعماري .. فكانت ، المحاكم المختلطة ، وقانونها النابليوني بؤرة شاذة في القضاء المصري ، تعلن عن نزايذ واستشراء هذا النفوذ ..

ويكفي أن نصرف رأي ، قانوني أجنبي - ومؤرخ مصري ، في هذا الاختراق الاستعماري للقضاء الوطني المصري الإسلامي ؛ لنرى مكان هذا الاختراق على الدرب الذي كان الاستعمار يسوق مصر عليه في ذلك التاريخ ..

يقول الرافعي : « إن النظام المختلط لم يقتصر على إنشاء قضاء أجنبي نافذ الأحكام على الرعايا الوطنيين وعلى حكومة البلاد ، بل خول الدول الأجنبية حق التدخل في التشريع الذي يسرى على رعاياها ، وهذا حق لم يكن لها قبل إنشاء المحاكم المختلطة (٢) » .

ويقول القاضي الهولندي - بالمحاكم المختلطة - فان بملن - von Bommel - عن القضاء القنصلي : « إنه وليد الاعنصاب الواقع من الأقوياء على حقوق الضعفاء » .. كما يقول عن قضاء المحاكم المختلطة - وكان قاضيا بها - : « إنها

(١) (تقرير النيل) المجلد الثالث من الجزء الثالث . ص ١٠٨٣ .

(٢) (عصر إسماعيل) ج ٢ ص ٢٤٩ .

ركن قوى من أركان السيطرة الأوربية على مصر (١) ، ...!

لقد حدث هذا ، الاختراق الجزئى ، لسيادة مصر القانونية والقضائية ، وأقام الأوربيون - بهذا ، الاغتصاب الواقع من الأقوياء على حقوق الضعفاء - ركنا من أركان السيطرة الأوربية على مصر ، .. وفق عبارات ، الخواجه ، فان بملن ... ثم بجىء ، الوطنى ، لويس عوض ليرى فى هذه السيطرة الأوربية على مصر علمانية ومذهبا إنسانيا ارتقت إليه مصر فى عهد إسماعيل العظيم !!!..

٦ - وحتى لا نكون هناك ثغرة ، لشك متشكك ، فى رفض الفكر الوطنى الحقيقى لهذا ، الاختراق الجزئى ، لشرعية البلاد وقضائها .. فإننا نسوق رأى رفاعة الطهطاوى .. الذى يزعم الدكتور لويس عوض أنه قد رسخ أسس العلمانية بمصر - نسوق رأيه فى احتكام ، مجالس التجار المختلطة ، إلى غير القانون الإسلامى ، والرجل قد مات قبل قيام ، المحاكم المختلطة ، - والقانون الإسلامى ، ممثلا فى ، فقه المعاملات ، كان - برأى الطهطاوى - المصدر الكافى لتحقيق أرقى صور العدل بين كل المتقاضين ، فى كل المنازعات .. يقول الشيخ رفاعة - مترجم قانون نابليون - عن فقه المعاملات الإسلامى :
« ... ومن أمعن النظر فى كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية ، حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابا

(١) المرجع السابق - ج ٢ ص ٢٤٣ ، ٢٤٧ (نقلا عن كتاب « مصر وأوربا ، ج ١ ص ١١٨ ، ٢٠٥ . طبعة سنة ١٨٨٢ م) .

مستوعبة للأحكام التجارية ، كالشركة ، والمضاربة ، والقرض ، والمخابرة ،
والعارية ، والصلح ، وغير ذلك ... ثم إن الحالة الراهنة اقتضت أن تكون
الأقضية والأحكام على وفق معاملات العصر ، بما حدث فيها من المتغيرات
الكثيرة المتنوعة بتنوع الأخذ والإعطاء من أُمم الأنام ... ومن المعلوم أن بحر
الشرعية الغراء - على تفرع مشاريعه - لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا
كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى ... ولم تخرج الأحكام السياسية عن
المذاهب الشرعية ... لأنها أصل وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة
الفرع

وبعد هذا الحديث عن شريعة الإسلام وأحكام فقه المعاملات الإسلامية ،
الصالحة لتنظيم الحياة وسياسة العمران .. ينتقد الطهطاوى احتكام مجالس
التجار المختلطة ، إلى القوانين الأوروبية - التى ترجمها هو - للعلم والمعرفة ، لا
لتكون مصدر أحكام القضاء فى بلادنا - فيقول : « إن مخالطات تجار الغرب
ومعاملتهم مع أهل الشرق أنعشت نوعاً هم هؤلاء المشارقة ، وجددت فيهم
وازع الحركة التجارية ، وترتب على ذلك نوع انتظام ، حيث ترتب الآن فى
المدن الإسلامية مجالس تجارية مختلطة لفصل الدعاوى والمرافعات بين
الأهالى والأجانب بقوانين - فى الغالب أوروبية - مع أن المعاملات الفقهية لو
انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق ، بتوفيقها على الوقت والحالة ،
مما هو سهل العمل على من وفقه الله لذلك من ولادة الأمور المستيقظين . ولكل
مجتهد نصيب ! ... (١) .

(١) (الأعمال الكاملة) ج ١ ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٥٤٤ .

هذا هو ما كتبه الطهطاوى عن القانون الإسلامى فى كتابه (مناهج
الألباب) الذى طبعه ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩ م .. أى بعد سنوات ثلاث من ترجمته
لقانون نابليون ..!

وفى ذات الكتاب نرى الرجل يعلق آمال النهضة الحقيقية على طلاب
الأزهر وعلماء الشريعة ، شريطة أن يضيفوا إلى « علوم الشريعة » سائر
المعارف البشرية المدنية .. والعلوم الحكمية العملية^(١)

لقد ترجم الرجل - مع تلامذته - قانون نابليون ، للعلم والمعرفة ، ولنكون
على وعى بالنسق القانونى الذى يحكم عقول الأجانب الذين تزايدت معهم
المخاططات والمعاملات ... وذلك من باب : « من تعلم لغة قوم أمن مكرهم »
... فلما رأى ، الرطانة الجزئية ، بهذه اللغة الأجنبية فى عرين العربية ، حذر
من ذلك الانحراف ، ووجه إليه الانتقادات ؟! ..

وعلى ذات الدرب سار المشرع القانونى المقنن محمد قدرى باشا (١٢٣٧
١٣٠٦ هـ / ١٨٢١ - ١٨٨٨ م) وهو الذى تعاون مع الطهطاوى فى ترجمة
« قانون الجنايات » ، « العقوبات » الفرنسى الذى طبعته مطبعة بولاق فى ثلاثة
أجزاء ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م .. سار على ذات الدرب عندما نهض بعمل قد قُبل
به أحكام فقه المعاملات ، على مذهب الإمام أبى حنيفة ، فقدم للحياة القانونية
ولمكتبة القانون الإسلامى :

(أ) كتاب (مرشد الحيران فى معرفة أحوال الإنسان) فى المعاملات
الشرعية ، على مذهب الإمام أبى حنيفة .. ملائكما تعرف الديار المصرية
وسائر الأمم الإسلامية ..

(١) المصدر السابق ، ج ١ : ص ٥٣٣ ، ٥٣٤ .

(ب) وكتاب (قانون العدل والإنصاف للقضاء على مشكلات الأوقاف) ..

(ج) وكتاب (تطبيق ما وجد في القانون المدني موافقاً لمذهب أبي حنيفة) ..

(د) وكتاب (الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية) (١) ..

فأين هي ، علمانية مصر في عصر إسماعيل ، ١٩٠٠ ..

إن إسماعيل لم ، يرد ، لمصر أن تكون قطعة من أوروبا .. وإنما الذي فرض ذلك عليه هو الاستعمار ...

وإن قانون مصر وقضاءها لم يتحوّل إلى العلمانية ، على عهد الخديوي إسماعيل .. وما الاختراق الجزئي الذي تمثل في المحاكم القنصلية والمختطة إلا اغتصاب استعماري لجزء من السيادة الوطنية في مؤسسة التشريع والقضاء ..

ولم يكن الطهطاوي وأعلام عصر إسماعيل بالعلمانيين الذين يخونون شريعة الأمة ومنظومتها القانونية ، وإنما كانوا - رغم ترجمتهم لقانون نابليون - المدافعين عن جدارة فقه المعاملات الإسلامي بتنظيم المعاملات الحديثة .. والساعين لتقنين هذا الفقه تقنيًا حديثًا ، محاولين بذلك مقاومة العلمانية التي كانت سلاحًا من أسلحة الغزو الاستعماري الزاحف على البلاد في عصر إسماعيل !..

(١) الزركلي (الأعلام) طبعة بيروت ، وسركيس (معجم المطبوعات العربية والصربية) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .

الاستعمار يفرض العلمانية

إذا ... انكشف ، الوهم ، ، وتبدد ، الزيف ، الذى تجسد فى دعوى : أن مصر بقيادة الخديوى إسماعيل قد أرادت وسعت إلى ، العلمنة ، ، وأنه قد تحقق فيها ، على عهد إسماعيل علمنة القانون والقضاء .. فالذى ، تعلمن ، هو القضاء الأجنبى فى مصر - ممثلاً فى المحاكم القنصلية فالمختلطة - التى احتكمت إلى قانون نابليون - وهذه الثغرة التى انفتحت فى جدار القانون ، الإسلامى - الوطنى ، وفى بناء المؤسسة القضائية الشرعية المصرية ، إنما حدثت بالقهر الأجنبى والتدخل الأوروبى ، وكجزء من ، اغتصاب السيادة المصرية ، الذى كان يتم فى ذلك التاريخ ..!

ثم تلاحت الأحداث .. فتولى الخديوى توفيق (١٢٦٨ - ١٣٠٩ هـ / ١٨٥٢ - ١٨٩٢ م) حكم مصر بعد عزل أبيه إسماعيل سنة ١٨٧٩ م ... وشهدت الساحة المصرية سباقاً محموماً بين القوى الوطنية ، التى استخدمت أداة الثورة العربائية سنة ١٨٨١ م لمقاومة التدخل الأجنبى ، ولإطلاق طاقات الأمة ، بالحرية والديمقراطية ؛ كى تسد الثغرات أمام الغرب الطامع ، ولإحداث النهضة الكافلة لإفلات مصر من المصير الذى أعده الغرب لأقاليم دولة ، الرجل المريض ، ...!

شهدت الساحة المصرية سباقاً محموماً بين هذه القوى الوطنية وبين

الاستعمار الغربى - والإنجليزى فى طبيعته - الذى سعى لإجهاض ، النهضة
الثورية ، ، ولاغتصاب مصر اغتصابا كاملا ...

فلما هزمت الثورة واحتلت إنجلترا مصر فى سبتمبر ١٨٨٢ م .. صدق
حديث الدكتور لويس عوض لأول مرة فى كلامه عن ، قصة العلمانية فى
مصر ، إذ نهض الاستعمار الإنجليزى ممثلا فى اللورد كرومر (١٨٤١ -
١٩١٧ م) بتوسيع ثغرة العلمانية التى حدثت فى عصر إسماعيل .. فبعد أن
كان قانون نابليون هو شريعة القضاء الأجنبى المختلط وحده ، أصبح فى ظل
الاحتلال - وبواسطته - شريعة المحاكم الأهلية المصرية كلها ، والقانون الذى
فرض على الشعب التحاكم إليه فى كل ما عدا قضايا الأحوال الشخصية من
منازعات ! ...

ففى ٢٤ جمادى الثانية سنة ١٣٠٠ هـ / ٢ مايو سنة ١٨٨٣ م ونحت سلطان
الاحتلال الإنجليزى ، وفى عهد وزارة شريف باشا (١٢٣٨ - ١٣٠٤ هـ /
١٨٢٣ - ١٨٨٧ م) الرابعة بدأ صدور القوانين الوضعية المستمدة من قانون
نابليون - أى القانون المدنى .. والقانون التجارى .. وقانون التجارة البحرى ..
وقانون المرافعات - صدرت على حالها الذى كانت عليه فى المحاكم المختلطة ،
وأىضا صدرت قوانين العقوبات .. وتحقيق الجنايات - مع بعض التعديلات ..
ولقد اكتمل إصدار هذه القوانين فى ١٣ نوفمبر سنة ١٨٨٣ م .. وفى ٣٠
ديسمبر سنة ١٨٨٣ م صدرت تعيينات قضاة المحاكم الأهلية ... وبعد أن
كانت محاكم مصر - قبل الاحتلال - يعين بكل دائرة من دوائرها اثنان من
علماء الإسلام ، أحدهما حنفى والآخر شافعى ، صدرت تعيينات المحاكم

الأهلية وفي كثير من دوائرها قاض أجنبي ، كحد أدنى ، وعين في محكمة الاستئناف أربعة من القضاة الأجانب (١) ١٩... .

فكان هذا هو الانقلاب العلماني الحقيقي والشامل الذي عمت به البلوى ، في قانون مصر وقضاائها ... وصدق الدكتور لويس عوض عندما قال: إن السنوات الخمس والعشرين (١٨٨٢ - ١٩٠٧ م) تمثل - بوجه عام - الحقبة العلمانية الثالثة بمصر ..

وهو يعتبرها الحقبة ، الثالثة ، ، لادعائه علمانية مصر محمد علي .. ومصر إسماعيل ... لكنها - في الواقع والحقيقة - الحقبة الأولى للعلمانية بمصر ، بعد التحقيق الذي قدمناه عن أوضاع مصر - الفكر والواقع - على عهد محمد علي وإسماعيل ...

والدكتور لويس عوض لا يتحدث عن قيادة كرومر والاستعمار الإنجليزي لجهود ، علمنة مصر ، باعتبارها غزوا فكريا وتشويها حضاريا وعدوانا قانونياً مارسه الاستعمار في بلادنا ، وإنما يتحدث عنه في سعادة وانتشاء .. بل لقد بلغ به الولاء للحضارة الغربية العلمانية إلى حد انتقاد كرومر لبطله في معركة «اكتساح الحضارة الأوربية» لطابع مصر الإسلامي .. فهو لا يعجبه تدرج كرومر في «تغريب مصر وعلمنتها» وهو ، التدرج ، الذي أطلق عليه كرومر

(١) انظر في هذه الحقائق التاريخية : محمد مختار باشا المصري (التوفيقات الإلهامية) دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة ، طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م . والرافعي (عصر إسماعيل) ج ٢ ص ٢٤٠ . و(مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال) ص ٦٥ - ٦٨ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

وصف ، الخبيب المنتظم ، وليس الركض ، .. فيعلن الدكتور لويس لقرائه أنه من أنصار ، الركض ، ، لأن هذا ، الخبيب المنتظم ، ، قد أعاق أى انتشار مكتسح للحضارة الأوروبية فى مصر (١) .. ، ١٩٩ .

وكان لابد لهذا ، الواقع العلمانى ، الذى زرع فى المجتمع المصرى من فكر ، ببيض وجهه ، ويحسن صورته ، ويدعو إلى تعميمه فى ميادين الثقافة والتعليم ، والقيم أيضا ... وهذا هو الدور الذى لعبته ، مدرسة المقطم ، فى الحياة الفكرية المصرية ، فهذه ، المدرسة ، التى بدأت بأصحاب (المقططف) ، ١٨٧٦ - ١٩٥٢ م و (المقطم) ، ١٨٨٩ - ١٩٥٢ م ، ، قد تكونت نواتها من يعقوب صروف (١٨٥٢ - ١٩٢٧ م) وفارس نمر (١٨٥٦ - ١٩٥١ م) وشاهين مكاريوس (١٨٥٣ - ١٩١٠ م) والتف حول هذه النواة آخرون ، كتبوا فى (المقطم) أو (المقططف) أو فى غيرهما من المناهل الصحفية ، من أمثال شبلى شميل (١٨٦٠ - ١٩١٧ م) ونقولا حداد (١٨٧٨ - ١٩٥٤ م) وجرجى زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤ م) وفرح أنطون (١٨٧٤ - ١٩٢٢ م) ...

ولم يكن غريبا أن تنفرد هذه ، المدرسة ، وهذا ، التيار الفكرى ، بالدعوة إلى ، العلمانية ، فى العقود الأولى من سنوات الاحتلال الإنجليزى لمصر ... فهذه المدرسة قد تكونت من المسيحيين الشوام ، الذين هاجروا إلى مصر فرارا من الممارسات الاستبدادية للدولة العثمانية فى الشام ، فهم يكونون للرابطة العثمانية عدا شديدا ، ويسعون لنزع الصبغة الإسلامية عن الحياة الشرقية ..

(١) (المصور) العدد ٣٠٧٦ فى ٢٣ - ٩ - ١٩٨٣ م .

ثم هم أبناء أقلية دينية لا يبيح لها وزنها أن تطرح فكرتها كبديل للإسلام ، وذلك فضلا عن أن المسيحية التي يدينون بها هي رسالة روحية محضة ، لا تقدم للدنيا والدولة نظاما مدنيا .. ومن هنا وجدوا في ، التغريب ، وفي فكرية الحضارة الغربية البديل الذي يبشرون به كي ينسخ الإسلام السياسي والحضارى ، وكانت العلمانية الغربية سبيلهم لفصل الدين الإسلامى عن الدولة .. فنهضوا بدور الطليعة العلمانية التي دعت إلى ترسيخ الواقع العلمانى ، الذى زرعه كرومر بمصر سنة ١٨٨٣ م ، وإلى تعميمه فى مختلف مجالات الفكر والحياة !..

صحيح أن التمايز قائم وموجود بين مواقف أعلام هذه المدرسة من عدد من القضايا .. لكننا لا نتجاوز الدقة والموضوعية ! إذا قلنا إنهم قد جمعتهم «رابطة الولاء للغرب» .. الولاء - بالمعنى السياسى - عند الذين اتخذوا من الاستعمار الغربى - إنجلترا كان أو فرنسا - موقف الولاء والتبعية ، بل والعمالة فى بعض الحالات ... أو الولاء - بالمعنى الفكرى والحضارى - عند الذين أصبحت رسالتهم : التبشير بفكرية الغرب وأيديولوجية حضارته ، سعيا لحلولها محل حضارة الإسلام !..

وشيئا فشيئا اتسع نطاق هذه ، المدرسة ، ليضم عددا من الكتاب والمفكرين المصريين ، الذين تميزت دوافعهم ومنطلقاتهم لتبنى ، العلمانية ، ، حتى يمكن تصنيفهم إلى فريقين :

الأول : ذلك الذى توحدت منطلقاته مع ، مدرسة المقطم ، : الرفض

للإسلام السياسي والحضاري - والعداء لأية محاولة تسعى لصيغ الدولة والمجتمع بحضارة الإسلام - والعمل على سيادة نهج الحضارة الغربية وقيمتها مع علومها وتطبيقات هذه العلوم .. أي ، تغريب ، الدولة والمجتمع ؛ تحاشيا ، لأسلمتهما ، ... وكان سلامة موسى (١٨٨٨ - ١٩٥٨ م) أبرز أعلام هذا الفريق ، الذي يمثل في واقعنا المعاصر الدكتور لويس عوض خير تمثيل ! ..

والثاني : ذلك الفريق الذي نفر من الصورة العثمانية للإسلام .. وحسب هذه الصورة هي كل الإسلام وحقيقته وجوهره ؛ تأثرا بتقسيمات الاستشراق لحياتنا الفكرية .. وفي ظل الانبهار بحضارة الغرب - المثالقة والمنتصرة - خيل لأعلام هذا الفريق - الذين كونوا في الحياة السياسية المصرية ؛ التيار الوطني - المهادن ! .. - خيل إليهم أن ، التغريب ، هو السبيل إلى النهضة وتحرير الوطن من سيطرة الغرب الاستعمارية .. ولقد بدأ هذا التيار بلطفي السيد باشا (١٢٨٩ - ١٣٨٣ هـ / ١٨٧٢ - ١٩٦٣ م) و ، حزب الأمة ، .. ثم استمر في صورة ، حزب الأحرار الدستوريين ، ..

لكن براءة منطلقات هذا الفريق من العداء الثابت للإسلام السياسي والحضاري قد فتحت الطريق أمام أبرز مفكره لمراجعة النفس والفكر ، وخاصة عندما بلغوا مرتبة النضج والحكمة في مسيرتهم الفكرية ، ولاحت لهم أمارات خيبة الأمل في الحضارة الغربية كمشروع صالح لإنهاض أمتهم من تخلفها وتحريرها من قبضة الاستعمار .. وعندما عادوا - بأنفسهم ، دون وساطة المستشرقين - إلى تراثهم الإسلامي ، قرأوا فيه صورة مخالفة ، بل ومعادية لصورته العثمانية ولتلك التي صورها له المستشرقون ... لقد عاد أبرز أعلام

هذا الفريق - بدرجة أو بأخرى - إلى الإسلام السياسى والحضارى ، وانسلخوا
عن موكب المبشرين بالعلمانية والتغريب ..

* فى الوقت الذى نجد فيه ثبات سلامة موسى على « التغريب العلمانى »
و « العلمانية المتغريبة » .. ونقرأ له كلماته المستفزة التى يقول فيها : « إذا
كانت الرابطة الشرقية سخافة ؛ لأنها تقوم على أصل كاذب ، فإن الرابطة
الدينية وقاحة ، فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة
تربطنا .. ونحن فى حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان ..
وحكومة ديمقراطية برلمانية ، كما هى فى أوروبا ، وأن يحاقب كل من يحاول
أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون ، أوتوقراطية دينية ... وكلما
ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامى أغراضى .. يجب علينا أن نخرج
من آسيا ، وأن نلتحق بأوروبا ، فإنى كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى
له وشعورى بأنه غريب عني ، وكلما زادت معرفتى بأوروبا زاد حبي لها
وتعلقى بها ، وزاد شعورى بأنها منى وأنا منها . وهذا هو مذهبى الذى أعمل
له طول حياتى سرا وجهرا ، فأنا كافر بالشرق ، مؤمن
بالغرب (١) ... !

فى الوقت الذى نجد فيه ثبات سلامة موسى على هذا « المذهب » وهذا
« الموقف » نجد امتدادهما عند الدكتور لويس عوض .. فهجومه على الثورة

(١) سلامة موسى (اليوم والنقد) طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م . (انظر النص فى : د .
محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، ج ٢ ص ٢١٢ -
٢١٥) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م .

العربية مبعثه رفضها ، للقيم الغربية ، .. وتشويهه لجمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ / ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م) سببه أن الأفغانى لم يقبل ، قيم الحضارة الغربية ، مع علومها (١) .. وتغريب المجتمع وعلمته هو النهضة والتقدم .. أما أسلمته فهي الجهالة والتخلف والثيوقراطية .

وفى الوقت الذى نقرأ فيه هجوم سلامة موسى على مصطفى كامل (١٢٩١ - ١٣٢٦ هـ / ١٨٧٤ - ١٩٠٨ م) والحزب الوطنى ، لربطه بين الوطنية المصرية والانتماء المصرى للجامعة الإسلامية .. وهو الهجوم الذى يقول فيه : ، لقد حدث ارتداد فى الفكرة الوطنية بظهور مصطفى كامل والتخديوى عباس (١٢٩١ - ١٣٦٣ هـ / ١٨٧٤ - ١٩٤٤ م) والمؤيد . فإن كل هؤلاء عادوا إلى جامعة الإسلام ، (٢) .. نجد امتداد هذا ، الفكر ، وهذا ، الموقف ، عند الدكتور لويس ، الذى يصف كل التيارات والأحزاب والجماعات التى ربطت الوطنية المصرية بدائرة الانتماء الإسلامى - وليس الغربى - يصفها بـ « الرجعية ، والسلفية » ، و « الثيوقراطية » .. ويطلق هذه الأوصاف على (الحزب الوطنى) الذى كونه مصطفى كامل .. وعلى (جماعة الإخوان المسلمين) و (مصر الفتاة - الحزب الاشتراكى) و (الحزب الوطنى الجديد) وتنظيم (الضباط

(١) انظر دراسته ، الإيراني الغامض فى مصر ، مجلة (التضامن) العدد ١٦ سنة ١٩٨٣ م ، ص ٦٧ . وانظر كتابنا (جمال الدين الأفغانى بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس نوبس) ص ٣١ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧ م .

(٢) (اليوم والتغد) . وانظر النص فى (الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر) ج ٢ ص ٢١٥ .

الأحرار) (١) ..!! على حين يعتبر الذين ، اختاروا الاستعمار البريطاني ، بدلا من الرباط الذى كان يربط مصر بالدولة العثمانية عندما احتل الإنجليز مصر . وهو رباط أشبه ما يكون ، بالكمزولث الإسلامى ، - يعتبر الذين ، اختاروا الاستعمار البريطانى وطنيين تقدميين (٢) ، ..!! لأنهم (الجناح العلمانى) فى « الثورة العربية (٣) » ..!!

هذا عن ، الفريق العلمانى ، الذى مثل ، مدرسة المقطم ، فى صفوف الحركة الفكرية المصرية ، وتماثل معها فى المنطلقات والغايات ..

* أما الفريق الثانى الذى لم تنبع دعوته إلى ، العلمانية ، من العداء للإسلام الحضارى .. والذى راجع نفر من أبرز أعلامه الموقف من العلمانية ، ، فعاد يدعو إلى نهضة إسلامية متميزة عن نهج العلمانية والغريب .. فإن من أبرز مفكريه : الشيخ على عبد الرازق (١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ / ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م) والدكتور محمد حسين هيكل (١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ / ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م) ...

* فى ظاهر الأمر وعنوان القضية لم يكن كتاب الشيخ على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) - الذى صدر فى أبريل سنة ١٩٢٥ م - دعوة إلى تبني

(١) (المصور) العدد ٣٠٧٦ فى ٢٣ / ٩ / ١٩٨٣ م .

(٢) دكتور لويس عوض (تاريخ الفكر المصرى الحديث) من عصر إسماعيل إلى ثورة سنة ١٩١٩ م - المبحث الأول - الخلفية التاريخية ص ١٢٢ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م .

(٣) (المصور) العدد ٣٠٧٦ فى ٢٣ / ٩ / ١٩٨٣ م .

العلمانية ، كقسمة من قسّمات الحضارة الغربية ، تبنّيها في مشروع النهضة المصرية والشرقية .. لكن حقيقة الأمر وجوهر القضية أن هذا الكتاب كان أخطر وأكبر عمل فكري يعبد الطريق لسيادة العلمانية في بلاد الإسلام ؟ ..

فقبل هذا الكتاب كان الدعاة للعلمانية إما من « مدرسة المقطم » ، المعروفة بعدائها للإسلام السياسي والحضاري ، أو من « المنغريين » ، الذين لا ينظر الناس إلى كتاباتهم حول علاقة الدين بالدولة نظرتهم إلى كتابات « الشيوخ » و « علماء الإسلام » في أمور الدين ... أما الشيخ علي عبد الرازق ، فكان أول عالم من علماء الأزهر الشريف - بل من علماء الإسلام - يقول للناس : جوهر ما يقصد إليه العلمانيون ! ..

وقبل هذا الكتاب كانت الأفكار العلمانية الداعية إلى فصل الدين عن الدولة تواجه باعتبارها « فكرا مستوردا » ، أتى به أصحابه من الغرب الاستعماري ، ولم يدركوا ، خصوصيته الغربية ، التي جعلته حلا غريبا لمشكلة غربية ؛ لأنه طبيعي مع المسيحية التي انعقد الإجماع على أنها رسالة روحية محضة ، ومن ثم فإنه ليس بطبيعي مع الإسلام الذي انعقد الإجماع على أنه عقيدة وشريعة لها أحكام تنظم الدولة والمجتمع وتؤسّس الناس في حياتهم الدنيا .. كما أن فكر العلمانية طبيعي في الغرب ، من حيث كان رد فعل على وجود مؤسسات كنسية كهنوتية استبدت بحياة الناس وفكرهم وحاربت التقدم وفرصت التخلف والجمود في كل ميادين الحياة .. وهو - لذلك - غير طبيعي في المحيط الإسلامي الذي لا يعرف - بل ينكر دينه ومسار

تطوره قداسة البشر والمؤسسات ووصاية أي متهما على العقائد والفكر
والممارسات ...

لكن كتاب (الإسلام وأصول الحكم) قد جاء ليُلغى خصوصية الإسلام -
كفكر - في هذه القضية ... وليُلغى خصوصية التطور التاريخي لحضارتنا
العربية الإسلامية في هذه القضية ، أيضا .. ومن ثم فُلقد أصاب الهدف الذي
ما كان ليحلم بإصابته العلمانيون المتغربون عندما خلّص إلي أن فصل الدين
عن الدولة هو الحل الطبيعي بالنسبة لنا ، تماما كما كان الحل الطبيعي في
الحضارة الغربية ...

فإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية - في الغرب - قد أضفت قداسة الدين على
صاحب السلطة الزمنية ، فجعلت رأس الدولة حاكما بالحق الإلهي .. فإن
كتاب (الإسلام وأصول الحكم) قد صور نظام الخلافة الإسلامي - تاريخيا -
على نفس الصورة .. فقال إن هذا النظام - فضلا عن أنه ليس من الإسلام في
شيء - قد جعل الخليفة : حاكما مطلقا .. يستمد سلطانه من الله .. وولايته على
دين الناس ودنياهم عامة ومطلقة كولاية الله - سبحانه - ورسوله - عليه الصلاة
والسلام - ...

وإذا كانت العلمانية الغربية - بما عنته وتعتنه من فصل الدين عن الدولة -
قد كانت رد الفعل الطبيعي ضد الحكم بالحق الإلهي ... وزاد من ضرورتها أن
هذا الحكم بالحق الإلهي لا سند له ولا مبرر في ظل المسيحية التي هي رسالة
روحانية محضة ، ودين لا دولة ، وموعظة لا سياسة ، أي لا مدخل لها في
«الحكم» أيا كان هذا الحكم وبصرف النظر عن طبيعة نظامه .. فُلقد جاء كتاب

(الإسلام وأصول الحكم) ليقول للناس - على لسان أحد علماء الأزهر وقضاة المحاكم الشرعية - : إن الإسلام دين لا دولة .. ورسالة روحية ، لا علاقة له بالهياكل الدنيوية وعمارة الكون وتنظيم المجتمعات .. وأن نبي الإسلام ﷺ لم يؤسس دولة ، ولم يرأس حكومة ، ولم يسن مجتمعا .. ولم يدع إلى شيء من ذلك .. بل كان رسولا ما عليه إلا البلاغ ، دون التنفيذ .. الأمر الذي يجعل الإسلام - كالمسيحية - دعوة دينية خالصة لروحانية الدين ، تطالب من أتباعها أن يدعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ...

فعند علي عبد الرازق ، أن محمدا ﷺ ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين ، لا تشوبها نزعة ملك ، ولا دعوة لدولة ، وإنه لم يكن للنبي ﷺ ملك ولا حكومة ، وإنه ﷺ لم يقم بتأسيس مملكة ، بالمعنى الذي يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها ، ما كان إلا رسولا كإخوانه الخالين من الرسل ، وما كان ملكا ولا مؤسس دولة ، ولاداعيا إلى ملك ، (١) .

وإذا كان الكتاب لم يستخدم كلمة ، العلمانية ، التي هي الترجمة العربية المتداولة للكلمة الإنجليزية secularism فإنه قد استخدم مرادفا شديد الدقة في التعبير عن معنى هذا المصطلح في الحضارة الغربية ، وذلك عندما أراد وصف حكومة أبي بكر الصديق فقال إنها كانت حكومة ، لا دينية (٢) ، أي علمانية! فالعلمانية هي الغاية .. ولها مهد علي عبد الرازق الطريق كما لم يصنع أحد من الذين سلكوا هذا السبيل ..!

(١) الإسلام وأصول الحكم - الكتاب الثاني - الباب الثالث ، ص ٦٤ ، ٦٥ - طبعة ١٩٢٥ م .

(٢) المرجع السابق - الكتاب الثالث - الباب الثاني ، ص ٩ .

ذلك هو مكان على عبد الرزاق ، وكتابه (الإسلام وأصول الحكم) في علمنة الإسلام ، والدعوة إلى علمنة الدولة في عالم الإسلام ..

ولقد أثار هذا الكتاب أكبر وأخطر معركة فكرية في تاريخ الإسلام الحديث (١) .. ويقدر ما أثار الارتياح في صفوف العلمانيين فلقد أثار الاستنكار في صفوف الإسلاميين .. بل لعله كان أحد الأسباب التي استغزت الضمير الإسلامي فحركته لإقامة ، التنظيم ، كأداة للدفاع عن مكانه أمام انتصارات التغريب ، فظهرت (جمعية الشبان المسلمين) و (جماعة الإخوان المسلمين) في السنوات التي شهدت ذبول معركة هذا الكتاب ١٩٧٢ ..

وأمام هذا الرفض والاستنكار الإسلامي - شبه الجماعي - بدأت أمارات تراجع الشيخ على عبد الرزاق عن درجة ، الغلو ، التي ذهب إليها في فصله الدين عن الدولة ، وتجريده الإسلام من أية مهام سياسية وتنفيذية .. فبعد أن قال في كتابه : ، يا بعد ما بين السياسة والدين (٢) !.. صرح ، لجماعة من العلماء ، تصريحاً نرى فيه تراجعاً أكيداً عن الفكرة المحورية لكتابه ، ونشر هذا التصريح في صحيفة (السياسة) اليومية . وفيه قال : ، إن الإسلام دين تشريعي ، وأنه يجب على المسلمين إقامة شرائعه وحدوده ، وإن الله خاطبهم جميعاً بذلك ...

(١) انظر تفصيلات هذه المعركة في الدراسة التي قدمنا بها طبعة هذا الكتاب : بيروت سنة ١٩٧٢ م .

(٢) (الإسلام وأصول الحكم) الكتاب الثاني . الباب الثالث . ص ٦٩ .

وبعد أن أنكر - في كتابه - علاقة الإسلام بطبيعة ما من طبائع
 «الحكومة»، خاصة إذا كانت هذه «الحكومة» هي «الخلافة» .. نزاه يتراجع ،
 فيقول في هذا الـ (إيضاح) : : .. إنه إذا رأت جماعة المسلمين أن مصلحة
 المسلمين في أن تكون الحكومة خلافة تكون حينئذ حكومة شرعية ، واجبة
 طاعتها فيما لا يخالف الدين : ..

وبعد أن كان يرى - في كتابه - أن حكومة الخلفاء الراشدين كانت لا دينية ،
 قامت على القهر والغضب .. تراجع ، وقال في هذا الـ (إيضاح) : : إن حكومة
 الخلفاء الراشدين .. إنما قامت ونمت برأي عامة المسلمين : رعاية منهم
 لمصلحتهم الدينية والدنيوية ، فكانت - بذلك - بيعتهم صحيحة واجبة
 الطاعة (١) .

وأمر آخر يشهد لهذا التراجع - إن لم يبلغ مبلغ «الدليل» فهو «قرينة» -
 يتمثل في امتناع الشيخ علي عبد الرازق عن إعادة طبع كتابه ، رغم نفاده
 السريع ، والحاح كثير من العلمانيين عليه كي يعيد طبعه .. لقد رفض إعادة
 طبعه ، وبدأ نافراً من الحديث في موضوعه (٢) ..

ويبدو أن الرجل قد عزم - أواخر حياته - أن يكتب صراحة عن تراجعته عن
 الفكرة المحورية التي دار حولها كتابه .. فوفقاً لرواية أكبر أبنائه - محمد - لى
 سنة ١٩٧١ م .. أنه قد شرع في كتابة صفحات يسجل فيها هذا التراجع ، لكن
 الأجل وافاه قبل إتمام هذه الصفحات ..

(١) صحيفة (السياسة) اليومية . عدد ٨٨١ في أول سبتمبر سنة ١٩٢٥ م .

(٢) ظهر ذلك في حديث له نشر في (المصور) قبيل وفاته سنة ١٩٦٦ م .

وهكذا خسرت العلمانية ، الورقة الإسلامية ، الوحيدة التي كتبها واحد من علماء المسلمين !! ..

* أما الدكتور محمد حسين هيكل ، فإن قصته مع الدعوة العلمانية هي درس في الموضوعية والشجاعة الأدبية والأمانة الفكرية ، يستحق التأمل واستخلاص العبر والدلالات ..

ففي سنة ١٩٢٥ م - عندما صدر كتاب على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) - حمل الدكتور هيكل - وكان رئيساً لتحرير صحيفة (السياسة) - حمل مع صحيفته وحزبه لواء الدفاع عن « علمنة الإسلام » ، و « فصل الدين عن الدولة » - وهو جوهر فكر الكتاب - ...

وبعد هذا التاريخ بعشر سنوات طبع الدكتور هيكل كتابه الهام (حياة محمد) الذي افتتح به « حقبة إسلامياته » .. فرأيناه - في هذا الكتاب - يتراجع عن « العلمانية » - بل وينقضها - عندما يقرر تمييز الإسلام عن المسيحية في علاقة الدين بالدولة ، وتميز الحضارة الإسلامية عن الحضارة الغربية في هذه القضية ... فهو في سنة ١٩٢٥ م كان يدافع عن كتاب يقول إن رسالة محمد ﷺ « دعوة دينية خالصة للدين » لا سياسة فيها ولا حكومة ولا تنفيذ ، وما كان محمد ، إلا رسولاً كإخوانه الخالين من الرسل ، لم يقم دولة ، ولم ينفذ شريعة ، ولم يرأس حكومة ... أما في سنة ١٩٣٥ م فإنه يكتب عن طور « الدولة » في حياة الرسول وتجربته - بعد الهجرة إلى المدينة - فيقول : « هنا يبدأ طور جديد من أطوار حياة محمد ، لم يسبقه إليه أحد من الأنبياء والرسل ، هنا يبدأ الطور السياسي - الذي أبدى محمد فيه من المهارة والمقدرة والحكمة ما

يجعل الإنسان يقف دهشاً ، ثم يطأطئ الرأس إجلالاً وإكباراً .. وهذا الطور من حياة الرسول لم يسبقه إليه نبي ولا رسول ، فقد كان عيسى وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية يبلغونها للناس من طريق الجدل ومن طريق المعجزة ، ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوى السلطان أن ينشروا هذه الدعوة ، فأما محمد فقد أراد الله أن يتم نشر الإسلام وانتصار كلمة الحق على يديه ، وأن يكون الرسول والسياسي والمجاهد والقاتل .. لقد أقام محمد دين الحق ، ووضع أساس حضارة هي وحدها الكفيلة بسعادة العالم . والدين والحضارة اللذان بلغهما محمد للناس بوحى من ربه يتزاوجان ، حتى لا انفصال بينهما ... وقد خلا تاريخ الإسلام من النزاع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية : أى بين الكنيسة والدولة ، فأنجاه ذلك مما ترك هذا النزاع في تفكير الغرب وفي اتجاه تاريخه .. (١) .

نعم .. كتب الدكتور هيكل هذه السطور - ومثلها - فى (حياة محمد) - وهي التى لو نشرت فى سنة ١٩٢٥ م لكانت ، نقضا ، للعلمانية ، ولعلمنة الإسلام ، كما جاءت فى كتاب على عبد الرازق ، الذى حمل هيكل نواء الدفاع عنه فى ذلك التاريخ ! ..

ولقد كان طبيعياً أن يشير رجوع الدكتور هيكل عن ، العلمانية ، إلى القول بأن الإسلام دين ودولة .. وعن ، التغريب ، إلى الدعوة للنهضة بواسطة الحضارة الإسلامية المتميزة .. كان طبيعياً أن يحدث ذلك تأثيره فى الحركة

(١) (حياة محمد) ص ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٥١٦ ، ٥١٩ . طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م .

الفكرية .. فالرجل نجم متألق في الحياة الفكرية والسياسية والحزبية والبرلمانية .. وغير ذلك ، فإن تراجمه قد اتسم بالشجاعة والصراحة والحسم والوضوح .. ولم يكن بالنصمت عن المقولات التغريبية ، أو بمجرد الامتناع عن إعادة طبع الكتب التي صرخت وطفحت بالتغريب .. أو بتكديف البحث في ميدان الإسلاميات - كما حدث من عديد من المفكرين الذين عادوا إلى نهج الاستقلال الحضارى ، وتخلصوا من مرحلة الانبهار بالحضارة الغربية الغازية ، بعد أن خابت آمالهم في « وهم » اتخاذها سبيلا إلى تحضر الأمة وتحررها - .. كانت مكانة الدكتور هيكل وشجاعته مثيرة لردود الأفعال حيال موقفه الفكرى الجديد، فأخذت تنهال على الرجل ، الانتقادات ، و« الغمزات » .. وممن ؟ .. من « الرفاق القدماء » في « العلمانية والتغريب » ؟ ...!

ومضت سنتان على ظهور (حياة محمد) .. وفي سنة ١٩٣٧ م طبع الرجل العمل الفكرى الثانى فى « إسلامياته » - (فى منزل الوحي) - الذى جاء ثمرة لرحلة حجازية ، تتبع فيها خطا الرسول .. وعبر القرون ليعيش الذكريات والأحداث التى جسدت « البعثة » التى بلورت الأمة وصنعت الحضارة ، وغيرت مجرى التاريخ ! .. وفى مقدمة هذا الكتاب أفاض الرجل فى الحديث عن تحوله الفكرى .. وعن الموقف من الحضارة الغربية العلمانية .. ورد على غمز الرفاق القدماء فى العلمانية والتغريب ... لقد تحدث عن تجربته مع « التغريب » ... وتجربته مع « الفرعونية » ، كسبل للنهضة ... وعن تحوله إلى معسكر الإسلاميين ... والمنطق الحضارى والمنطق العقلانى لهذا التحول الفكرى ... ولما كانت سطور الدكتور هيكل هذه هى أشبه ما تكون « بالوثيقة »

في المعركة ضد « العلمانية والتغريب » فإننا نسوق أطرافاً منها ، يستدعيها المقام ، رغم ما فيها من إطالة نسبية .

لقد بدأ حديثه - في هذه القضية - مشيراً إلى « غمز رفاق العلمانية والتغريب القدماء » فقال : « ... وأقف هنا لأدفع زعماء حسب الذين زعموه أنه مغمز غمزوني به بعد تأليف كتابي « حياة محمد » . حسب هؤلاء أنني انقلبت بكتابة السيرة رجعيًا ، وكنت عندهم قبلها في طليعة المجددين ... لكنني أسأل أصدقائي - أحرار الرأي - عن غايتنا جميعاً حين ننتج ؟ ألسنا نبتغي التقدم خطوة جديدة في سبيل الكمال ؟! ... ولقد طالما التمسنا في شرقنا أسباب النهوض بعلمنا ؛ لنقف إلى جانب الإنسانية المهذبة ، لا ينكس الخجل رءوسنا ، ولا يحز في نفوسنا ذلك الشعور الممض بأنا دون الغرب مكاناً . ولقد خيل إلى زمناً - كما لا يزال يخيّل إلى أصحابي - أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض . وما أزال أشارك أصحابي في أنا ما نزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله . لكنني أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية ، وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن ننقله ؛ فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافته . خضع الغرب للتفكير الكنسي على ما أقرته « البابوية » المسيحية منذ عهدها الأول ، وبقي الشرق بريئاً من الخضوع لهذا التفكير ، بل حوريت المذاهب الإسلامية التي أرادت أن تقيم في العالم الإسلامي نظاماً كنسياً أهول الحرب ، فلم تقم لها فيه قائمة أبداً ، بذلك بقي الشرق مطهراً من الأسباب التي أدت إلى اضطراب الغرب الروحي ، وإلى ثوراته السياسية التي نشأت عن هذا

الاضطراب ، وبقي المسيحيون المقيمون في الشرق في جوار المسلمين في طمأنينة لا يصلون من نيران الثورات والحروب الأهلية ما كان يصله إخوانهم في الغرب .

كان الخروج على الكنيسة المسيحية في الغرب إعلاناً للثورة على السلطان ، وكانت الثقافة الروحية لذلك في قبضة رجال الدين ، يرمون من أمرها ما يشاءون إبرامه ، وينقصون ما يشاءون نقصه .

أما والإسلام لا يعرف الكنيسة ، وأقرب الناس فيه إلى الله أنقاهم ، ولا فضل فيه لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، فقد بقيت الثقافة الروحية في الشرق حرة طليقة لم تقيد إلا حين فعد الجاهل بالناس ففترت الأذهان وخمدت القرائح وجمدت القلوب .

لم تعرف عصور الازدهار الإسلامي قيماً لحرية الفكر ما كان صاحبه يرى القصد يبدخى برأيه سبيل الحق ، ولم يعرف المسلمون أن الذنوب يغفرها غير الله .

كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق ، وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم ! لا مفر - إذا - من أن نلتصق في تاريخنا وفي ثقافتنا وفي أعماق قلوبنا وفي أطواء ماضيها هذه الحياة الروحية ، نحیی بها ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا .

هذا كلام واضح بين ، ومن عجب أن يخفى على أصحابي فلا يرونه ، وأن

يكون خفاؤه سبب تقريبهم على . ولكن لا عجب ، فقد خفى هذا الكلام على سنوات ، كما لا يزال خفياً عن كثيرين منهم . وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لتتخذهما جميعاً هدى ونبراساً ، ولكنني أدركت بعد لأي أنني أضع البذر في غير مهيبة ، فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة ، وانقبت ألتمس في تاريخنا البعيد - في عهد الفراعين - مؤيلاً لوعي هذا العصر ينشأ فيه نشأة جديدة ، فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعاً ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح بذراً لنهضة جديدة . وروأت فرأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وترى ، ولأبناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين .

والفكرة الإسلامية المبنية على التوحيد في الإيمان بالله تنزع - في ظلال حرية الفكر - إلى وحدة الإنسانية ، وحدة أساسها الإخاء والمحبة . فالمؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها إخوة يتحابون بنور الله بينهم ، وهم لذلك أمة واحدة تحيئها السلام وغايتها السلام . وهذه الفكرة الإسلامية تخالف ما يدعو إليه عالمنا الحاضر من تقديس القوميات ، وتصوير الأمم وحدات متنافسة يحكم السيف وتحكم أسباب الدمار بينها فيما تتنافس عليه . ولقد تأثرنا معشر أُمم الشرق بهذه الفكرة القومية ، واندفعنا ننفع فيها روح القوة ، نحسب أننا نستطيع أن نقف بها في وجه الغرب الذي طغى علينا وأذلنا . وخيل إلينا في سذاجتنا أننا قادرون بها وحدها على أن نعيد مجد آبائنا ، وأن نسترد ما غصب الغرب من حريتنا وما أهدر بذلك من كرامتنا الإنسانية . ولقد أنسانا بريق حضارة

الغرب ما تنطوي هذه الفكرة القومية عليه من جراثيم فتاكة بالحضارة التي تقوم على أساسها وحدها، وزادنا ما خيم علينا من سحف الجهل إمعانا في هذا النسيان .

على أن التوحيد - الذي أضاء بنوره أرواح آبائنا - قد أورثنا من فضل الله سلامة في الفطرة هدتنا إلى تصور الخطر فيما يدعو الغرب إليه ، وإلى أن أمة لا يتصل حاضرها بماضيتها خائفة أن تضل السبيل ، وإلى أن الأمة التي لا ماضى لها لا مستقبل لها ، ومن ثم كانت الهوة التي ازدادت عمقا بين سواد الأمم في الشرق والدعوة إلى إغفال ماضينا والتوجه وجهة الغرب بكل وجودنا، وكان النفور من جانب السواد عن الأخذ بحياة الغرب المعنوية ، مع حرصه على نقل علومه وصناعاته . والحياة المعنوية هي قوام الوجود الإنساني للأفراد والشعوب ؛ ولذلك لم يكن لنا مفر من العودة إلى تاريخنا نلتصم فيه مقومات الحياة المعنوية لنخرج من جمودنا المذل ، ولنتفقى الخطر الذي دفعت الفكرة القومية الغرب إليه ، فأدامت فيه الخصومة بسبب الحياة المادية التي جعلها الغرب إلهه .

لم ألبث حين تبينت هذا الأمر أن دعوت إلى إحياء حضارتنا الشرقية... فأين هذا من تملق الجمهور أو متابعتة التماسا لرضاه ... كما يزعم الذين يغمزون ؟!... إننى لم أنقيد فى تفكيرى وتأملى أمام شيء مما رأيت بغير منطقى وعقيدتى الذاتية ، اللذين كونتهما الطريقة العلمية الحديثة ، فأنا لا أسلم بالعقيدة الموروثة إذا لم يكن لها أساس غير ما وجدنا عليه آباءنا ، ما لم أمتحنها وأمحصها وما لم أصل من أمرها إلى الإيمان بأنها هي الحقيقة كما يسيغها

عقلي ويطمئن إليها ضميري . وأنا لا أحسب الذين يدينون بعقيدة ما لغير شيء إلا أنهم وجدوا عليها آباءهم مؤمنين حقاً ... (١) .

إنه درس عظيم في الجدية والموضوعية والصدق مع النفس ومع الأمة التي ينتمي إليها هذا المفكر العظيم ، صريه الدكتور هيكل وهو في مرحلة نضجه الفكري . في العقد الرابع من عمره . وكان البداية لأغلب وأهم الأعمال الفكرية التي أبدعها !؟ ..

لقد كان نجماً لامعاً في سماء الفكر والسياسة يتقدم صفوف التيار الفكري العلماني - الوطني ، ... تتلمذ على الحضارة الغربية ، ودعا إلى استعارتها ككل ، بثمراتها العقلية والروحية ... وتبنى مفهومها للقومية ، فنادى - ككل أعلام هذا التيار - بـ « المصرية » التي تفصم عرى الانتماء الحضاري الإسلامي لمصر ... وتبنى علمانياتها ، فدافع عن فصل الدين عن الدولة ، ونظر إلى الإسلام باعتباره رسالة روحية خالصة ، كما كانت رسالات الأنبياء الذين سبقوا محمداً - عليه الصلاة والسلام - ...

فلما بلغ مرحلة النضج الفكري ، ورأى الأزمة - أزمة الاغتراب التي تحيط بالمتخلفين المتغربين وتعزلهم عن سواد الأمة - وبلغ مرتبة اليقين بأن بذور الحضارة الغربية غير صالحة لغراب أمتنا ، وبأن نهضتنا بها أمر محال ... جرب استلهاهم عوامل النهضة من التراث الفرعوني ... لكنه أفتقد الخيوط التي تجعل هذا التراث صالحاً لتحقيق النهضة التي تريدها الأمة .. فلما عاد إلى فكر

(١) د . محمد حسين هيكل (في منزل الوحي) ص ٢٢ - ٢٦ ، ١٢ طبعة القاهرة سنة

١٩٦٧ م .

الحضارة الإسلامية وتاريخها وجد الزاد الذي أراد ... وواتته الشجاعة ليعلن
على الملأ هذا التحول العظيم الذي قام - ويقوم - درساً عظيماً في الشجاعة
الأدبية لمفكر عظيم يحمل في عقله وقلبه وضميره هموم أمة عظيمة تجاهد
للتحرر والانعتاق من أسر الغرب الاستعماري ، ولمواجهة ما يفرضه عليها من
تحديات! ...

ويمثل هذه المواقف الشجاعة ، والتحويلات ذات الدلالة ، بقيت العلمانية
ثمرة مرة ، أقحمها كرومر في تربة الواقع المصري ، وثبتت الدفاع عنها
«مدرسة المقطم» ، واستمر يدافع عنها نفر من المثقفين المصريين ، اندفعوا
إلى تبني فكرة التغريب ، ليس بالانبهار بحضارة الغرب فقط ، وإنما
باعتبارها البديل للإسلام الحضاري ، الذي يَكُونُ له شديد العداء ... ونقد كان
سلامة موسى طليعة هذا النفر من المثقفين المصريين ، الذي يحمل «رسالتهم»
الدكتور لويس عوض ، في واقعنا الفكري المعاصر (١) ...



(١) لمزيد من التفصيل عن هذه التحويلات الفكرية ، انظر كتابنا ، الإسلام والسياسة ،
طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧ م . و : الإسلام بين التنوير والتزوير ، طبعة القاهرة سنة
١٩٩٥ م .

ثورة سنة ١٩١٩م والعلمانية

لكن الدكتور لويس عوض قد تجاهل تماماً هذه الصفحة من تاريخ العلمانية والعلمانيين في مصر .. صفحة تراجع الكثيرين من أعلامها ورموزها عن علمانيتهم ، كجزء من تراجعهم عن فكرية التغريب ، عندما خاب أملهم في هذه الفكرية كسبيل لنهضة أمتهم ، وعندما قادهم التفكير في ، المسألة الحضارية ، إلى اليقين بتميز أمتهم حضارياً ، في القديم ، وأيضاً في المشروع الحضاري الكافل لنهضتها في العصر الحديث ...

وسبب آخر ، لعله قد جعل الدكتور لويس لا يشير صراحة إلى مكان (حزب الأمة) وامتداده (الأحرار الدستوريين) من الفكر التغريبي العلماني .. وهو أن جمهور القراء يعرفون أن هذا التيار قد كان - في السياسة - تيار « المهادنة » مع الاستعمار ، كما كان في معسكر « الأقلية » ، فأبراز علمانيته لا ، يبيض وجه « العلمانية في أعين جمهور القراء »!؟ ..

ولعل هذا السبب ذاته هو الذي جعل الدكتور لويس يقفز فوق هذه الصفحة ، دون أن ينشرها ؛ ليدعى - في استغفاسة - أن سعد زغلول ، وثورة سنة ١٩١٩م ، وحزب الوفد ، قد رفعوا لواء العلمانية في مصر ، وأنها قد عرفت - بسببهم - ثلاثين عاماً من العلمانية امتدت من ثورة سنة ١٩١٩م وحتى ثورة سنة ١٩٥٢م ...

لنقرأ كلمات الدكتور لويس .. حتى ننظر حظها من الصدق في ، حقائق الفكر ، و ، وقائع التاريخ ، .. يقول : ... ويتمزيق أوصال الإمبراطورية العثمانية ، وذبول دعوة الجامعة الإسلامية ، ثم إلغاء الخلافة في تركيا .. غدت عقيدة الجامعة الإسلامية غير ذات موضوع في مصر وغيرها من إيلات الدولة العثمانية .. وقد أطلق هذا مد القومية المصرية جارفا على الأساس العلماني في ثورة سنة ١٩١٩ م ، بزعامة سعد زغلول والوفد المصري ... لقد كانت روح ثورة سنة ١٩١٩ م خالية تماما من روح الكراهية للغرب ... فقد كان المحرك الأساسي لثورة سنة ١٩١٩ م هو الإيمان الذي لا يتزعزع بالحق الطبيعي ، أي بأن مزاولة السلطة لا شرعية لها إلا بتفويض من الشعب ، وبمبدأ الفصل بين الدين والدولة ... ولقد لقت مرارة فشل الثورة العربية سعد زغلول جملة دروس ...

منها : أن المصريين هزموا وسحقت ثورتهم ، لاسبب خيانة الخديوي توفيق ، ولا بسبب سوء نية البريطانيين ، ولا بسبب نفاق تركيا ذات الوجهين .. وإنما فشلت الثورة العربية أساسا لأن المصريين كانوا غير ناضجين ، وكانوا يعتمدون على تراث باق لهم من العصور الوسطى أكثره محض هراء ؛ فشلت الثورة العربية لأن طريق التحرر من الاستبداد الداخلي ومن السيطرة الأجنبية معا هو نفس الطريق الذي سارت فيه شعوب أوروبا منذ الرئيسانس ، ألا وهو العلمانية ... وبثورة سنة ١٩١٩ م انتصرت العلمانية في مصر ، وامتد انتصارها ، من الناحية الرسمية ثلاثا وثلاثين سنة ، أي من ثورة سنة ١٩١٩ م

إلى ثورة سنة ١٩٥٢ م ... (١) .

تلك هي كلمات الدكتور لويس عن « علمانية مصر » : ثورة ١٩١٩ م والوفد
وسعد زغلول .. والآن ، لنعرض هذه الدعوى على « حقائق الفكر » و « وقائع
التاريخ » ...

* إن العلمانية - بما تعنيه من عزل الدين عن شئون الدولة والمجتمع - لم
تكن « الأساس » الذي قام عليه المد القومي الذي تفجّر ، والذي فجر ثورة سنة
١٩١٩ م .. فشعار هذا المد قد كان « وحدة الهلال مع الصليب » ، وليس
تجاهل ولا تجاوز ما يرمز إليه « الهلال » و « الصليب » ؟ .. فأين هي العلمانية
في ثورة قدح زندها وأورى نارها الشيوخ والقساوسة من فوق منابر المساجد
والكنائس .. ولعب فيها الأزهر دورا بارزا ؟ ..!

* ومن الذى قال إن « روح ثورة سنة ١٩١٩ م قد خلت تماما من روح
الكراهية للغرب » ؟ ..!؟ إن مبلغ علمي أن الدكتور لويس نيس الراهب المسيحى
الذى يمارس خلق « الصوفية - المسالمة » الذى جاءت به المسيحية الأولى ،
خلق « أحبوا أعداءكم ، وباركوا لاعينكم » .. فهل بلغت به المحبة للغرب ،
والعشق لقيمه الحضارية إلى حد تصوير « ثورة » سنة ١٩١٩ م بأنها قد خلت
تعاما من روح « الكراهية » للغرب الذى كان يجلد الشعب ، ويقهر الأمة ،
وينهب الاقتصاد ، ويشوه الذاتية الحضارية ، ويخضب الأرض بدماء
الشهداء ؟ ..!

(١) (المصور) العدد ٣٠٧٦ فى ٩ / ٢٣ / ١٩٨٣ م .

* ثم .. من قال إن الثورة العربية لم تهزم - في الأساس - بسبب خيانة الخديوي ، وسوء نية إنجلترا ؟! ..

نستأنهم الدكتور لويس بالتعاطف مع توفيق أو الإنجليز ، فالرجل برىء من ذلك تماما ... لكنه يوقع نفسه في مواطن الشبهات طلبا للإلقاء تبعات هزيمة الثورة العربية على كامل عقيدة الأمة وموروث الشعب وما يؤمن به الجماهير ، والإسلام - كما يعرف الدكتور لويس ويقصد - هو هذه العقيدة وهذا الموروث ... فالثورة العربية - برأيه - قد فشلت لأنها لم تكن ، علمانية ، ، تفصل الدين عن الدولة ، وتبني ، القيم الغربية ، لأنها بدلا من ذلك «اعتمدت على تراث باق للمصريين .. أكثره محض هراء ، ؟! ...» وفي موطن آخر من دراسة الدكتور لويس عن (قصة العلمانية في مصر) يرجع تخلف الخديوي عباس الأول (١٢٢٨ - ١٢٧٠ هـ / ١٨١٣ - ١٨٥٤ م) إلى ، كراهيته للأوروبيين وحضارتهم .. واكتفائه بالقيم الدينية بين رعاياه ، ؟! .. فسبب الانحطاط ، والمرجع في هزيمة الثورة العربية - عنده - أنها لم تنخلص من الموروث الإسلامي ، ولم تتبن العلمانية الكافئة لإزاحة الإسلام من ميدان الحياة الدنيا ؟!

وبصرف النظر عما في هذه الدعوى من استفزاز صارخ لجمهور الأمة ، يأباه الذين يدركون مكان العقائد الدينية وسلطان الموروث الديني .. فإننا نتجاوز الجدل في هذه النقاط الخطرة ، ونعرض هذه المقولة على الثابت المتواتر من ، حقائق الفكر ، ووقائع التاريخ للثورة العربية ..

إن رموز الموروث - إبان الثورة العربية - وأعلامه كانوا في طليعة هذه الثورة ... بل لقد كان المحافظون من هؤلاء الأعلام هم قادة الجناح الأصعب عمودا والأكثر والأوضح رؤية في أحداث هذه الثورة وتطوراتها ! فمواقف الشيخ حسن العدوي (١٢٢١ - ١٣٠٣ هـ / ١٨٠٦ - ١٨٨٦ م) وخطبه وفناواه بخيانة الخديوي وعزله .. شهيرة في تراث هذه الثورة وأحداثها .. وصلاية الشيخ عيش (١٢١٧ - ١٢٩٩ هـ / ١٨٠٢ - ١٨٨٢ م) في أحداث هذه الثورة هي التي جعلت الإنجليز يحملونه - وهو المريض الذي جاوز الثمانين - غداة الهزيمة ، فيلقونه بالسجن ليموت فيه ؟! .. أما المجددون من رموز هذا الموروث وأعلامه الذين كان يقودهم الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ / ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) فإنهم هم الذين صاغوا برنامج ، الحزب الوطني ، : حزب الثورة الذي وحد صفوف الأمة ، وجعل برلمان الثورة - المجلس العرفي - يضم كل قيادات الطوائف الدينية غير الإسلامية : المسيحيين بطوائفهم ، واليهود بمذاهبهم ... فهل هذا الموروث هو : محض الهراء ، الذي قاد الثورة إلى الفشل والهزيمة ؟! .. ولو كانت علمانية لانتصرت ، رغم خيانة الخديوي ، و سوء نية البريطانيين ، - (لاحظ الوصف المخفف لجرم الغزاة المحتلين - مجرد سوء نية ،) ؟! ..

* أما حكاية ، الحق الطبيعي ، الذي يجعل ، شرعية السلطة رهنا بتفويض الشعب لها ، .. فلقد سبق وعرضنا لها ، على النحو الذي أكد أن موقف الإسلام السياسي لا يعترف شرعية لسلطة لا تستند إلى تفويض من الأمة ؛ لأن هذه الأمة - بنظره - هي مصدر السلطة والسلطان ... كان هذا هو

موقف الإسلام منذ أن حكم أبو بكر الصديق ، بالاختيار والبيعة ، وإلى أن اختارت الأمة بواسطة ، مجلس الشرع ، محمد علي باشا واليا على مصر ، بشروط الأمة ؛ تأسيسا على حقها الثابت - شرعا - في عزل ولاية الجور ، حتى ولو كانوا خلفاء وسلطين ... فما جاءت به ثورة سنة ١٩١٩ م من تقرير لهذا المبدأ ليس غريبا عن موروث الأمة ، وإن كان معاديا لمذاهب المستبدين الذين اغتصبوا حقوق الأمة في هذا الميدان ..

* ويبلغ الدكتور لويس قمة تزييف الحقائق عندما يدعى أن سعد زغلول والوفد - بل ومصر - قد فصلت الدين عن الدولة على امتداد السنوات التي امتدت من ثورة سنة ١٩١٩ م وحتى ثورة سنة ١٩٥٢ م ..

ونحن نسأل الدكتور لويس :

هل هي علمانية - تفصل الدين عن الدولة - دولة ومجتمع ينص دستورهما على أن دين الدولة الرسمي هو الإسلام ؟! .. وفي أي دولة من الدول العثمانية الأوروبية يحدث ذلك ؟! ..

وهل هي علمانية تلك الدولة التي تبنى المساجد وتنفق على الأزهر وترسل الدعاة الإسلاميين من ميزانيتها العامة ؟! ..

وهل هي علمانية تلك الدولة التي تقرر تعليم الدين في مدارس التعليم العام ؟! ..

وهل هي علمانية تلك الدولة التي ترعى القيم الدينية ، وتسائل الخارجيين على ما تعارف عليه الدين من عقائد وأفكار ؟! ..

ثم .. من الذى علّم الدكتور لويس أن سعد زغلول كان علمانيا ، يؤمن إيمانا لا يتزعزع بمبدأ فصل الدين عن الدولة ، ؟ .. لأنه درس القانون الفرنسى ؟ ... وهل محا ذلك إسلامه الذى ورثه ، وتعلمه فى الأزهر ، وتتلذذ فيه على جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ؟ ..!

إن هناك حقائق صلبة وعديدة تنفى علمانية سعد زغلول ، وتذكر وتستنكر الادعاء بأنه كان يؤمن بفصل الدين عن الدولة ... وفى مقدمة هذه الحقائق موقف سعد زغلول من الكتاب الذى دعا إلى ، علمنة الإسلام ، ، ونادى بفصل الدين عن الدولة : كتاب الشيخ على عبد الرازق عن (الإسلام وأصول الحكم) ..!

لقد سجل سكرتير سعد زغلول : الأستاذ محمد إبراهيم الجزيرى - وهو قانونى تخرج من مدرسة القضاء الشرعى ، وصاحب مجلة (القضاء الشرعى) التى كانت تتعاطف مع آراء الشيخ على عبد الرازق - سجل فى ذكرياته عن سعد زغلول نص الكلمات التى انتقد بها أفكار كتاب (الإسلام وأصول الحكم) ، واستنكاره للعلمانية وفصل الدين عن الدولة ، وإنكار هذا الكتاب ، مدنية الإسلام ، وجمعه بين الدين والدولة .. وهذه الكلمات هى وثيقة فكرية وتاريخية ، تدحض القول بعلمانية سعد وإيمانه هو والوفد وثورة سنة ١٩١٩ م بمبدأ فصل الدين عن الدولة ... قال سعد زغلول - وكان يومئذ فى صفوف المعارضة للملك أحمد فؤاد (١٢٨٤ - ١٣٥٥ هـ / ١٨٦٩ - ١٩٣٦ م) الذى وقف خلف محاكمة ، هيئة كبار العلماء ، لعلى عبد الرازق - قال بعد أيام من إدانة هذه الهيئة لأفكار على عبد الرازق - قال لسكرتيره ، مساء يوم الخميس ٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٥ م - :

لقد قرأت كتاب (الإسلام وأصول الحكم) بإمعان لأعرف مبلغ الحملات عليه من الخطأ أو الصواب ، فعجبت ، أولاً : كيف يكتب عالم ديني بهذا الأسلوب في مثل هذا الموضوع ١٢ . وقد قرأت كثيراً للمستشرقين ولسواهم ، فما وجدت ممن طعن منهم في الإسلام حدة كهذه الحدة في التعبير ، على نحو ما كتب الشيخ علي عبد الرازق ! .

لقد عرفت أنه جاهل بقواعد دينه ، بل بالتمسك من نظرياته ، وإلا فكيف يدعى أن الإسلام ليس مدنياً ، ولا هو بنظام يصنع للحكم ١٣ ؟ فأية ناحية مدنية من نواحي الحياة لم ينص عليها الإسلام ١٤ ؟ هل التبيع ؟ أو الإجارة ؟ أو الهبة ؟ أو أي نوع آخر من المعاملات ١٥ . ألم يدرس شيئاً من هذا في الأزهر ١٦ . أولم يقرأ أن أمما كثيرة حكمت بقواعد الإسلام فقط عهداً طويلاً كانت أنصر العصور ؟ وأن أمما لا تزال تحكم بهذه القواعد ، وهي أممة مطمئنة ؟ . فكيف لا يكون الإسلام مدنياً ، ودين حكم ١٧ .

وأعجب من هذا ما ذكره في كتابه عن الزكاة ١٨ فأين كان هذا الشيخ من الدراسة الدينية الأزهرية ١٩ .

إنني لا أفهم معنى الحملة المتحيزة التي تنيرها جريدة (السياسة) حول هذا الموضوع ، وما قرار هيئة كبار العلماء ، بإخراج الشيخ علي من زمرةهم إلا قرار صحيح لا عيب فيه .. ومهما كان الباعث فإن العلماء فعلوا ما هو واجب وحق .. فذلك أمر لا علاقة له مطلقاً بحرية الرأي التي تدعيها (السياسة) ..

والذي يؤلمني حقاً أن كثيراً من الشبان الذين لم تقو مشاركتهم في العلم

القومى ، والذين تحملهم ثقافتهم الغربية على الإعجاب بكل جديد ، سبتحيرون
لمثل هذه الأفكار ، خطأ كانت أو صوابا ، دون تمحيص ولا درس ، ويجدون
تشجيعا على هذا التحيز فيما تكتبه جريدة (السياسة) وأمثالها من القراء العظيم
على الشيخ على عبد الرازق ، ومن تسميتها له بالعالم المدقق والمصلح
الإسلامى والأستاذ الكبير ... الخ ..

وكم وددت أن يفرق المدافعون عن الشيخ بين حرية رأى وبين القواعد
الإسلامية الراسخة التى تصدى كتابه لهدمها ، (١) ؟ ..

هذه هى كلمات سعد زغلول ، تعلن فى حسم ووضوح :

« أن الإسلام دين مدنى ودين حكم » ... وأن « قواعد وحدها ، قد حكمت
أصبا كثيرة ، فيما مضى .. ولا تزال أمم تحكم بهذه القواعد فى عصرنا
الحديث .. وأن ذلك الحكم الإسلامى قد أثمر - قديما - أنصر عصور تلك الأمم ،
ولا يزال حتى اليوم مصدر الأمن والطمأنينة » للذين يحكمون بالإسلام ! ..

وأن الذين يتحيزون للعثمانية وقصل الدين عن الدولة - من أنصار على عبد
الرازق - إنما دفعهم إلى ذلك : ضعف « مداركهم فى العلم القومى » ، أى
جهلهم بثرات الأمة وفكرها الحضارى ... وتخريبهم « وثقافتهم الغربية التى
تحمنهم على الإعجاب بكل جديد ، خطأ كان هذا الجديد أو صوابا ، دون
تمحيص ولا درس » ! ..

(١) محمد إبراهيم الجزيرى (سعد زغلول : ذكريات تاريخية) ص ٩٦ ، ٩٣ ، طبعة
القاهرة - كتاب اليوم .

وأن القول بالعلمانية هو ، هدم لقواعد الإسلام الراسخة ، ... ١٠

فأين هي - إذن - علمانية سعد زغلول ؟ ..؟ وعلمانية الوفد ؟ ..؟ وعلمانية
مصر ثورة سنة ١٩١٩ م ؟ ..؟ وإيمانهم الذي لا يتزعزع بمبدأ فصل الدين
عن الدولة ، ، الذي ، اخترعه ، الدكتور لويس عوض ، ثم ألقى به إلى
القراء ؟ ..؟



جمال عبد الناصر والعلمانية

يرى الدكتور لويس عوض في دراسته عن (قصة العلمانية في مصر) أن تنظيم « الضباط الأحرار » ، الذي فجر وقاد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ م ، هو - من حيث الفكر والأصول - تنظيم « ثيوقراطي » ..! فهو - عنده - « سبيكة » تشكلت من مجموعة الضباط المتأثرين بالأحزاب والجماعات والتنظيمات « الثيوقراطية » : (الإخوان المسلمين) و (مصر الفتاة - الحزب الاشتراكي) و (الحزب الوطني الجديد) .. وهي التنظيمات التي تنسب إلى (الحزب الوطني) الذي أسسه مصطفى كامل ، في مطلع القرن العشرين ، والذي يرى فيه الدكتور لويس عوض - اقتداء بأستاذة سلامة موسى - : « حزب « الثيوقراطية » ، المناوئ » ، للوطنيين التقدميين » ، الذين « اختاروا الاستعمار الإنجليزي المتحضر » بدلا من العلاقة مع الدولة العثمانية الجاهلة ... وموقف هذا الحزب في رأي سلامة موسى هو « ردة عن الفكرة الوطنية » بالعودة إلى جامعة الإسلام (١) : ...! وفي رأي لويس عوض « رجعية ناوأت الوطنيين العلمانيين التقدميين الذين اختاروا الاستعمار الإنجليزي المتحضر » ..!

(١) سلامة موسى (اليوم والغد) . والنص منقول عن (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) ج ٢ ص ٢١٥ .

ذلك هو ، النسب الفكرى ، لتنظيم ، انضباط الأحرار ، ... كما رآه الدكتور
لويس . : واحد من التنظيمات ، الشيوقراطية ، .. ظهر ، كسبكة سرية .. بين
الانضباط الأحرار ، كان أبوها المروحي عزيز المصرى باغدا (١) . . .

وهو يرى أن تنظيم ، الانضباط الأحرار ، قد احتفظ ، بشيوقراطيته ، إلى ما
بعد قيام الثورة .. فعندما قامت ثورة ١٩٥٢ م كانت أغلبية الانضباط الأحرار
ومجلس قيادة الثورة ذات ميول للحزب الوطنى أو لمصر الفتاة أو للإخوان
المسلمين .. وهى التنظيمات الشمولية .. التى تمثل الجناح الشيوقراطى فى
الثورة العربية (٢) . . .

لكن الدكتور لويس . حرصا منه على أن يصور لقارئه أن مصر الحديثة
كانت دائما علمانية ، وأن مشاريعها النهضوية كانت كلها علمانية ، وأن
زعاماتها التاريخية كانوا دائما علمانيين ذهب ليوهم القارئ أن جمال
عبد الناصر (١٣٣٦ - ١٣٩٠ هـ / ١٩١٨ - ١٩٧٠ م) قائد تنظيم ، الانضباط
الأحرار ، وزعيم الثورة ، قد تحول من خلال الصراع بينه وبين (جماعة
الإخوان المسلمين) من ، الشيوقراطية ، إلى ، العلمانية ، فكانت مصر الناصرية
علمانية ... يقول : ، لقد أصبح عبد الناصر مع كل تحرك جديد ضد
(الإخوان) أكثر علمانية فى تفكيره وفى أساليبه العملية .. ولقد استغرق دعوة
الوحدة الإسلامية فى دعوة الوحدة العربية وفى دعوة الاشتراكية العربية ..

(١) (المصور) العدد ٣٠٧٦ فى ٢٣ / ٩ / ١٩٨٢ م . (تاريخ الفكر المصرى الحديث)

من عصر إسماعيل إلى ثورة سنة ١٩١٩ م ، ج ١ ص ١١٢ .

(٢) (المصور) العدد ٣٠٧٨ فى ٧ / ١٠ / ١٩٨٣ م .

وهما أكثر علمانية .. وحتى بعد كارثة الهزيمة في ١٩٦٧ م تثبت عيد الناصر بأسلحته العلمانية حتى وفاته ١٩٧٠ م ، ومن أجل هذا يجب أن نصف المرحلة الناصرية بأنها الحقبة العلمانية الرابعة في تاريخ مصر (١) ، !

تلك هي كلمات الدكتور لويس ، وهذه هي دعواه : تنظيم ثيوقراطي ، بفجر ثورة ثيوقراطية ، تفودهما زعامة ثيوقراطية .. ثم يحدث التحول من الثيوقراطية إلى العلمانية من خلال الصراع مع (جماعة الإخوان المسلمين) لتصبح مصر الناصرية إحدى حقب مصر العلمانية - (ولاحظوا أن الرجل لم يكلف نفسه النظر في هذه المعادلة غير المعقولة : تنظيم ثيوقراطي ، يتحول للعلمانية ، بسبب الصراع مع تنظيم آخر مثله في الثيوقراطية) ؟! - لكن .. لتجاوز عن هذه المفارقة .. ونسأل : ما هو نصيب هذه المعقولة من الصديق الفكري والتاريخي ؟؟ ..

بادئ ذي بدء نجد لزاما علينا أن ننبه إلى المتزلق الذي لا يكف الدكتور لويس عن الوقوع فيه ... فالرجل صاحب عقل قد (ضرب في أوروبا ، وعشقه للحضارة الغربية وولائه لها قد بلغ درجة الممثل الماهر الذي تجاوز مرحلة (توصيل الدور ، أداء النص ، فأصبح ، يعيش فيه ، !.. فإذا كانت الصراعات التي شهدتها الدولة ، في أوروبا مع الكنيسة ، كانت صراعات دينية ، لأن الكنيسة مؤسسة كهنوتية مقدسة تحنك - بحكم اللاهوت الكنسي - جميع حقوق التفسير للدين والحديث باسمه . إذا كان هذا هو حال وطبيعة

(١) المرجع السابق .

صراع ، الدولة ، مع ، الكنيسة ، فى أوربا .. صراع بين ، العلمانية ، وبين «الدين» ، وطبيعته ، دينية ، ، فإن الدكتور لويس يصب صراع ثورة ٢٣ يوليو مع الإخوان المسلمين فى ذات القوالب الأوربية ، ويخلص إلى أن هذا الصراع قد تحول بعبد الناصر ومصر الثورة من ، الشيوقراطية ، إلى ، العلمانية .. ولقد تجاهل الدكتور لويس خصوصية الشرق والإسلام فى هذه القضية .. وأكثر من هذا تجاهل أن حقيقة الصراع بين قيادة الثورة وبين الإخوان لم يكن صراعاً على الدين ولا خلافاً على الانتماء إليه والولاء له ، وإنما كان صراعاً سياسياً - وليس دينياً - دارت رحاه حول الحكم والسلطة ، أى الفريقين أحق بها وأقدر على القبض على مقدراتها !!

ونحن إذا تتبعنا فكر ثورة ٢٣ يوليو إبان مراحل صراعها مع (الإخوان المسلمين) ونظرنا إلى موقفها من الإسلام ، وجدنا من الأدلة الشاهدة على هذه الحقيقة ما لا تستوعبه هذه الصفحات ..

* ففي ٥ سبتمبر ١٩٥٤ م ، وإبان الصراع بين الثورة و(الإخوان) يخطب عبد الناصر ، فيقول : « هم يقولون : القرآن دستورنا . ونحن نخلع الملك ، ونقصى على الفساد والظلم الاجتماعى ، ونحقق الجلاء . فهل هذا الذى نعمله خروج على القرآن ؟! » (١) .

فالاخلاف بين الفريقين ليس على القرآن ، بل إن ما بينهما هو ، مزايده ، على القرآن ؟! ..

(١) خطاب جمال عبد الناصر . رفعت سيد أحمد (الدين والدولة والثورة) ص ٨٨ طبعة كتاب الهلال . القاهرة سنة ١٩٨٥ م .

* وفي ٢٢ مارس ١٩٦٦ م ، أثناء المرحلة الثانية من الصدام العنيف بين الثورة و(الإخوان) - ممثلين في تنظيم المرحوم سيد قطب (١٣٢٤ - ١٣٨٦ هـ / ١٩٠٦ - ١٩٦٦ م) - يخطب عبد الناصر فيقول : « لم تكن الرجعية أبدا شريعة الله ، ولكن شريعة الله كانت دائما هي شريعة العدل (١) : !

فأين هي العلمانية عند عبد الناصر الذي يقول إنه والثورة الملتزمون حقا بشريعة الله ، وليس الإخوان المسلمين ؟!..

* وفي ٢٢ فبراير ١٩٦٢ م ، يخطب عبد الناصر في ذكرى وحدة مصر وسوريا ، فيقول : « إن الإسلام ثورة ، والتضامن الإسلامي تحتاجه الشعوب (٢) ،

وعن ذات القضية يتحدث في خطاب ٢٨ مايو ١٩٦٢ م قائلا : « بالنسبة للروابط الإسلامية ، إحننا طبعاً أشرنا في « الميثاق » إلى الإسلام والروابط الإسلامية ، ولقد أشير إلى هذا من أول يوم من أيام الثورة في كتاب فلسفة الثورة (٣) .

فأين هو ذلك التحول عن الروابط الإسلامية واستغراقها في الوحدة العربية ، الأكثر علمانية ، كما يقول الدكتور لويس ؟!..

لقد التزم عبد الناصر ، والتزمت الثورة بالتصور الذي تحدث عنه كتاب

(١) المرجع السابق . ص ٩١ .

(٢) المرجع السابق . ص ١١٣ .

(٣) المرجع السابق . ص ١١١ .

(فلسفة الثورة) حول الدوائر التي تتحرك فيها مصر : الدائرة الوطنية ،
 فالعربية ، فالإسلامية .. وهي دوائر يلم كل منها للآخر ، دونما تناقض أو
 تضاد .. ولم تكن الوحدة العربية - في فكر الثورة ولا في ممارساتها - نهاية
 المطاف ، ولا الدائرة التي تلغى روابط الجامعة والتضامن مع عالم الإسلام ..
 وفي هذا المعنى يقول جمال عبد الناصر في خطاب ٢٧ مارس ١٩٦٧ م : « إن
 الأمة العربية لا ترى أي تعارض بين قوميتها العربية المحددة وبين تضامنها
 القلبي والأخوي مع الأمم الإسلامية ، أي أن الأمة العربية - بقواها الثورية
 التقدمية - لا ترى في الإسلام عائقاً عن التطور ، بل تراه - بحس وإيمان - دافعاً
 لهذا التطور ، ! (١) » .

* ومن الذي يستطيع أن يغفل دلالة زيادة تركيز عبد الناصر على دور
 الدين في عملية إنهاء الأمة لمواجهة الهزيمة التي حلت بها في يونيو
 ١٩٦٧ م ؟ .. لقد عاش عبد الناصر السنوات التي أعقبت الهزيمة ، ولا هم له
 أكبر من بناء القوة الضاربة القادرة على تحقيق النصر وإزالة عار الهزيمة ..
 والذين يطالعون خطبه وأحاديثه ، وخاصة إلى الجنود والضباط ، يلمسون
 التركيز على دور الإيمان والتدين في هذا العمل الكبير الذي ختم الرجل به
 حياته .. ففي حديثه إلى الجنود والضباط في ١٠ مارس ١٩٦٨ م يقول :
 « عاوز كل عسكري يكون مؤمن بالدين وبالقيم ، ولازم التوجيه
 المعنوي يعمق هذه المعاني ، ويجعل عامل الإيمان بأنه أساسي في توعية
 الجندي ، وهذا الإيمان الذي يملأ قلب كل واحد يدفعه أن لا يتردد في وقت

(١) المرجع السابق - ص ٨٢ .

الشدة . قد لمست ذلك في المعركة ، وعشت أياها ، وأدركتم قوة المبادئ
والإيمان ، (١) !

وفي خطابه في اليوم التالي ١١ / ٣ / ١٩٦٨ م - يتحدث عن عوامل النصر
فيقول : « بالإرادة والإيمان بالله والثقة بالنفس ، وبالتدريب وبالجهد وبالعلم
نستطيع أن نحيل الهزيمة إلى نصر » (٢) .

* بل إننا لو وجدنا في فكر الثورة ما يقطع « بوعيها » بقيام العلاقة بين
« الدين » الإسلامي وبين « الدولة » ، الأمر الذي يجعل الحديث عن علمانية
هذه الثورة وقائدها ضرباً من التزييف لحقائق الفكر ووقائع التاريخ ..

ففي المذكرة الإيضاحية لقانون « تطوير الأزهر » رقم ١٠٣ بتاريخ ٢٢ يونيو
١٩٦١ م نقرأ هذه العبارة ذات الدلالات الهامة : « إن الإسلام - في حقيقته -
لا يفرق بين علم الدين وعلم الدنيا ؛ لأنه دين اجتماعي ينظم سلوك الناس في
الحياة ليحيوا حياتهم في حب الله عاملين مؤثرين في المجتمع في ظل طاعة
الله ... والإسلام يفرض على كل مسلم أن يأخذ بنصيبه من الدين والدنيا .
فكل مسلم يجب أن يكون رجل دين ورجل دنيا » (٣) ١٩

فهذه العبارات - التي تضمنتها هذه الوثيقة الرسمية من وثائق حكومة
الثورة - حاسمة ، لا في نفى العلمانية - بمعنى فصل الدين عن الدولة - فقط ،
وإنما هي حاسمة في نقض العلمانية وفي العداء لها ١٩ ..

(١) المرجع السابق . ص ٩٤ .

(٢) المرجع السابق . ص ٩٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٥ .

وفى كلمات عبد الناصر نجد ذات المعنى ونفس الموقف .. ففى خطابه فى ٢٨ يوليو ١٩٦٣ م يقول : « فيه ناس بيقلولوا : إن الإسلام دين رجعى . وأنا أقول : أبدا ، الإسلام دين تقدمى . هو دين التطور والحياة . والإسلام يمثل الدين ويمثل الدنيا ، لا يمثل الدين فقط . الإسلام هو دين العدالة الاجتماعية » (١) .

وعندما تخرج إذاعات بعض النظم العربية المناوئة لعبد الناصر تتهم على اعتماد الثورة وقائدها على الفكر الإسلامى ، يتناول عبد الناصر هذه القضية - فى ذات الخطاب - ٢٨ / ٧ / ١٩٦٣ - فيعلن أن علاقة الدين بالدولة فى وطن الأمة العربية هى حقيقة تاريخية .. وأن هذه الأمة - على امتداد تاريخها - لم تمكن لحاكم خارج على الدين من السلطة والسلطان فى بلادها .. يقول عبد الناصر : « طول عمر هذه المنطقة العربية تمسكت بالدين ، وطول عمر هذه المنطقة دافعت عن الدين ، وطول عمر هذه المنطقة تدافع عن الدين ولم تمكن أى خارج عن الدين من أن يكون صاحب سلطة فيها » (٢) !؟

فأين هى « العلمانية » - ياترى - تلك التى يتحدث عنها الدكتور لويس ؟ .. وأين وجدها ؟ .. وها هو ذا فكر الثورة - من خلال فكر قائدها .. ومن خلال وثائقها القانونية - شاهد صدق وعدل على نفيها للعلمانية ، بل وعدائها لمضمونها الأساسى ، وهو « فصل الدين عن الدولة » ؟ ..

وأكثر من « فكر الثورة » فى نفي العلمانية ، تقوم « ممارساتها » ، و « الواقع » الذى ورثته وطورته وأضافت إليه - مع الحفاظ على طبيعته - وكلها شواهد

(١) المرجع السابق - ص ١١٠ .

(٢) المرجع السابق - ص ١٠٩ .

على أن الحديث عن علمانية مصر الناصرية هو ضرب من تزييف حقائق الفكر ووقائع التاريخ ..

* فالمساجد الجديدة التي ارتفعت مآذنها في سماء مصر الثورة تنفي عنها العلمانية ..

* والنمو الملحوظ في ميزانيات الأوقاف شاهد ثان من شهود الواقع على إسلامية مصر الثورة ..

* وقيام منظمة المؤتمر الإسلامي شاهد ثالث ..

* ولجان إحياء التراث الإسلامي ، وما أضافت للمكتبة الإسلامية من كنوز تراث الإسلام شاهد رابع ..

* و المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وسلاسل الكتب الإسلامية التي أصدرها .. وأنشطته بين الشباب المسلم شاهد خامس .

* والمراكز الإسلامية التي أقامتها مصر الثورة - وأنفقت عليها - خارج حدودها شاهد سادس ..

* والعداء للفكر المادي .. ومنع تدريسه للبعثات التي ذهبت في المجتمعات الماركسية شاهد سابع .

* واهتمام الإذاعة المسموعة والمرئية بالفكر الإسلامي شاهد ثامن .

* والحرص على إبراز الخلاف مع الماركسية حول الدين ، ودور الدين في النهضة شاهد تاسع .

* والتوسع في التعليم الإسلامي - من خلال الأزهر وجامعته ومعاهده الدينية - شاهد عاشر ..

وهي شواهد - تضاف - مع مثيلاتها الكثيرة - إلى فكر الثورة وقيادتها
لنجد لنا حقائق ووقائع التاريخ في مصر ثورة ٢٣ يوليو ... وهي الحقائق
والوقائع التي نقول :

لقد كان المشروع الناصري مشروعاً قومياً ، يلى فى التاريخ ، ويتمثل فى
الأهمية مع مشروع محمد على باشا ، وسابقه مشروع الناصر صلاح الدين
الأيوبي (٥٢٢ - ٥٨٩ هـ / ١١٣٧ - ١١٩٣ م) .. وهذا المشروع الناصري وإن
لم يكن إسلامياً خالصاً فإنه - بالقطع - ليس علمانياً .. وإنما هو خطوة على
درب الإحياء لذاتية الأمة الحضارية ، ولخصوصيتها المتميزة - وهي ذاتية
وخصوصية يمثل الإسلام الحضارى جوهرها - إحياء هذه الذاتية وإبراز هذه
الخصوصية فى مواجهة الغرب ، وفكرته العلمانية ، وتحدياته التى فرضها
على وطن العروبة وعالم الإسلام ... ومن هنا فإن هذا المشروع القومى
الناصرى هو خطوة هامة - من الناحية الموضوعية - نحو « أسلمة » الحياة
والنهضة فى عالم الإسلام .. ومن هنا جاءت مواجهة الغرب لهذا المشروع
على نفس المستوى الذى واجه به المشاريع النهضوية التى سبقته على درب
النهضة والتحرر والإحياء .. تلك هى حقيقة المشروع الذى قال عنه
الدكتور لويس : إنه « الحقبة العلمانية الرابعة فى تاريخ مصر الحديثة » ١٢ ..

وهذا هو نصيب دعوى « علمانية نهضة الحديثة » من الاتفاق والاتفاق
مع حقائق الفكر ووقائع التاريخ ١٣ ..

فكم فى هذه الدعوى - يا ترى - من حقائق الفكر ١٤ .. وكم فيها من
« المزيف والادعاء » ١٥ ..

كلمات ودية

وإذا كان لنا أن نختم هذه الصفحات عن « العلمانية ونهضتنا الحديثة » .. فإننا نختمها بكلمات مخصصة .. وودية .. نتوجه بها إلى الأستاذ الدكتور لويس عوض - الذى لا يمنعنا الخلاف معه من أن نكن له الود والاحترام - ذلك أن الحقيقة هي ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها .. بل يجب أن نكون ضالة الإنسان ، من حيث هو إنسان ! ..

ولقد كان بوسع الدكتور لويس عوض أن يحذر لنفسه فكرية التغريب والعلمانية كما يحب ويشاء ... وكان بوسع أن يدعو الناس إلى هذه الفكرية التغريبية ، وما فيها من علمانية تفصل الدين عن الدولة ، وينفق في هذه الدعوى ما يستطيع من جهود وطاقت ... وذلك دون أن يشوه فكر مصر وتاريخها بقوله إن زعماءها وقادة النهضة فيها قد كانوا - وكانت هي معهم - علمانيين ... ودون أن يبلغ فى هذا الزعم تلك الدرجة التى جعلته يضع قادة مصر وزعماء نهضتها : محمد على ، وإسماعيل ، وسعد زغلول ، وجمال عبد الناصر .. مع غزاتها وقاهرى كبرياتها الوطنى : بونابرت ، وكرومر فى سلة واحدة ، هي « سلة العلمانية » ، وفى خندق واحد هو ، خندق التغريب ، ! ..

كان باستطاعة الدكتور لويس أن يختار لنفسه من الفكر ما يشاء ، دون أن يحاول ، جر ، مصر وقادتها إلى السوق الذى اختاره لنفسه ... وكثيرون هم

الذين اختاروا العلمانية مذهباً يعتنقونه ، وفكراً يدافعون عنه ، وطريقاً يدعون إليه ، وذلك دون أن يشوهوا تاريخ مصر بتزييف حقائق فكره ، ووقائع ممارساته ، ... ولنضرب للدكتور لويس مثلاً ونموذجاً كان باستطاعته - لو أنصف - أن يحتذيه ..

* فرجل القانون البارز الأستاذ مصطفى مرعى : قد اختار ، العلمانية ، لنفسه فكراً ومذهباً .. وبلغ على هذا الدرب حداً خالف فيه وبه كل الإسلاميين .. فعنده : « .. الإسلام دين لا دولة ، .. ومن الخطأ أن نقول : « إن الإسلام عقيدة وشريعة » ؟! .. وهو يرى « أننا لا نستطيع أن نطبق الشريعة الإسلامية إذا أردنا أن نطبق حكماً يتفق مع العصر .. » ؟! ..

لكن الرجل لم يذهب فى تبرير ، الغلو العلمانى ، إلى حد تشويه تاريخ مصر ، والقول بأنها علمانية كى ، يبيض وجه ، العلمانية ، ويظهرها بمظهر الفكر المنتصر الذى صنع لمصر النهضة والتحديث .. وإنما كان الرجل - مع اعتناقه للعلمانية ، والدعوة إليها - أميناً مع تاريخ وطنه ، وذلك عندما تحدث عن العلمانية فقال :

« العلمانية : لفظ جرى على الألسن - فى العصور الوسطى - فى الأوساط المسيحية ، كاتجاه يستهدف تقويض سلطة الكنيسة السياسية ، لتصبح - فقط - كنيسة الله ؛ لأن الدين هناك كان هو الأساس وقاعدة الانتماء .. وكانت سطوة الكنيسة تشمل الأرض والناس والحياة ، ولم تكن فكرة الوطنية قد تبلورت ، لم يكن قد ظهر - أيضاً - معنى القومية أو مفهومها ، لم تكن هناك من سلطة سوى سلطة الكنيسة ، وكانت البابوية تأمل فى أن يسود الدين المسيحى العالم ، وأن

تكون البابوية عالمية . وتحت ضغط العاطفة الدينية وسطوة الكنيسة استطاع الكثيرون من رجال الدين أن يتولوا أخطر المناصب في الدول المتفرقة في العالم الغربي ، وبدا منهم ما بدا من قسوة وانحراف مما امتلأت به الصفائف السود التي سودت وجه التاريخ .. كانوا ضد العلم وضد المعرفة ، يعتبرونها هرطقة وسحرا ، حتى تأخزت أوربا ،

وعندما جاء عصر النهضة - أو الإحياء - كان الخلاص - من وجهة نظر عقلاء المجتمع - مرتبطا بعزل السلطتين ، أى فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية ... ومن هنا ظهر إلى الوجود مصطلح « العلمانية » ، ومقابلته في اللغة العربية : « التفرقة » والفصل بين السياسة والدين

وبعد أن أعلن الأستاذ مصطفى مرعى رأيه المحبذ لفصل الدين عن الدولة ... وأبان - في دقة - الظروف التي أثمرت العلمانية في الحضارة الغربية .. تحدث عن الواقع التاريخي لمصر ، وعلاقته وعلاقتها بالعلمانية .. فقال :

« .. أما نحن - في مصر - فلم تكن في يوم من الأيام دولة علمانية ، لا قبل الثورة ولا بعدها .. فأننا حين أتحدث عن مصر فإننى أتحدث عن مصر الحديثة .. عن مصر قبل الثورة ومصر بعد الثورة ... مصر قبل الثورة كان يحكمها نظام ملكى يقوم على دستور ١٩٢٣ م ، وفى دستور ١٩٢٣ م جرى النص على ، أن مصر دولة لغتها العربية ودينها الإسلام ، . وقد نقل هذا النص نقلا حرفيا بلفظه ومعناه من دستور ١٩٢٣ م إلى أول دستور وضعته الثورة ١٩٥٦ م . ثم نقل النص أيضا إلى دستور ١٩٦٤ م . وأخيرا إلى دستور ١٩٧١ م ،

الذى نص - أيضا - على أن الشريعة الإسلامية هي مصدر التشريعات ... (١) تلك هي كلمات رجل اختار العلمانية مذهباً ، دون أن يلجئه هذا الاختيار إلى تزيف التاريخ ... وهو نموذج نختلف معه في مذهبه ، ونحترمه عندما يحترم حقائق التاريخ .. ولقد كان باستطاعة الدكتور لويس عوض أن يتخذ من موقف مصطفى مرعى تمودجا يحتذية ..

* كذلك ، فإن المسيحية - التي يتدين بها الدكتور لويس عوض - ليست هي ، خصم ، الحضارة الإسلامية ، ولا هي ، النقيض ، للقانون الإسلامى .. بل ولا هي ، المسيحية الغربية ، التي خرجت عن طبيعة المسيحية الشرقية الأولى لتصبح مجرد قسمة فى الحضارة المادية الغربية ..

فالمسيحية الشرقية هي جزء من التراث التاريخى لأمتنا العربية الإسلامية ، تعتر بها أمتنا - مسلموها والمسيحيون - وهذه المسيحية لها عند المسلمين قداسة علمهم إياها قرآنهم الكريم ورسولهم - عليه الصلاة والسلام - ..

وفيما يتعلق بطبيعة الإسلام وطبيعة المسيحية هناك حقائق قد أجمع عليها العلماء والباحثون ، من مختلف الأديان :

فالمسيحية رسالة روحية محضة ، طالبت وتطالب من كنيساتها وأبنائها أن يدعوا ما تقيصر لقيصر وما لله لله : فالمسيحى الحقيقى لا يدعى أن لكنيسته ولاهوته نظاما مدنيا لسياسة الدولة وتنظيم الاجتماع والاقتصاد ... وهو إن

(١) (المصور) العدد ٣٠٩٤ فى ٢٧ / ١ / ١٩٨٤ م . والعدد ٣١٠٤ فى ٤ / ٦ سنة ١٩٨٤ م .

ادعى ذلك كان خارجا عن روح المسيحية ونصها ومتجاوزا لرسالة كنيسةها .

أما الإسلام فإن جمهور العلماء والباحثين - من مختلف الأديان - قد اتفقوا على أنه دين ودولة ، وضع للسياسة وتنظيم المجتمع أطرا مرنة وحدد لها الفلسفات والمقاصد والغايات ، ضرب للتشريع المدني أمثلة في الآيات القرآنية التي تناولت الأحكام .. ثم ترك للعقل إبداع القانون ووضع التشريعات في ضوء هذه الأطر والفلسفات ، على هدى من مصلحة الأمة المتجددة والمتطورة باستمرار ...

أما الحضارة العربية الإسلامية فإنها - وإن اتسقت مع الروح الإسلامية الدينية - إلا أنها إبداع بشري في الأساس ، متميز عن « الإسلام : الدين » ؛ ذلك لأن هذه الحضارة قد تبلورت قسماتها الأولى بعد نحو قرنين من ظهور الإسلام ، فجاءت ثمرة « لعصر التدرين » ، الذي هو حصيلة لتلاقى النهج الإسلامى بالمواريث الحضارية لشعوب البلاد التي فتحها العرب المسلمون .. وفى هذا البناء الحضارى العربى الإسلامى أسهمت الأمة كلها : المسلمون من أبنائها وغير المسلمين .. فهى حضارة الأمة : مسلميها والمسيحيين .. ولذلك فإن الدعوة إلى أن يكون مشروعنا الحضارى النهضوى عربيا إسلاميا ، ليس مطلباً للمسلمين وحدهم ، ومن الخطأ البالغ أن يكون كذلك ؛ لأن هذه الحضارة هى حضارة الأمة ، بالمعنى ، القومى ، وليس بالمعنى ، الدينى ...

وإذا كنا أبناء حضارة واحدة فليس من الطبيعى أن يمنح نفر منا ولاءهم لحضارة غربية غازية ، مارست وتمارس مع مواريت البلاد التي ابتليت بها سياسة المسخ والنسخ والتشويه ...

وإذا كان الإسلام ديناً مدنياً - والمسيحية ليست كذلك - فإن « فقه المعاملات الإسلامية ، والقانون المدني الإسلامي ، وما في الإسلام من كليات وفلسفات ومقاصد لسياسة الدولة وتنظيم المجتمع ، ليس بديلاً ولا نقبضاً للمسيحية الشرقية .. وإنما هو بديل للقانون الوضعي ذي المصدر الأجنبي الاستعماري وفلسفته في التشريع ، وهو القانون والفلسفة اللذان فرضا على مؤسستنا القانونية والقضائية والتشريعية تحت حراب الغزو والاستعمار ... وإن المكان الطبيعي للمسيحي المصري والشرقي - من منطلق وطني وقومي وحضاري - هو إلى جانب الحضارة العربية الإسلامية ؛ لأنها حضارته التي يواجه بها الحضارة الغربية الغازية .. وإلى جانب « القانون الإسلامي » - الذي هو ثمرة لإبداع عبقرية أمته في الفقه والتشريع فمن منطلق وطني وقومي وحضاري لا بد للمسيحي المصري من أن ينحاز لفقه الفقيه المصري الليف بن سعد (٩٤ - ١٧٥ هـ / ٧١٣ - ٧٩١ م) ومحمد بن إدريس الشافعي (١٥٠ - ٢٠٤ هـ / ٧٦٧ - ٨٢٠ م) .. وغير متصور ولا لائق أن يهدر تراثه الفقهي هذا ليستبدل به قانون « الغازي نابليون » ؟ ! أو قوانين الرومان .. فنابليون - بالنسبة لنا جميعاً - هو طليعة المد الاستعماري الحديث الذي جاء فأذل الأمة جميعاً : مسلميها ومسيحييها .. والرومان - بالنسبة لنا جميعاً - هم الذين مارسوا القهر والإذلال بالنسبة لأجدادنا القبط ، قبل الفتح العربي لمصر ، حتى أخرجوهم من ديارهم وكنائسهم ، وأجبروهم على الفرار بدينهم وتقاليدهم إلى بطون الكهوف والمغارات في الصحراء ! ..

تلك هي طبيعة المواجهة الحضارية بين حضارتنا العربية الإسلامية

المتميّزة ، وبين الحضارة الغربية الغازية .. ولا أثر ولا تأثير في هذه المواجهة لتعدد العقائد الدينية في وطن العروبة وعالم الإسلام ..

ولقد أدرك هذه الطبيعة لهذه المواجهة الحضارية كثيرون من الإخوة المسيحيين .. ولهم في ذلك كتابات تزدان بها المكتبة العربية . وإذا كانت هذه الصفحات لا تتحمل الإفاضة في هذا المبحث الذي يستحق دراسة قائمة بذاتها ، فلا أعتقد أن فكر هؤلاء المفكرين والمثقفين قد غاب تماما عن ذاكرة الدكتور لويس ..

* فغير بعيدة عنا - ومنا - مواقف السياسي البارز والقانوني المقتدر والوطني المناضل وليم مكرم عبيد .. والموقع الذي حدده لقيبط مصر في هذه المواجهة الحضارية ، عندما قال كلمته الجامعة :

(نحن مسيحيون في الدين .. مسلمون في الوطن) ؟! ..

* كذلك ، فإن حركتنا الفكرية تتابع - بكل الإعجاب - جهود المفكر البارز الدكتور أنور عبد الملك ، في هذا الميدان ... وهو الذي عرف نفسه ، عندما سئل :

- من أنت ؟ .. فقال :

(أنا مصري ، عربي ، شرقي .. قبطي المولد .. مسلم حضارة) (١) ؟!

* ومن الذي يستطيع أن ينكر دلالة الموقف الفكري للأستاذ سليمان مرقس - أستاذ القانوني المدني - الممثل في قوله :

(١) (المصور) العدد ٣١١٩ في ٢٠ - ٧ - ١٩٨٤ م .

(لقد عدت الشريعة الإسلامية نظاماً قانونياً كاملاً ، يعدل أرقى الشرائع ، بل إن بعض نظمها يفصل ما يقابله من نظم في أحدث الشرائع العصرية) ؟ (١) .

وهل هناك فارق - أى فارق - بين هذا الموقف الفكري - لهذا القانوني المسيحي - وبين الموقف الفكري للقانوني المسلم الأستاذ الدكتور عبد الزراق السنهوري (١٣١٣ - ١٣٩١ هـ / ١٨٩٥ - ١٩٧١ م) الذى يقول :

(إن الشريعة الإسلامية لو تناولتها يد الصياغة فأحسنّت صياغتها نصنعت منها نظريات ومبادئ لا تقل فى الرقى والشمول ومسايرة التطور عن أخطر النظريات الفقهيّة التي نتلقاها عن الفقه الغربى الحديث) ؟ (٢) .

ليس هناك فارق .. لانحداد الموقع فى المواجهة الحضارية بيننا وبين الغرب .. وفى هذه المواجهة الحضارية كانت الشريعة الإسلامية - وما تزال - هي شريعة الشرق والشرقيين ، - بالمعنى الحضارى الشامل ... وبعبارة الدكتور السنهوري :

(أليست الشريعة الإسلامية - بعد أن تكون شريعة الله - هي شريعة الشرق ، منتزعة من روح الشرق وضميره ، أوحى بها الله إلى عبد شرقى ، فى أرض شرقية) ؟ (٣) .

(١) دراسة للمستشار محمود الشربيني - نائب رئيس مجلس الدولة المصرية - صحيفة (الوفد) فى ٢٨ / ٣ / ١٩٨٥ .

(٢) المرجع السابق ، نفس الدراسة .

(٣) (الأهرام) فى ٦ / ٣ / ١٩٨٥ م .

* ومن الذى ينكر دلالة أرقام ، استطلاع الرأى ، الذى نظمته - كدراسة ميدانية - (المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية) بمصر .. حول ، تطبيق الشريعة الإسلامية ، فى مصر ، والذى شارك فى الإجابة على أسئلته مسلمون ومسيحيون .. فكانت هذه الأرقام ذات الدلالة الحاكمة :

* مع ، التطبيق الفورى ، للشريعة الإسلامية زادت نسبة المسيحيين عن المسلمين (٣٢ ٪ إلى ٣١ ٪) ..!؟

* ومع ، التطبيق التدريجى ، زادت نسبة المسلمين عن المسيحيين (٦٩ ٪ إلى ٦٨ ٪) ..!؟

* ومع تطبيق أحكام الشريعة على الجميع - بصرف النظر عن اختلاف الدين - زادت نسبة المسيحيين عن المسلمين (٧١ ٪ إلى ٦٩ ٪) ..!؟

وكان تعليق الإجابات : « أنا مجتمع واحد .. وهذه الجرائم حرمها الله على كل الناس .. ولا فرق بين المسلم والمسيحى أمام القانون .. ولأننا دولة إسلامية ، (١) ...!؟

* ثم ... ما هو رأس الكنيسة القبطية وبابا الأقباط الأرثوذكسى الأنبا شنودة يقول :

(إن الأقباط - فى ظل حكم الشريعة - يكونون أسعد حالا وأكثر أمنا ، ولقد كانوا كذلك فى الماضى ، حينما كان حكم الشريعة هو السائد ... نحن نتوق إلى أن نعيش فى ظل ، لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ... إن مصر تجلب

(١) (الأهرام) فى ٢٠ / ٣ / ١٩٨٥ .

القوانين من الخارج حتى الآن ، وتطبقها علينا . ونحن ليس عندنا ما في الإسلام من قوانين مفصلة ، فكيف نرضى بالقوانين المجبوبة ، ولا نرضى بقوانين الإسلام ؟! (١) ..

تلك إشارات لأراء ومواقف ذات دلالة هامة - لمفكرين بارزين ، يمثلون نماذج لكثيرين غيرهم ، يتخذون نفس الموقف الفكري ، وذات الموقع الحضارى إنهم الأبناء البسرة لأمتنا الواحدة ، ولحضارتنا العربية الإسلامية الواحدة ... بهم - مع كل أنصار استقلالها الحضارى - تواجه التغريب العلمانى الذى يفرضه على عقلها وواقعها الغزاة المستعمرون .. وبهم تفاخر الأمة ، ولسان حالها يخاطب المتغربين - الذين منحوا ولاءهم لحضارة الأجنبى - فى شخص الدكتور لويس عوض ، ومن وقف موقفه - بصرف النظر عن العقيدة الدينية لهؤلاء المتغربين - فيقول :

أولئك (أبنائى) فجئنى بمثلهم إذا جمعنا يا (لويس) الجامع !
تلك كلمات ودية ، ومخلصة .. إن لم تؤت ثمرتها مع الدكتور لويس - بحكم دوافعه .. وضعف قدراته على التغيير لأفكاره - فإنها ضرورية فى الحوار مع الذين يحسنون الظن به من القراء ..!

إنه إذا كانت العلمانية واحدة من سمات الحضارة الغربية الغازية .. فإن مصر الحديثة لم تكن علمانية فى يوم من الأيام .. وتبعاً لذلك فلم تكن نهضتنا العربية الإسلامية - التى كانت مصر فيها الطليعة والرائدة - علمانية

(١) (الأهرام) فى ٦/٣/ ١٩٨٥ م .

بحال من الأحوال .. لأن بلادنا لم تستسلم للقهر الأجنبي في أى فترة من فترات التاريخ ..

نعم .. لقد عرفت مصر، حكاما علمانيين ، لكن هؤلاء ، الحكام العلمانيين ، لم يتجاوزوا :

١ - بوناپرت : الذى اضطر إلى أن يهرب من مصر بليل أمام الثورة الشعبية التى قادتها الزعامة الشعبية الإسلامية : (مجلس الشرع) ، بزعامة عمر مكرم ؟! ..

٢ - اللورد كرومر : الذى خرج من مصر (مذءوما مدحورا) أمام ضغط الحركة الوطنية ، التى قادها الزعيم الوطنى - الإسلامى ، مصطفى كامل ؟! ..

أما فى الفكر والثقافة فلقد عرفت بلادنا من العلمانيين :

١ - نخبة : انبهرت بالحضارة الغربية وعلمانيتها .. لكن الأصالة الحضارية للأمة قد رفعت - وما تزال ترفع - الغشاوة عن أعين الكثيرين من أعلام هذه النخبة .. فعادوا ويعودون إلى الدفاع عن الخصوصية الحضارية لأمتهم التى ترفض التغريب وعلمانيته ..

٢ - كما عرفت ذلك الفتوة الشاذ : الذى اندفع إلى تبني العلمانية الغربية ، لا لشيء إلا لأنها البديل للإسلام السياسى والحضارى ، الذى يكون له الرفض والعداء .. لقد تمثل هذا الفتوة ، فى « مدرسة المقطم » الغربية المتغربة - أساسا - وفى امتدادها عند سلامة موسى ، ثم فى تلميذه المعاصر - عزيزنا - الدكتور لويس عوض ؟! ..

تلك هي القصة الحقيقية للعلمانية .. كخصوصية غربية .. وحل أوربي
لمشكلة أوربية .. ولموقف الإسلام ، والحضارة العربية الإسلامية من طبيعة
السلطة السياسية للدولة ولعلاقة نهضتنا الحديثة بالعلمانية ، كوافد غربي ،
أفتحم علينا بلادنا في ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة .. فكان - ولا يزال -
جبهة من جبهات نضالنا الفكري ضد الاستعمار ..

وهي قصة نرجو أن نكون قد حسنا ، إشكالها ، بهذه الصفحات ! ..



المصادر

أولاً : قرآن وسنة :

١ - القرآن الكريم .

٢ - كتب السنة :

- * (صحيح البخارى) طبعة دار الشعب . القاهرة .
- * (صحيح مسلم) طبعة القاهرة ١٩٥٥ م .
- * (سنن الترمذى) طبعة القاهرة ١٩٣٧ م .
- * (سنن النسائى) طبعة القاهرة ١٩٦٤ م .
- * (سنن أبى داود) طبعة القاهرة ١٩٥٢ م .
- * (سنن ابن ماجه) طبعة القاهرة ١٩٧٢ م .
- * (سنن الدارمى) طبعة القاهرة ١٩٦٦ م .
- * (مسند الإمام أحمد) طبعة القاهرة ١٣١٣ هـ .
- * (موطأ الإمام مالك) طبعة دار الشعب ، القاهرة .

ثانياً : مصادر مطبوعة ومخطوطة :

ابن تيمية : (منهاج السنة النبوية) طبعة القاهرة ١٩٦٢ م .
ابن جميع (أبو حفص عمر) : (عقيدة التوحيد) طبعة القاهرة
١٣٥٣ هـ .

ابن خلدون : (المقدمة) طبعة القاهرة ١٣٢٢ هـ .

ابن عبد البر : (الدرر في اختصار المغازي والسير) طبعة القاهرة ١٩٦٦ م .

ابن القيم : (أعلام الموقعين) طبعة بيروت ١٩٧٣ م .

أبو حنيفة النعمان ، المغربي : (دعائم الإسلام) طبعة القاهرة ١٩٦٩ م .

الأفغانى (جمال الدين) : (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة القاهرة ١٩٦٨ م .

أمين سامي باشا : (تقويم النيل) طبعة القاهرة ١٩٣٦ م .

: (التعليم في مصر) طبعة القاهرة ١٩١٧ م .

أنور عبدالملك (دكتور) : مجلة (المصور) ٢٠ / ٧ / ١٩٨٢ م .

الإيجي ، والجرجاني : (شرح المواقف) طبعة القاهرة ١٣١١ هـ .

النهانوى : (كشاف اصطلاحات الفنون) طبعة القاهرة ١٩٦٣ م .

الجاحظ : (رسائل الجاحظ) طبعة القاهرة ١٩٦٤ م .

الجببرى : (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) طبعة القاهرة ١٩٦٦ م .

: (مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين) طبعة القاهرة

١٩٦٩ م .

جمال الدين الشيال (دكتور) : (تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في

عصر محمد على) طبعة القاهرة ١٩٥١ م .

جمهورية إيران الإسلامية : (الدستور الإسلامى لجمهورية إيران

الإسلامية) طبعة قم - إيران - ١٩٧٩ م .

الجوينى : (الإرشاد) طبعة القاهرة ١٩٥٠ م .

جيبون : (اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها) طبعة القاهرة ١٩٦٩ م .

- الخميني (آية الله) : (الحكومة الإسلامية) طبعة القاهرة ١٩٧٩ م .
- الدهلوي (ولي الله) : (حجة الله البائغة) طبعة القاهرة ١٣٥٢ هـ .
- الرافعي (عبد الرحمن) : (تاريخ الحركة القومية) طبعة القاهرة ١٩٥٨ م .
- : (عصر محمد علي) طبعة القاهرة ١٩٥١ م
- : (عصر إسماعيل) طبعة القاهرة ١٩٤٨ م .
- : (مصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال) طبعة القاهرة ١٩٦٦ م .
- رفعت سيد أحمد : (الدين والدولة والثورة) طبعة القاهرة ١٩٨٥ م .
- الزركلي (خير الدين) : (الأعلام) طبعة بيروت .
- سركيس : (معجم المطبوعات العربية والمعربة) طبعة القاهرة ١٩٢٨ م .
- سلامة موسى : (اليوم والغد) طبعة القاهرة ١٩٢٧ م .
- السنهوري (عبد الرزاق - دكتور) : (مصادر الحق في الفقه الإسلامي) طبعة القاهرة ١٩٦٧ م .
- الشهرستاني : (نهاية الإقدام في علم الكلام) طبعة جنيوم - مصورة - بدون تاريخ .
- الطهطاوي (رفاعه رافع) : (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت ١٩٧٣ - ١٩٨١ م .
- الطوسي (أبو جعفر) : (تلخيص الشافي) طبعة النجف ١٣٨٣ هـ .
- عاطف غيث (دكتور - وآخرون) : (قاموس علم الاجتماع) طبعة القاهرة ١٩٧٠ م .

- عبد الجبار (قاضى القضاة) : (المغنى فى أبواب التوحيد والعدل) طبعة
القاهرة
- عبد المنعم النمر (دكتور) : : تطبيق ، (الأهرام) ٦ / ٣ / ١٩٨٥ م ،
٢٠ / ٣ / ١٩٨٥ م .
- عزائى (أحمد - باشا) : (كشف الأسرار) طبعة القاهرة ١٩٥٨ م .
- على بن أبى طالب (الإمام) : (نهج البلاغة) طبعة دار الشعب -
القاهرة
- على عبد الرازق : (الإسلام وأصول الحكم) طبعة القاهرة ١٩٢٥ م ،
وطبعة بيروت ١٩٧٢ م .
- عمر طوسون : (البعثات العلمية فى عهد محمد على ، وعباس ، وسعيد)
طبعة القاهرة ١٩٣٤ م .
- الغزالى (أبو حامد) : (الاقتصاد فى الاعتقاد) طبعة صبيح - القاهرة -
بدون تاريخ .
- (فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة) طبعة القاهرة ١٩٠٧ م
- الغرافى : (الأحكام فى تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضى
والإمام) طبعة حلب ١٩٦٧ م .
- الكتانى (عبد الحى) : (نظام الحكومة النبوية المسمى التراتيب الإدارية)
طبعة بيروت - دار الكتاب العربى .
- لويس عوض (دكتور) : (تاريخ الفكر المصرى الحديث من عصر
إسماعيل إلى ثورة ١٩١٩ م) طبعة القاهرة ١٩٨٠ م .
- (قصة العلمانية فى مصر) (المصور) ٢٣ / ٩ / ١٩٨٣ م ،

١٩٨٣ / ٩ / ٣٠ م ، ١٩٨٣ / ١٠ / ٧ م .

، حديث ، (المصور) ١٩٨٤ / ٤ / ٢٠ م .

(الإيراني الغامض في مصر) مجلة (التضامن) العدد ١٦

١٩٨٣ م .

الماوردي : (أدب الدنيا والدين) طبعة القاهرة ١٩٧٣ م .

مجمع اللغة العربية (القاهرة) : (معجم العلوم الاجتماعية) طبعة القاهرة

١٩٧٥ م .

محمد إبراهيم الجزيري : (سعد زغلول - ذكريات تاريخية) طبعة القاهرة

، كتاب اليوم .

محمد أحمد خلف الله (دكتور) : (النص والاجتهاد والحكم في الإسلام)

مجلة (العربي) - الكويت - يونيو ١٩٨٤ .

محمد البهي (دكتور) : (العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق) طبعة

القاهرة ١٩٧٦ م .

محمد حسين هيكل (دكتور) : (حياة محمد) طبعة القاهرة ١٩٨١ م .

(في منزل الوحي) طبعة القاهرة ١٩٦٧ م .

محمد حميد الله الحيدر آبادي : (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي

والخلافة الراشدة) طبعة القاهرة ١٩٥٦ م .

محمد رضا المظفر : (عقائد الإمامية) طبعة النجف - دار النعمان .

محمد عبده (الأسفاذ الإمام) : (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق : د .

محمد عمارة ، طبعة بيروت ١٩٧٢ م .

محمد عمارة (دكتور) : (العرب والتحدى) طبعة الكويت ١٩٨١ م .

- (جمال الدين الأفغانى المفترى عليه) طبعة القاهرة ١٩٨٤ م .
- (الإسلام وقضايا العصر) طبعة بيروت ١٩٨٤ م .
- (رفاة الطهطاوى) طبعة القاهرة ، بيروت ١٩٨٤ م .
- (عمر مكرم) : دراسة ، مجلة (الهلال) نوفمبر ١٩٨٤ م ،
فبراير ١٩٨٥ م .
- محمد فؤاد عبد الباقي : (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) طبعة دار
الشعب ، القاهرة .
- محمد محمد حسين (دكتور) : (الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر)
طبعة القاهرة ١٩٨٠ م .
- محمد مختار المصرى (باشا) : (التوقيعات الإلهامية) دراسة وتحقيق :
د. محمد عمارة . طبعة بيروت ١٩٨٠ م .
- محمود الشربى : : دراسة ، (الوقف) ٢٨ / ٣ / ١٩٨٥ م .
- المرتضى (الشريف) : (مجموع من كلام السيد المرتضى) مخطوط
بالمكتبة التيمورية - دار الكتب المصرية .
- مصطفى مزعى : (المصور) ٢٧ / ١ / ١٩٨٤ م ، ٦١ / ٤ / ١٩٨٤ م .
- المقريزى : (الخطط) طبعة دار التحرير ، القاهرة .
- المودودى (أبو الأعلى) : (الحكومة الإسلامية) طبعة القاهرة سنة
١٩٧٧ م .
- (نظرية الإسلام السياسية) طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .
- (تدوين الدستور الإسلامى) طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .
- (الإسلام والمدنية الحديثة) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م .

(القانون الإسلامى وطرق تنفيذه فى باكستان) طبعة بيروت

سنة ١٩٦٩ م .

(المبادئ الأساسية لفهم القرآن) طبعة الكويت سنة ١٩٧١ م .

(المسلمون والصراع السياسى الراهن) طبعة القاهرة سنة

١٩٨١ م .

(الأمة الإسلامية وقضية القومية) طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م .

النويرى : (نهاية الأرب) طبعة دار الكتب المصرية . القاهرة .

ونعناك (ا . ي) : (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف)

طبعة ليدن ١٩٣٦ - ١٩٦٩ م .

اليونسكو : (تاريخ البشرية) طبعة القاهرة ١٩٧١ م .

ثالثا : دوريات :

* (المسلم المعاصر) . الكويت .

* (السياسة) اليومية ، القاهرة .

* (المصور) . القاهرة .

* (الأهرام) . القاهرة .

* (الوفد) . القاهرة .

المؤلف

١ - سيرة ذاتية - فى نقاط - :

* مفكر إسلامى .. ومؤلف .. ومحقق .

* ولد بريف مصر - بقرية ، صروة ، مركز ، قلين ، محافظة كفر الشيخ ، فى ٢٧ رجب سنة ١٣٥٠ هـ / ٨ ديسمبر سنة ١٩٣١ م . فى أسرة ميسورة الحال ، تحترف الزراعة .

* قبيل مولده ، كان والده - عليه رحمة الله - قد نذر لله : إذا جاء المولود ذكرا ، أن يسميه محمدا ، وأن يهبه للعلم الدينى .

* حفظ القرآن وجوَّده بـ «كُتَّاب : القرية .. مع تلقى العلوم المدنية الأولية بمدرسة القرية - مرحلة التعليم الإلزامى - .

* فى سنة ١٩٤٥ م التحق ، بمعهد سوق الدينى الابتدائى ، - التابع للجامع الأزهر الشريف - ومنه حصل على شهادة الابتدائية سنة ١٩٤٦ م .

* وفى المرحلة الابتدائية بدأت تتفتح وتنمو اهتماماته الوطنية والعربية والإسلامية والثقافية .. فشارك فى العمل الوطنى - قضية استقلال مصر .. والقضية الفلسطينية - بالخطابة فى المساجد .. والكتابة - نثرا وشعرا - وكان أول مقال نشرته له صحيفة (مصر الفتاة) - بعنوان ، جهاد ، -

عن فلسطين في أبريل سنة ١٩٤٨ م .. وتطوع للتدريب على حمل السلاح ضمن حركة مناصرة القضية الفلسطينية .. لكن لم يكن له شرف الذهاب إلى فلسطين .

* في سنة ١٩٤٩ م التحق ، بالمعهد الأحمدي الثانوي ، ، بطنطا ، ، التابع للأزهر الشريف . ومنه حصل على شهادة الثانوية الأزهرية سنة ١٩٥٤ م .. وواصل في مرحلة الدراسة الثانوية اهتماماته السياسية والثقافية .. ونشر شعراً ونشراً في صحف ومجلات (مصر الفتاة) و (منبر الشرق) و (المصري) و (الكاتب) .. وتطوع للتدريب على السلاح بعد إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ م في سنة ١٩٥١ م .

* في سنة ١٩٥٤ م التحق بكلية ، دار العلوم ، - جامعة القاهرة - .. ومنها تخرج ، نال درجة ، الليسانس ، في اللغة العربية والعلوم الإسلامية .. وتواصل ، في مرحلة الدراسة الجامعية نشاطه الوطني والثقافي .. فشارك في ، المقاومة الشعبية ، بمنطقة قناة السويس - فايد - وأبو سلطان - إبان مقاومة الغزو الثلاثي لمصر سنة ١٩٥٦ م .. ونشر المقالات في صحيفة (النساء) - المصرية - ومجلة (الآداب) - البيروتية - .. وألف أول كتبه عن (القومية العربية) والذي طبع - مرتين - سنة ١٩٥٨ م . ثم ترجم إلى بعض اللغات الأوربية - وهو طالب بدار العلوم - .

* بعد التخرج من الجامعة أعطى كل وقته - تقريباً - وجميع جهده لمشروعه الفكري .. فجمع وحقق ودرس ونشر الأعمال الكاملة لأبرز أعلام اليقظة العربية الإسلامية الحديثة : رفاعة الطهطاوي .. وجمال الدين

الأفغانى .. ومحمد عبده .. وعبد الرحمن الكواكبي .. وعلى مبارك .. وقاسم أمين .. وكتب عن أعلام التجديد الإسلامى وتيارات الفكر الإسلامى - عبر تاريخ الحضارى ، القديم منه والحديث والمعاصر - وعن السمات المميزة لحضارتنا الإسلامية .. والمشروع الحضارى الإسلامى .. وحوار - كتابية ومناقشة - العديد من أصحاب المشاريع والمذاهب الفكرية الوافدة .. وحقق عدداً من نصوص تراثنا الإسلامى القديم .

وكجزء من عمله الفكرى : حصل - من كلية دار العلوم - فى العلوم الإسلامية تخصص الفلسفة الإسلامية - على الماجستير سنة ١٩٧٠ م بأطروحة عن (المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية) . وعلى الدكتوراه سنة ١٩٧٥ م بأطروحة عن (الإسلام وفلسفة الحكم) .

* أسهم فى تحرير العديد من الدوريات الفكرية المتخصصة ، والصحف والمجلات .. وشارك فى العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية فى وطن العربى وعالم الإسلام وخارجهما - كما أسهم فى تحرير عدد من الموسوعات السياسية والحضارية والعامة - مثل (موسوعة السياسة) و(موسوعة الحضارة العربية) و (موسوعة العلوم السياسية) و(موسوعة الشروق) و (موسوعة سفير) - الخ ..

* نال عضوية عدد من المؤسسات العلمية والفكرية والبحثية ، منها : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، - بمصر - و : المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، - واشنطن - و : مركز الدراسات الحضارية ، - بمصر - و : المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية ، - مؤسسة آل البيت ، بالأردن - ..

- * حصل على عدد من الجوائز والأوسمة والميداليات .. منها : جائزة جمعية
أصدقاء الكتاب ، بلبنان - سنة ١٩٧٢ م . وجائزة الدولة التشجيعية -
بمصر سنة ١٩٧٧ م .. ووسام العلوم والفنون ، من الطبقة الأولى ..
وجائزة على وعثمان حافظ - لمفكر العام سنة ١٩٩٣ م .. الخ .. الخ .
والعديد من الشهادات التقديرية والميداليات والأوسمة والدرع ..
- * تجاوزت أعماله الفكرية - تأليفاً وتحقيقاً - المائة كتاب .. وذلك غير ما نشرته
نه الصحف والمجلات من مقالات .
- * ترجمت العديد من كتبه إلى عدد من اللغات .. مثل الإنجليزية والفرنسية
والألمانية والإسبانية والتركية والأوردية والفارسية والروسية .
- * نه من الأبناء : الدكتور خالد - جراح عظام - كلية طب عين شمس - ومن
البنات : نهاد - ماجستير في الكيمياء الحيوية .
- * الاسم كاملاً : دكتور محمد عمارة مصطفى عمارة .

٢ - المؤلفات والتحقيقات :

أ - تأليف :

- ١ - معالم المنهج الإسلامى .
- ٢ - الإسلام وفلسفة الحكم .
- ٣ - الإسلام وأصول الحكم - دراسة ووثائق .
- ٤ - معركة الإسلام وأصول الحكم - دراسة وتحقيق .
- ٥ - الإسلام والسياسة : الرد على شبهات العلمانية .
- ٦ - الإسلام والفنون الجميلة .
- ٧ - الإسلام وحقوق الإنسان - ضرورات لا حقوق .
- ٨ - الإسلام والمستقبل .
- ٩ - الإسلام والثورة .
- ١٠ - الإسلام والعروبة .
- ١١ - الإسلام والعروبة والعلمانية .
- ١٢ - إسلامية المعرفة .
- ١٣ - الدين والدولة .
- ١٤ - الإسلام وقضايا العصر .
- ١٥ - الإسلام والوحدة القومية .

- ١٦ - الإسلام والسلطة الدينية .
- ١٧ - الإسلام والحرب الدينية .
- ١٨ - الإسلام بين العلمانية والسلطة الدينية .
- ١٩ - الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية .
- ٢٠ - هل الإسلام هو الحل .. لماذا .. وكيف ؟
- ٢١ - سقوط الغزو العلماني .
- ٢٢ - نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام .
- ٢٣ - أزمة الفكر الإسلامي المعاصر .
- ٢٤ - الغزو الفكري : وهم أم حقيقة ؟
- ٢٥ - الاستقلال الحضاري .
- ٢٦ - الطريق إلى اليقظة الإسلامية .
- ٢٧ - تيارات الفكر الإسلامي .
- ٢٨ - الصحوة الإسلامية والتحدى الحضاري .
- ٢٩ - المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية .
- ٣٠ - المادية والمثالية في فلسفة ابن رشد .
- ٣١ - عندما أصبحت مصر عربية إسلامية .
- ٣٢ - معارك العرب ضد الغزاة .
- ٣٣ - العرب والتحدى .

- ٣٤ - مسلمون ثوار .
- ٣٥ - التفسير الماركسي للإسلام .
- ٣٦ - الإسلام بين التثوير والتزوير .
- ٣٧ - فكر التنوير بين العلمانيين والإسلاميين .
- ٣٨ - سلامة موسى : اجتهد خاطيء أم عمالة حضارية ؟
- ٣٩ - صراع القيم بين الغرب والإسلام .
- ٤٠ - الفريضة الغائبة : عرض وحوار وتقويم .
- ٤١ - الجامعة الإسلامية والفكرة القومية عند مصطفى كامل .
- ٤٢ - استراتيجية التخصير في العالم الإسلامي .
- ٤٣ - الأصولية بين الغرب والإسلام .
- ٤٤ - التيار القومي الإسلامي .
- ٤٥ - الأمن الاجتماعي والعدالة الاجتماعية .
- ٤٦ - الإبداع الفكري والخصوصية الحضارية .
- ٤٧ - معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام .
- ٤٨ - الإسلام والتعددية : الاختلاف والتنوع في إطار الوحدة .
- ٤٩ - التعددية : الرؤية الإسلامية والتحديات الغربية .
- ٥٠ - التراث والمتغيرات في البقعة الإسلامية .
- ٥١ - الحركات الإسلامية : رؤية نقدية .

- ٥٢ - الصحوة الإسلامية في عيون غربية .
- ٥٣ - النموذج الثقافي .
- ٥٤ - الانتماء الثقافي .
- ٥٥ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم .
- ٥٦ - الغرب والإسلام .
- ٥٧ - ابن رشد بين الغرب والإسلام .
- ٥٨ - أبو حيان التوحيدي بين الزندقة والإبداع .
- ٥٩ - جمال الدين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض .
- ٦٠ - التراث والمستقبل .
- ٦١ - الوعي بالتاريخ وصناعة التاريخ .
- ٦٢ - التراث في ضوء العقل .
- ٦٣ - دراسات في الوعي بالتاريخ .
- ٦٤ - القدس الشريف : رمز الصراع وبوابة الانتصار .
- ٦٥ - المنهج العقلي في دراسة العربية .
- ٦٦ - العالم الإسلامي والمتغيرات الدولية .
- ٦٧ - عالمنا : حضارة ؟ أم حضارات ؟؟ .
- ٦٨ - الجديد في المخطط الغربي تجاه المسلمين .
- ٦٩ - العلمانية بين الغرب والإسلام .

- ٧٠ - إسرائيل .. هل هي سامية ؟
- ٧١ - ظاهرة القومية في الحضارة العربية .
- ٧٢ - رحلة في عالم الدكتور محمد عفاة .
- ٧٣ - نظرية الخلافة الإسلامية .
- ٧٤ - القومية العربية ومؤامرات أمريكا ضد وحدة العرب .
- ٧٥ - فجر اليقظة القومية .
- ٧٦ - العروبة في العصر الحديث .
- ٧٧ - الأمة العربية وقضية الوحدة .
- ٧٨ - ثورة الزنج .
- ٧٩ - الفكر القائد للثورة الإيرانية .
- ٨٠ - أزمة العقل العربي - مناظرة مع الدكتور فؤاد زكريا .
- ٨١ - المواجهة بين الإسلام والعلمانية - مناظرة .
- ٨٢ - تهاافت العلمانية - مناظرة .
- ٨٣ - العدل الاجتماعي لعمر بن الخطاب .
- ٨٤ - الفكر الاجتماعي لعلي بن أبي طالب .
- ٨٥ - عمر بن عبد العزيز .
- ٨٦ - جمال الدين الأفغاني : موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام .
- ٨٧ - محمد عبده : تجديد الدنيا بتجديد الدين .

- ٨٨ - رفاة الطهطاوى : رائد التنوير فى العصر الحديث .
- ٨٩ - عبد الرحمن الكواكبي : شهيد الحرية .
- ٩٠ - على مبارك : مهندس التاريخ والعمران .
- ٩١ - أبو الأعلى المودودى والصحة الإسلامية .
- ٩٢ - قاسم أمين وتحرير المرأة .
- ٩٣ - الشيخ محمد الغزالي : الموقع الفكرى والمعارك الفكرية .
- ٩٤ - نظرة جديدة إلى التراث .
- ٩٥ - عندما دخلت مصر فى دين الله .
- ٩٦ - تجديد الدنيا بتجديد الدين .
- ٩٧ - الدكتور يوسف القرضاوى : المدرسة الفكرية .. والمشروع الفكرى .
- ب - دراسة وتحقيق :**

- ٩٨ - الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى .
- ٩٩ - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده .
- ١٠٠ - الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى .
- ١٠١ - الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي .
- ١٠٢ - الأعمال الكاملة لعلى مبارك .
- ١٠٣ - الأعمال الكاملة لقاسم أمين .
- ١٠٤ - رسائل العدل والتوحيد .

- ١٠٥ - كتاب الأموال - لأبى عبيد القاسم بن سلام .
 ١٠٦ - فصل المقال - لابن رشد .
 ١٠٧ - رسالة التوحيد - للإمام محمد عبده .
 ١٠٨ - الإسلام والمرأة فى رأى الإمام محمد عبده .
 ١٠٩ - التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ - لمحمد مختار باشا
 المصرى .-

ج - بالاشتراك مع الآخرين :

- ١١٠ - القرآن : نظرة عصرية جديدة .
 ١١١ - محمد ﷺ : نظرة عصرية جديدة .
 ١١٢ - عمر بن الخطاب : نظرة عصرية جديدة .
 ١١٣ - على بن أبى طالب : نظرة عصرية جديدة .
 ١١٤ - الحركة الإسلامية : رؤية مستقبلية .

د - تحت الطبع :

- ١١٥ - الحوار فريضة إسلامية .
 ١١٦ - الإسلام فى عيون غربية .
 ١١٧ - معالم المشروع الحضارى الإسلامى .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٥
القضية	٩
الدلالة وملابسات النشأة	١٣
الإسلام والكانتوليكية الأوربية	٢٥
الدين والدولة	٣٩
حضارتنا والعلمانية	٥٧
القفز على حقائق الفكر ووقائع التاريخ	١١٧
عصر محمد على باشا والعلمانية	١٢٧
عصر الخديوى إسماعيل والعلمانية	١٤٥
الاستعمار يفرض العلمانية	١٦٣
ثورة سنة ١٩١٩ م والعلمانية	١٨٧
جمال عبد الناصر والعلمانية	١٩٧
كلمات ودية	٢٠٧
المصادر	٢١٩
المؤلف : سيرة ذاتية	٢٢٧
الفهرس	٢٣٩



هذا الكتاب

إن الخلاف بين الإسلاميين ، و العلمانيين : قد أصبح : المأزق : الذي يقسم الأمة ،
ويبدد طاقتها ، ويفتح لأعدائها المزيد من الثغرات ! ...
وللخروج من هذا المأزق : لا بد من الحوار حول قضايا هذا الخلاف :
• فالعلمانية : ماذا تعنى ؟ ... وهل لها فى نهضتنا ما كان لها فى النهضة الأوروبية ؟؟ ..
• والدولة الدينية : ما علاقتها بالفكر السياسى للإسلام ؟؟ ..
• وهل من الممكن أن تكون الدولة : إسلامية ، و : مدنية ؟ .. تطبق الشريعة ..
والأمة فيها هى مصدر السلطات ؟؟ ..
• ونهضتنا الحديثة : من محمد على حتى عبد الناصر - مروراً بالخديوى إسماعيل
وسعد زغلول - هل كانت علمانية ؟؟ ...
إن الحوار بين فرقاء هذا الخلاف .. والسعى إلى حسمه بكلمة سواء .. هو الرسالة التى
تنهض بها صفحات هذا الكتاب ! ...

المؤلف